تجليات جدي الشيخ المهاجر

حسيبة عبد الرحمن

رواية

دار الجمل

نينوى

تجليات جدي الشيخ المهاجر



اسم الكتاب: تجليات جدي الشيخ المهاجر - رواية
اسم المؤلف: حسيبة عبد الرحمن
عدد الصفحات: ٢٦٢
القياس: ١٤.٥ * ٢١.٥
١٠٠٠/٢٠١٠م-١٤٣٠هـ

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

سورية - دمشق - ص ب ٤٦٥٠
تلفاكس: ٢٣١٤٥١١ ١١ ٩٦٣ +
هاتف: ٢٣٢٦٩٨٥ ١١ ٩٦٣+
ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org

منشورات الجمل، بيروت - بغداد
تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١١١٦٦٨١١٨ ، ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ - بيروت - لبنان
Al-Kamel Verlag 2010©
71687 Freiberg a. N. – Germany .Postfach 1127
www.al-kamel.deWebSit:
E-Mail: info@al-kamel.de

العمليات الفنية:
الإخراج والطباعة وتصميم الغلاف
القسم الفني ـ دار نينوى
الصورة وتصميم الغلاف: الفنان السوري يوسف عبدلكي

حسيبة عبد الرحمن

تجليات جدي الشيخ المهاجر

رواية

حسيبة عبد الرحمن

كاتبة وروائية سورية

لها:

- سقط سهواً (مجموعة قصصية)
- الشرنقة (رواية)

المشهد الأول

التجلي الأول

الزمان لا زمان، ميتافيزيقيا الزمن، لاهوتيته الممتدة من القرون والعقود دون توقف أو استفهام.

تخرج الأزل إلى الأبد، تتشابك قرون الإسكندر المذهبة من مياه فينيقيا، وتغرز بذوراً جديدة في آلهة الخصب السابحة بين الماء والسماء، تعلو الزغاريد، زغاريد عرس دموي غرائبي الشكل.

تُحرق المدن وترحل مع سكانها، وتبقى الأعمدة، وبعض الأسماء والألواح. ومع الأيام يغدو ذو القرنين أسطورة من أساطير فينيقيا وعيداً من أعيادها المقدسة ورسماً من رسومها الحجرية والفخارية، وتعلو القرنين المذهبتين الرايات الأرجوانية، ملطخة بالسواد والقدسية.

المكان جبال وعرة تنحدر باتجاه البحر، تتحول إلى منبسطات أرضية، ألسنة متداخلة بين صخور البحر، حيث ترتسم جنيات الليل وهي تشرئب بأعناقها الطويلة من مياه البحر، أو من برك مياه عذبة، لا تلبث الجنيات أن يخرجن عاريات، يغوين الرجال، يقدنهم إلى حتفهم.

ترتفع الجبال الشاهقة لتجاور قباب السماء وتلامس أطرافها. وكأن تلك الجبال هاربة من أرض مدنسة وآثام بشر نزلوا من السماء فجأة. تربعوا عروش الأرض الأولى والثانية... ووصلوا إلى السابعة؛ عندئذ قدموا القرابين من جديد لآلهة قديمة جديدة ساكنة في طبقات السماء تكفيراً عن عصيانهم أوامر الرب.

وإذ ظنوا أن قديسيهم ظلوا هناك، فلم يعد عليهم إلاّ متابعة النذور و"فجور الدم"، لتغفر ذنوبهم الدنيوية وآثامهم اليومية، وهكذا يعودون إلى الحلم الأبدي، جنة الفردوس، يخلدون فيها بعد أن فقدوها مرة واحدة منذ آدم وبسبب حواء

الخطيئة، فهي من أغوت آدم، وأطعمته التفاحة، وأنزلته الأرض، وظلت تغوي الأنبياء والقديسين، وتتسبب في إشعال الفتن والحروب، إنها الشيطان كما يشاع ويقال!!.

استوطن الجبال أقوام هاربون من الحروب والنزاعات و القتل، وآخرون ظنوا السكن هناك يقرّبهم إلى الرب. بنوا بيوتاً ومواقد حطب و"تنانير" خبز. زرعوا الأرض حنطة وزيتوناً وعنباً ورماناً.

عالم الجبال تخاله خرافياً خيالياً يختلط فيه السحر بالشعوذة، وتملأ الغرابة تجاويفه وثناياه، أما حوافه فيعلوها الضباب المغلف بالإيمان الغريب، عالم مغلقٌ إغلاق ديانات سرية، أو فنتازيا، وربما أحلام متكسرة داخل كرات الثلج المتراكمة منذ آلاف السنين في أعماق التراب والجبال والصخور، والشجر السامق، بحيث ينقل أصحابها تاريخ الماضي والحاضر، تشاركهم الطيور المغردة والمهاجرة، نقل تاريخ الخليقة بهذه الألسنة المختلفة والغريبة.

هناك تعيش الأشجار العالية الوارفة الظلال، أشجار المناطق المطرة مع نباتات الجرود القاحلة، الشوكيات المحصورة بين الصخور، تتلاقى ويتلاقح القمح والزيتون مع أشجار البلوط والسنديان في مكان فسيح وضيق، سهلي وجبلي، بحري وبري، قاحل وخصب، ويمتد الحور والسنديان بغصون محنية فوق السماق الغافي على حوافي قلوب سكان المنطقة كندى الصبح.

السماق يكبر، يعانق شجيرات اللبّن المعرشة فوق أوتاد الوديان، الوهاد، الصخور، الشوكيات اللينة المخضّرة والمخضبة بالدمع كعيون عاشقة دامعة تنتظر حبيباً لن يعود.

أما تاريخ المكان فهو جزء من عالم الميتافيزيقيا، من بداية الكون إلى نهايته، إنه البقع، البقعة المقدسة التي أوجدها الله، واختارها لتؤوي وتحمي المظلومين والمقهورين والفقراء، مثلما خلق من قبل العنكبوت لإخفاء وحماية الأنبياء والرسل الصالحين من أيدي الظالمين.

رويت حكايات وحكايات عن سكان الجبال الشاهقة الوعرة، حكايات

غريبة غرابة الأمكنة والأزمنة، أقاصيص مثيولوجية ملونة تلون الجبال المختلفة من قلاع كسرى وما قبله وما بعده، إلى قلاع البحار الخضراء والسوداء والبيضاء ومنها إلى الجبال الداخلية وآفاقها اللامتناهية للرؤى والعصيان. قيل أنهم جان ولا يمكن أن يكونوا إنساً. تحدثوا عن غرابة أشكالهم، طباعهم، أصولهم، أديانهم، وأكد البعض أنهم إنس بذيول قصيرة. وآخرون وصفوهم بحيوانات أو أنهم أقوام جاءوا من قصص العصيان وليالي الخوف. والحكايات عن سكان الجبال تتوالد، تتناثر كالفطر ، وكأنهم رقيم فخاري كتبت عليه رسوم وألغاز لا تحل. ورب قائل: إن مغامراً من مغامري ركوب البحر، أو صياداً خرج يصطاد السمك ومن سوء طالعه، وجد قنينة مغلفة بالرصاص، ظن أنها تحتوي الياقوت والمرجان أو ست الحسن، وإذ بمارد جبار يصرخ بصوت يهز جبال تلك الجزيرة النائية قائلاً:

_أنا فلان الفلاني، جدي كذا، أغضبت الملك سليمان.. ويكمل الحكاية التي تكبر وتكتسي لحماً ودماً وأحداثاً على لسان شهرزاد القلقة، قلق الحكاية الطويلة كمساءاتها وصباحاتها المعدودة والممتدة، طالما ظلت الحكاية مشوقة لشهريار الملك الملول، ويتابع المارد:

إنهم قوم أتقياء، أو كانوا أتقياء مؤمنين بالله ورسله وأنبيائه، إلى أن جاءهم الشيطان، تلبس زعماء المدينة، وأوهمهم أنه رسول فاتبعوه. غضب الله عليهم، وأرسل لهم هازم اللذات ومفرق الجماعات، قوماً لا يهابون الموت ولا القتل ولا الدمار. أعملوا السيف فيهم، هرب من هرب، وبقي من بقي، ومنهم المارد وجماعته الذين -بأمر من الله العلي القدير- نقلوا إلى جزيرة نائية ومتحركة في آن معاً.

وقد يكون الجبل ضوء شارداً، أوميض فكرة لحكاية فقراء وجوعى ومشردين. كان أمير مدينة مترفة قد ضاق ذرعاً بالبذخ، فاستقدمهم أطفالاً عراة وخادمات جميلات، يسمع قصصهم ليكسر الملل والضجر من حياته، ويغير أنماط النساء المترفات عنده.

أو أن الجبل رواية أناس ضعفاء منكسرين هزهم الشوق لبطولة تنسيهم ضعفهم وهزيمتهم، فنبشوا الأساطير القديمة، ألبسوها أسماء متعددة، وأصبحت مع الأيام والعقود والقرون تاريخهم.

كل ذلك حكايات متفرقة لأزمان متداخلة وهرمة، أضاليل وافتراءات وكذب، أو استطرادات لغوية لا معنى لها. سفسطة كلامية لقتل الضجر والقلق، والأصوب أنها هرطقات خاصة. بقي أن نقول إن سكان الجبال عصاة متمردون خالفوا الأمراء و الملوك، وقاتلوهم، وتحصنوا الجبال.

حاول الملوك الغزاة من أقاصي الأرض حرق الجبل ودكه بالمنجنيقات، لكنهم لم يستطيعوا، وبقي شاهداً على عنفوان الحياة وقدرتها على التجدد والتجديد.

في مساء لا يرتبط بالتقاويم المألوفة... على قمة شعفة جبل تتحفز لتقفز على الأرض، وتتبعثر في الفضاء.السد يم اللانهائي، الهيولى. كانت عينا الشيخ إبراهيم تشخصان إلى القمر الواهي، ترمقان خيوط الغيم التي بدأ ت تسدف وتستر ذلك الكوكب المضيء شيئاً فشيئاً. عند ذلك بدأ الشيخ بأدعيته اليومية المعتادة:

- يا رافع السماوات، وباسط الأرض، يا من جعلت الشمس والقمر نوراً وضياء للعالمين، وجعلتهما صورة تجليك.

يا إلهي: يا من خلقت الكون، ابتدأت به، وإليك يعود.

حدق الشيخ إبراهيم في قمره الواهي، رآه يقترب منه أكثر فأكثر. كانت خيوط الغيم تبتعد، توسع فسحة أكبر لتجلي الرؤية، رؤية الشيخ، ترشقه بنظراتها عن بعد، والشيخ يحاول تفسير تلك النظرات، أهي نظرات عتب!! توجس!! دعوة إلى شيء ما!!. انجلى القمر للحظات. أصبح بدراً منيراً. وجهاً مضيئاً ما لبث وانشق إلى فلقتين، وصوت هادر شق السطح الترابي. فتهاوى الشيخ إبراهيم قليلاً. تسمّر في مكانه للحظات. ثم استجمع قواه، نفسه، ووقف من جديد ممجداً اسم الرب، وقدرته على كل شيء. سمع صوت الرعد مرة

أخرى، وشق السطح شقاً آخر. اندمجت فلقتا القمر من جديد واستدار.

- قم وارتحل يا إبراهيم.

تطلع حوله، ثم وجه بصره إلى السماء، ظلال قمر تختفي بعيداً خلف الغيوم البيضاء التي كست القمر، الوجه القمري لذلك الكوكب البديع_ تبارك الخلاق بما خلق. وغطى الغيم الظلال القمرية.

استدار الشيخ إبراهيم إلى الغرب، تلمس وجهه بكلتا يديه، كانت أسنانه ما تزال تصطك، بدأ يكلم نفسه:

ـ علي ألاّ أخاف. الله العلي القدير اختارني من بين بني البشر، لأرى نوره الذي حجب عن العالمين، قد خص برؤيته الأنبياء والأتقياء والدعاة من طلاب العلم وأصحاب اليقين، إنها حكمته سبحانه.

تهدجت البسملة بين شفتي الشيخ إبراهيمم، سكنت الجمل، الأحرف، وكأن حجاب الرؤية أنيط عنه اللثام، ليظهر على مرأى الشيخ الجليل.

صمت، سكون، سكون مخضب بالتقوى أطبق على المكان، أبعد خطوات بعض المارة، وأخفى خلفه حفيف الشجر وأصوات الإنس والجان، والحيوانات الجائعة والعطشى، وكأن الله عز وجل اختار تلك اللحظة لتتبدى الرؤية، رؤية واضحة جلية أمام عيني الشيخ إبراهيم.

سور القرآن، أحرفه النورانية سُطرت في بؤبؤ عينه مع التشكيل، الفتح، الضم، الكسر، السكون، التشديد، والسور تقترب وتدخل حواف روحه ونفسه، الفاتحة، الضحى: والليل إذا سجى... ظلالٌ. وجوه نورانية بعيدة وشاحبة تقترب أكثر فأكثر، يظهر الوجه النوراني الساطع والغارق في أمواج النور أيضاً. قرأ الشيخ الأحرف المرسومة أمامه، سجد، تابع قراءة الآيات، والسور القرآنية المنزلة بماء الذهب وتلك الأحرف الكبيرة في بداية السور. الألف، وما تعني الألف مع اللام؟ الله "الأحَد". م النبي الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم "الأحُد". راء رب. طاء طالب. هاء هارون. ص صالح. سين أسلم، سلام، سبحان..سلمان. أحرف إعجاز لن يعرفها أو يفسرها إلاّ الصفوة من العلماء

والصالحين، ممن كشف عنهم الحجاب. إنها دلالات، إشارات، أسماء، مسيّرو الكون من نجوم.. سماء.. بحار.. ماء.. حياة.. اختصاصات موزعة للسماء والأرض... للكون وحركته الدائرية.

فتح الشيخ يديه، حاول احتضان الآيات البينات، اقترب منها ليقبلها لكنها ابتعدت عنه. أعاد الكرة مرة ثانية، فابتعدت أكثر. جاءه صوت الرعد من جديد:

- أحذر وصلت الهاوية!!

ارتجف جسده، نظر إلى الأسفل، كانت قدمه تخطو باتجاه حافة السطح الترابي الذي يحتاج إلى عرجلة، رجع إلى الوراء وهو في حالة خضوع وخشوع، كانت حركة جسده قهقرية، زلت قدمه دون دراية منه -حركة يسميها العلم فيزيائية- ولكن الحركة حركة نفس وروح طاهرتين. إنه في حلم أو هكذا خيل إليه. تلك الأصوات التي ترتفع محذرة كلما أوشك على الوقوع، فتنقذه وتدفعه لتحريك أقدامه بضع خطوات.

تعرّق جسده من رأسه إلى أسفل قدمه، ارتجف أكثر فأكثر، كاد أن يقع مرات عديدة. رفع يديه:

- يا رب أهذا سر الإيمان. سر العرفان. لا تحرمني منه يا علاّم الغيوب.

يا رب بحق أنبيائك ورسلك وأوليائك الصالحين الطاهرين، افتح بوجهي بوابات العلم، بحق شجرة النخيل التي هزتها مريم، وتهاطل التمر، العلم منها.

يا رب. يا من جعلت الشمس صورة تجلي إشراقتك الصباحية ونورانيتك المقدسة، لا تحرمنا النور والماء يارب العالمين، ولا تحرمنا من رحمتك يا أرحم الراحمين. يامن جعلت الليل سدولاً، والقمر ضياءً والشمس نورا.

انتصب الشيخ إبراهيم ومشى نحو الدار، وضع قدمه فوق الحجارة السوداء المرصوفة على شكل درج غير منتظم، حجارة بعيدة عن بعضها البعض ناتئة بحيث تتسع لقدم، وأي خلل أو خطأ في دعسة القدم تتساقط الحجارة ومن عليها. عمر تلك الأحجار عمره، عمر، أزمان، قرون... التمع ضوء أمامه، هداه إلى الحجارة المبعثرة، ونزل السطح المرتفع دون تعثر أو سقوط..

مد يديه فوق سطح "السدة" -الغرفة الصغيرة- إلى أوراق الكرمة المعرشة على سطحها، انتزع وريقات منها، ثم نزل إلى ساحة الدار المرصوفة هي الأخرى بالحجارة الناتئة، حمل حجراً ووضعه على الأرض، صعد عليه وأمسك بغصن شجرة الجوز، قطف وريقات من الشجرة المنتصبة في باحة الدار، ووضعها في جيبه، نظر إلى السماء من جديد... تذكر وريقات العنب، خبأها في الجيب الثاني، ثم صلى باتجاه الشرق، والغرب، والشمال، والجنوب، مشى باتجاه شجرة التين، قطع بعض الأوراق وجلس تحتها وفوق البلاطة البيضاء التي لا يعرف عمرها أو من أين جلبت.

دخل البيت الكبير، أشعل السراج وأخرج الريشة والمداد من الصندوق الخشبي القديم ذي النقوش الخاصة، التي حاول الكثيرون فكها ومعرفة صاحب وعمر الصندوق بلا فائدة.

فمنذ أن وضع الشيخ إبراهيم قدمه في البيت قبل عدة سنوات، أو أجيال وذلك الصندوق أمامه، ربما يرافقه. فتحه، تناول الأوراق الصفراء القديمة التي اعتاد الكتابة عليها بالريشة المذهبة القديمة.

دوّن الآيات النورانية والأحرف التي التمعت في السماء، وتداخلت مع أحرف غريبة هندية، صينية، يونانية، الله أعلم، فكها وفهم مغزاها ودلالاتها.

قال لنفسه:

- إنها سر من أسرار الله عز وجل، أحرف مقدسة بدلالاتها، بوابات معرفة. السين سر العرفان، مضيئة مزخرفة.والألف الحرف الأول من الأبجدية أبجدية الخالق الله، المبتدأ ، والميم حجاب رؤيا، رؤيا العين، عين الذات في معناها وقدرتها، عين سر الحياة، إشراقات روحانية. وهذه الأحرف أحرف إشراق، تجليات، تجسيدات الألف المرفوعة دائماً ورموز لها، إنها ساعة طيبة، الساعة تعني الوقت، وأنا دخلت اللاوقت، اللا زمن، ملكوت الله، أسراره، انبثاق القمر، بل ظهوره.. ظهوره واختفاءه المستمرين. سر اليقين، العلم الإلهي، لقد رفعت الحجب في هذا الشهر الفضيل، اليوم هو السابع من رمضان، دخلت الوقت،

اللاوقت، عالم الهيولى، ارتفعت الحجب. تلك النون الواسعة، نون الكون النورانية، والنقطة ليست نقطة، هي نور من الله على الدنيا، نور المعنى، نور العين تضيء العالم من حولنا. أهلاً يا نور الأنوار.

هذا اليوم يوم البتول فاطمة الزهراء، ضياؤها أسبغ على الدنيا برمتها، يومَ هزت مريم شجرة النخيل تساقط التمر، تمر المعرفة، رباب المعرفة، وزفت صفية زفافاً سماوياً. خرج الشيخ ابراهيم إلى الدار، تناول وريقات العنب من جيبه، صورة الصهباء تتلألأ، قطرات العرق تتساقط، لا، تترقرق، تتقطر صامتة كدمع عذراء خدشها حياء كلمات الغزل رغم رقته وعذوبته وبراءته وعذريته.

قطرات الصهباء تنسكب في الوعاء، تتأرجح الصورة، تتضح، تبتعد إلى النور، نور بعيد.. ينبوع الصهباء الأزلي،

يقول لنفسه: ينبوع إشارة دنيوية_ وأنا أعلو في السديم، اللامكان.. أطير.. أسبح.. تختلط الصهباء بالعين.. تتحد في دمعه.

شربت على ذكر الحبيب مدامة سكرت بها من قبل أن يخلق الكرم

تتبدى الصورة، تنزاح، يرتفع الحجاب.. يا إلهي هي صورتك، ظلمتك.. نورك، وبنورك اختفت الصورة.

ظلٌ شاب يلتفح أردية قزح، سديم أجل سديم، تتقشع ألوان القزح، تتبدى الصورة والأحرف والسور من جديد.

نظر إلى سطح الوعاء وعاء الخمر، تأرجحت صورته، سقطت دمعتين من عينيه، امتزجت في صفيحة الفضة، عكرتّها، لا لم تعكرها، استغفر ربه، قبّل ورق العنب، ورق الشجرة الأزلية المقدسة، تجلٍ مقدسٍ، تخبأت روح مقدسة الجذور والعناقيد.

شمّ رائحة الجوز، كانت قد اختلطت برائحة ورق الغار الذي حمله الشيخ من الصندوق القديم، قعد فوق الأحجار المرصوفة قرب الباب الخشبي المثقب،

منذ أن فتح عينيه على الدنيا.

تأمل صفيحة الفضة الصهباء، وجوه نورانية، تحمل كؤوس الخمرة، تستحضرها فتنسكب الصهباء الأزلية، سديم، نور، ظلال، حجبت الرؤيا في الحروف المذهبة المضيئة البراقة، والتمعت من جديد.. نور في نور.

- لابد وأنهم أنبياء، رسل، أوصياء، قديسون.

تأمل الأشياء من حوله كأنه يراها لأول مرة، الحائط، الحجارة، الشجر، الأشياء تتحرك، تتحول من شكل إلى شكل، تدخل عالم التفسير والتأويل. وضع قطع البخور الصغيرة في الصحون الفخارية، ثم جاء بأحجار الصوان قدحها لم تشتعل الصحون، أتى بفتيل مشتعل قرّبه من الصحون، خرجت النار، التمعت، أشعلت الصحون البخورية، وبدأ يضيف لكل منها أوراق التين والجوز والعنب والغار. وقف الشيخ إبراهيم في وسط الدار، حمل صحن البخور دار حول نفسه، وسع الدائرة، السماء دوائر، دوائر. قرأ آيات بينات، ثم وضع الصحن الأول وحمل الثاني، وهكذا كلما أنهى الدوران بصحن وضعه وأخذ آخر، سبعة صحون.. سبع تجليات.. وهو يعاود الحركة من جديد مع قراءة آيات جديدة وكلما بدل صحناً، أفرغ كأساً من الخمرة في جوفه دفعة واحدة.

دار رأسه ودار، لف حول نفسه. عالم أبيض منسوج بخيوط نور، يتشابك الذهب بالفضة بماء السلسبيل. ارتسمت قباب بيضاء ناصعة، وأخرى خضراء محاطة بشجر الجوز والسنديان والبلوط.. وينابيع تشبه الخمرة الصهباء الصافية والكؤوس تدور وتدور. كؤوس... تتشكل من تراب: شُبه لهم، هي كؤوس نور في نور.

كانت شهب السماء تلتمع فوق رأس الشيخ إبراهيم، رآها في صفيحة الخمر، فحدق في وجهه: نيازك تتجمع وتشكل تاجاً صغيراً حول عمامته البيضاء التي تحولت إلى خضراء بقوة الإله الجبار.

أخذت رائحة البخور تمتزج برائحة الليل ونسيمه المعطر بالجوز والغار، ارتخى جسده، تمدد في الدار.

- قم يا شيخ إبراهيم وارتحل.

اندفعت صور قديسين، ظلال ملائكة، وجوه إنسانية، نورانية مضيئة، أجنحة ملائكة تتطاير في السماء، وتحط فوق رأسه، لمح حصاناً بعيداً لونه أخضر أو هكذا رآه وشُبه له، إنها ناقة نبي الله صالح عليه السلام، اخضرت فجأة وحفرت في الأرض أخاديد، هي ناقة الخضر وهو يعتليها بعمامته الخضراء، ارتفعت إلى السماء، أحاطت بها النجوم والنيازك فاخضر لونها، أينما وضعت الناقة قدمها خلّفت وراءها أرضاً خضراء خصبة، بعد أن كانت يباباً وقاحلة حتى سحب السماء تلونت بالأخضر.

هناك قوم يعقرونها ثم يتمسحون بها، عاقرو ناقة صالح لقد تبرؤوا من ذلك بعد أن ضربتهم بحافرها، ورمتهم في الأرض أكثر من مرة، هاهم يتساقطون عنها وإليها. انظروا لقد تكوموا فوق بعضهم البعض وفي أيديهم أشواك انتقلت إلى أجسادهم. اسمعوا، إنهم يصرخون، أجل يصرخون صراخاً جماعياً. نهضوا. ركضوا إلى النهر، يغتسلون بالماء، لعل الله يغفر ذنوبهم، أدوار الأقوام.. اللعنات المتوارثة للبشر العاقين.النبوة توارث.والكفر توارث. والشقاوة توارث.توارث ذرات الإيمان والكفر.. تنتقل. تنقلها الأرواح، ومضة سحر، لحظة تجل، أفاق منها الشيخ إبراهيم، صلى تعبد ربه، تغير لون العمائم الخضراء والبيضاء، رأى وجهه في مكان آخر، ورأساً عليه طربوش أحمر، وجهه، صورة شخص يشبهه، مسجى على الأرض، قتيل، سمع عويل النساء، جنازة، تابوت محاط بالرياحين، صلاة على روح الشهيد، ذهل من جديد، وقف تحت قبة السماء المليئة بالشهب والنجوم المقدسة؛ تجسيدا ته، دلالاته، قدرته سبحانه وتعالى وتجلياته في السماء والأرض، وامتزاجه بالأنبياء على مر العصور والدهور، كل ما في المعمورة خَلقه. تجلياً لقدرته، والكل يسبّح باسمه تعالى:كنا شهباً، كواكب، تهاطلنا إلى الأرض.دعاة مؤمنين.

حمل صفيحة الخمر، شرب وشرب وكأنه عَطِشٌ منذ دهور.

شـــربتها شـــعلةً بـــلا قـــبسٍ تجتليهـــا روحـــاً بـــلا جســـد
وبـــدت مشعشـــةً أوان ظهـــوره فاختصـــها هابيـــل في قربانـــه
صهباء كانت ونون الكاف ما برزت والشـيء منـدمج في علـم باريـه

هي الخندريس تلتمع خلف أبواب المعرفة، بل هي فاتحة الأبواب، هي أولاً في اللوح الأزلي المحفوظ.

فتح عينيه، لقد نام آلاف الأعوام، حمل بين يديه قربان هابيل. وطار هدهد سليمان فوق أكتافه. وأمسك بعصا موسى وشعلته الزينبية المقدسة، سمع موسى يكلم ربه. رأى مريم تهز بيديها النخيل، تهزه طلباً للعرفان. هي تهز الشجرة طلباً للعرفان واليقين، واحد أحَد، فرد صمد، واحد أحَد، فرد صمد، لا إله إلاّ هو.

تطلع إلى النجوم المضيئة، شعشعت أكثر، أضاءت الكون، هو النور يكسر الظلمة ظلمة السماء الساكنة الداكنة، ظلمة الليل الكالح، ظلمة الروح. تتغيرالظلمة...تتحول إلى نور

النجوم تحرك ذلك الليل، والجمل المسكّنة توهّج الدنيا والنار المقدسة، نار ابراهيم مشى عليها بسلام وارتحل في البعيد البعيد. استرخى جسد الشيخ القوي ثانية من رائحة البخور وغفا.

- قم، وارتحل يا ابراهيم، لقد سببنا لك الأسباب.

أمضى الشيخ ما تبقى من الليل قلقاً، آخذاً الدار مرواحاً ومجيئاً.

ومشى في أطراف الدار وزواياه، بحث في أكوام الحطب الذي جلبته نسوة القرية. كان يمشي على رؤوس أصابعه حيناً وعلى كعبيه أحياناً.

قعد في الدار قليلاً، نظر إلى الأفق، تأمل الخيوط البيضاء الأولى للفجر وهي تشق الليل الطويل الحالك السواد. رأسه مازال مشوشاً من رؤى الليل الفائت، قمر ينشق، نجوم، سور مذهبة، أحرف بخط كوفي، رقعي، وطُلب منه الرحيل، كل ذلك حصل ليلة الأمس، وهل كانت رؤى، أم أحلاماً قديمة

متداخلة؟!!.

تشظت رؤاه شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً. اختفت الوجوه النورانية كأنه لم يرها قط. إذاً كانت أحلاماً، مناجاة لله...الله أعلم.

وقف الشيخ إبراهيم متجهاً إلى الشرق، شروق الشمس:

- يا رب السماوات والأرض ساعدني، يارب المشرق والمغرب ألهمني الصواب وأرشدني إلى الطريق القويم. أنا عبدك المطيع ودائماً بين يديك، لم أعصك يوماً أو اشك بك يوماً، يارب السماوات والأرض ساعدني.

دخل إلى البيت اصطدم "بالساموك" -العامود الذي يتوسط البيت الكبير- بسمل من جديد، استرخى ونام للحظات قليلة، سيوف، شظايا، رؤوس، دماء، أشجارعرعار، فضة تحت قدميه، ذهب بين يديه وعلى رأسه هالة تشبه هالة القمر، الياقوت الأحمر، وبين أصابعه بخور ملتصق. فتح عينه، خرج إلى الدار الخيوط البيضاء لم تعد خيوطاً فقد كست السماء، ولم تعد تفصل الليل المغْبشّ وأي ليل!!.

طلع النهار، نظر إلى يديه كانت قطع البخور لا تزال ملتصقة بين أصابعه، حاول فكها نزعها، لم يستطع فتركها، وقال لنفسه_إنها علامة من العلامات التي خصني الله بها.

أحضر قليلاً من الحليب زكاة المرأة العجوز مساء أمس وأجرة كتابته حجاباً لوجع الظهر واليدين. أحس بالبرد بعد تعرق جسده مرات ومرات. ارتدى جلد الخروف فوق قمبازه اتقاءً للمرض وللبرد، ووضع اللفة والطربوش الأحمر فوق رأسه، وفكر بأي اتجاه يسير وأي الدروب يسلك ويمشي، وأي فياف وقفار يقطع!!.

خرج إلى الدار وقف تأمل السماء العارية من السواد، دعا ربه أن يدله الطريق المستقيم والقويم، وألا يضلّ أبداً.

رأى سهم نور شحيح، مشى باتجاهه مودعاً القرية والصباح قد بدأ. كانت السماء تكتسي غيماً داكناً يتوارى أحياناً خلف الجبال والوهاد، ونور الشمس

يسرق نفسه يمتد في الكون، يشق خيوط السحاب المشرئبة وراء التلال. سار باتجاه السهم والقدر المجهول المرصود له، تنبه فجأة، لم يحمل خبزاً وماء... وقدّرَ أنه لن يعود ثانية إلى البيت، وإذا عاد فبعد زمن طويل، وقال لنفسه: سأشرب من أي نبع أو بيت أمر به. والطعام؟... الجوع كافر والناس فقراء ليس لديهم ما يأكلونه، فكيف لهم أن يطعموا ضيفاً مثلي؟. رد عليه صوته الداخلي:

ـ لن يتركك الله فهو من أرسلك.علي أن أسلك دروباً خالية من الإنس

أغلق الباب الخشبي المثقب ورحل.

مشى ومشى طويلاً، تعب، استراح، اقترب الليل، لمح أشجاراً كثيفة، توجه إليها فوجد نبع ماء كصفيحات الفضة، وحصى النبع ناصعة ذات أشكال وألوان مختلفة، قطف بعض الأعشاب، غسلها وأكلها، ثم وضع كفيه تحت النبع، غب وغب ماءً كثيراً، حمد الله، وتمدد تحت شجرة السنديان، غفا من التعب بعد سيره الطويل، رأى حلمه القديم ولكن هذه المرة أكثر وضوحاً:

ميت، تابوت، مقام، بكاء، صلاة، جنازة، طريق وعرة تقع إلى الغرب، أشجار وارفة، سمّاق، وجوه ملثمة.

أفاق من حلمه، أصوات غامضة، ضباب يلف صورته، تذكر وجهاً هو وجهه أجل وجهه، عيناه، ربما مات قبل قرون، عقود، سنوات لايذكر شيئاً عن سنة قتله، موته "موتاته" عاود السير مجدداً، ركض هذه المرة باتجاه الغرب عبر الجبال الوعرة، تعثر أكثر من مرة، قام وتابع ركضه، ثم هرولته، فمشيه السريع الذي بدأ يتباطأ لكنه لم يغير اتجاهه، شيء غامض حرك أقدامه ورأسه، سلك طريقاً ضيقاً جداً، وصل بعده إلى سفح جبل، وقف، أذّن، صلى بصوت عال، حالة غموض وذهول تسيره، قطع غابات بكراً، لم يسمع صوت ذئب أو ضبع، أو ابن آوى مع أنه احتاط من الأخير، ربط طرف حطته. شرب من الينابيع الصخرية العذبة، اقتلع الأشواك من أقدامه المغطاة "بشاروخ" جلدي، لا يعرف عن جلده شيئاً، منذ أن شب وهذا الشاروخ بأقدامه، لم يعد يحس بما حوله، أظلمت الدنيا، عاود أدعيته ثانية ناظراً إلى القمر، الذي ظهر مكتملاً، قرأ:

وجعلنا القمر نوراً والشمس ضياءً وجعلنا من الشمس نوراً والقمر سراجا منيراً. تابع سيره، لم ينم ولم يسترح ، ركض من جديد ، قفز ليشرب الماء ويتناول بعض الأعشاب، كانت خطاه تسبق رأسه، ورأسه يدور ويدور، أشكال، أشباح لا يميزها، صرخ: قرّ، برد، فر، مكرّ، مفر، قتلٌ دماء، أين أنا يا إلهي؟! أصبحت الصورة، الأشكال التي تلاحقني في النوم واليقظة واضحة.

لم يعد الشيخ إبراهيم يميز الليل من النهار، والأيام عن بعضها البعض، كل ما يفعله السير وقطع الجبال والوديان والسهول القليلة، لم يمر في القرى، كان يلتف كي لا يراها أو يرى مخلوقاً، فأي إنس يرمقه أو يلمسه، قد يضيع تعب أيامه وشهوره الفضيلة ورحلته الدينية إلى قدس الأقداس.

ـ هاهو الجبل الشاهق الذي رأيته في المنام، عليّ أن أسرع. تزحلق من الوادي، تمزق قمبازه، وصل إلى الأرض المنخفضة، صعد الجبل الشاهق، أسرع خطواته رقلها أكثر، تعب، لهث، لم تثنه دقات قلبه السريعة عن الصعود، ولا الأين في جسده، توقف قليلاً، وتابع بايجا ف حتى وصل إلى شعفة الجبل، غابة بكر تغطي السفح، ومنحدر في الجهة الأخرى، أزاهير بألوان مختلفة صفراء، حمراء، ليلكية، خمرية، أشجار باسقة، نباتات كثيرة، أصابع العروس تتدلى من الشجر النحيل، وقف تأمل الجبل لبرهة من الزمن:

ـ يا الله ! المنظر بديع، وكأني رأيته يوماً ما. خطا بعض الخطوات، رأى قبة مرتفعة يعانقها الشجر من كل الجهات حتى تكاد لاترى. فوجئ بالرياحين وروائح الطيب والأزاهير، تلف القبة وما حولها، أحس أنه على موعد مع المكان والقرية التي ظهرت وبانت، رآها من قبل، هو المكان الذي يتكرر دائماً في أحلامه، اقترب من القبة تسمّرت قدماه برهة وهو يدخل باب القبة المنخفض والصغير، نظر إلى القبر الطويل من سلالة هاشمية. يُعرف من طول الضريح، جسد تحت حجارة بيضاء.. اقشعر بدنه، القماش الأخضر يلف القبر، قرآن قديم فوق الضريح "مابين" أعمدة ثلاثة صغيرة، رأس كل عامود على شكل مثلث حاول الهروب، الرجوع إلى الوراء، قدماه لم تساعداه، جلس القرفصاء، غير

مكانه، تربع وضع رأسه على طرف القبر، قرأ اسم الشيخ،اسمه القديم وتحته أشعار جميلة كتبت عن بطولاته، تناول القرآن، تلا بعض الآيات وأغلقه، ثم استرخى، غفا ـ الله أعلم ـ طار وحلق بعيداً، رأى الصور من جديد، وكذلك الأشباح أو ما ظنها أشباحاً تتضح، تذكر، صحا من غفوته، هبط من طيرانه، صرخ يا إلهي: تذكرت، هربت ومن معي بعد أن وقفنا في وجه الغزو الهولاكي، التيموري، أجل هربت من المدينة ذات الأسواق المسقوفة والشوارع المرصوفة، يومها كانت الشوارع تسبح بدماء القتلى والألسنة تتطاير تحت السيوف المشرعة. سنابك خيلهم داست الشيوخ والنساء والأطفال، لم تراع حرمتهم.

صوت التكبيرات تكبيرات الشهادة والجهاد، يومها أخفيت الكتب في قبة مولاي وشيخي وسيدي أبي عبد الله. القبة على ضفة النهر في المدينة المنكوبة والجميلة، نعم وضعت الكتب في مكان أمين، جلّدتها غطيتها ودفنتها.

دعيت بعد قرن وقرون، لأحارب الغزاة من الغرباء، لَحقني بصاصوهم الأنذال والأنجاس أحاطوا بي، رموني بالسهام، هربت، تواريت خلف الصخور، فتشوا عني وراء الشجر والصخر والنهر، لكن الله أعمى عيونهم، ليس هذا فحسب بل تطايرت سيوفهم. كتبتُ آيات بينات ونقشت الأحرف المقدسة بالكوفية وبالخط الديواني، لا ادري متى قُتلت بعد شهر، شهرين، العلم عند الله.

وما أدراني أني قتلت!!

أجل قتلت بضربة من غزاة المدينة أصحاب الشعور الطويلة، الضربة أتتني من الخلف وأخرى في القلب، لا يزال ندب عند قلبي. بعد سنوات نعيم ورخاء، كنت قاضياً للمدينة، ولما استقر الأمر للغزاة، قرروا قتلي للمرة الثانية، هرّبت أولادي وزوجتي، ثم حاولت التسلل إلى القلعة لأنصب فخاً لهم، لكنهم كانوا قد احتلوها ووضعوا المراصد فوق ثغورها وقُتلت هناك. دعيت بعد مرور سنوات.. إلى عشاء في قصر على شكل قلعة مغلقة عصية، أنا وكان معي شيوخ آخرون، ذُبحنا هناك... شي ما حصل، ما هو!!؟

خرج من القبة الصغيرة إلى قبة السماء الكبيرة، رأى جسده منتصباً وروحه تطير وتطير على شكل ذرات تتجمع، أجنحة طيور ترفرف في احتفال سماوي.

نظر إلى السماء، عربة مجنحة بيضاء، أرجوانية، حمراء، خضراء، أسرار قدسية أمام ناظريه، فبدأ بكتابة الأخرف أحرف مثلثة الشكل والهندسة قاعدته حرفان وقمته حرف ثالث ذوات وجواهر ، تعددت المثلثات والأحرف تداخلت فيما بينها، الأف ــ ياء ، نون مضمومة، عين سن. ارتفع الشيخ، علا وعلا إلى السماء الثانية، نور متوهج، أغمض عينيه، لم يعد يرى شيئاً سوى النور، النور، نور الله، بل قبس نور، قبس ضوء.. رحمتك يا رب الأرباب.

عاش في بغداد والقاهرة، رطن بالفارسية والهندية واليونانية، وتحدث الآرامية والسريانية والعبرية، تكلم بلغة الطيور والجن وو....

تنفس من جديد رائحة الزينب تعبق في المكان تمتزج برائحة البخور والطيب..

النور يجلل، يكلل الشيخ، والمكان معه.

خف جسده.. لم يعد جسداً، شيء ما انتزع منه.. روح تطير.. تسبح، النور النور، لحظات الكشف لمعت، برقت، شعلة موسى، خمر، كؤوس، دين، دنيا : دنيا ليست هي الدنيا، غير مألوفة أو معروفة، أجمل وأبهى.. وهذا الضياء، ضياء غريب مبعثر وساطع، ساطع وخافت. تجمعت حزم الضوء، أخذت شكل قوس، قمر، أجل عاد كالعرجون القديم. وتلك العين عين الشمس، ساعة طيبة، أطلب من الرب ما أشاء، لحظات استجلاء الروح وفناء الجسد. طيران الروح إليه سبحانه إلى النور وأظلة النور، فكت الطلاسم. طسم طاء طالب. سين منورة. م محمد ... ياآل رسول الله يا آل النبي.

كُتبتْ منذ زمن طويل..عهود قرون إنها قبل الأزل، نقشت في اللوح القديم: يامن ظهرت لآدم وعيسى وموسى ومحمد .. وتجليتَ في عصا موسى، وفي التين والزيتون وطور سنين. يا صاحب العرش واللوح المحفوظ سبحانك تعالى، امنحني طهر النفس والإيمان.. يارب العالمين يا علي يا عظيم. انبثقت خيوط

الفجر، تأمل الشيخ ابراهيم السماء، ارتسم القمر، الوجه القمري.

شكل وجه غمره النور تساءل: من يكون؟!!. أيد تمتد بكؤوس الخندريس النورانية، خمرة صهباء مشعشعة. السماء تحتفل بقربان جديد. زفاف سماوي، والشهود ملائكة..

هي ولادة ذاكرته وهذه هيئته، ذاته، روحه، أجل روحه والوجه تغير، منذ قرون وأجراس تدق في أذنيه، أجراس مستترة سماوية، كلمات لم يسمع بها من قبل، نطقت بكل لغات الأرض منذ قرون: ناس وجان، أجراس وطيور، دبيب نمل ونحل، حاول حفظها، لكنها كانت مختفية.. إنها بداية المعرفة، معرفة العلم الإلهي في طبقات السماء، فيض الله، فيض من علم الله وذاته.

رأى نفسه يشرب آخر قطرات الخمر الزلال المعتق، قبل دهور شرب بكأس فخاري، صبها من الآنية الزجاجية المشرئبة العنق وسط أكوام التبن وأعواد الخشب، كانت تدعوه، تناديه إليها مشعشعة مندمجة في علم باريها، غنى:

شربته فانتشى كلي به طرباً منزهاً من قذى شكٍ وتمويه

غرائباً وإشارات غرائبها ترمي أخا اللّب بالمعنى فتصحيه

هي أول المعرفة معرفة ذاته، شخصه، روحه، عمره، أعماره، أجياله المتراكمة فوق الجبال وأسطحة القباب البيضاء والخضراء، هو، هي أحرف الصخور، ندى الفجر فوق السنديان وأوراق الجوز والكرمة.

صلى الشيخ إبراهيم من جديد ورحل مع نور القمر الذي هداه، وأنار طرقه ودروبه الوعرة، كان حفيف الشجر والأصوات الغريبة المتنوعة تمده بالإيمان بالصبر.

تدفقت رؤاه، رؤى، تجسيدات جمالية خارقة، الأنهر، الينابيع، أقباس النور، دن العسل والخمر، أطياف عيون حور، كمثرى، أطايب الطعام والشراب.

- يا الله سبحانك، أسبغ علي نعمة المعرفة والإيمان، واجلِ بصري وبصيرتي أكثر فأكثر، يا رب الأرباب، يا رحمن يا رحيم.

قدماه تضربان الأرض وكأنهما تنذران بأيام عصيبة وأعوام جدب وقحط،

وربما كانتا تضربان الأرض خصباً أو جنوناً أو إنذار طاعون !! الله علام القلوب والغيوب.

البرودة أنعشت جسد الشيخ، رائحة التراب الرطب، ورق الشجر المندى بعثا الدم في عروقه، نُبشت عزيمته، وأسرع في المشي، وكأنه في سباق مع نهاره وليله وطلوع فجره.

تابع الشيخ إبراهيم سيره. صور قتله مرات ومرات تتأرجح مع الرؤوس المحشوة بالتبن: أجل كان ذلك يوم الدعوة إلى القلعة من قبل المماليك، مماليك أتوا من بقاع الأرض ، يوم القتل الجماعي، فتلونا بالوا على جثثنا .. داسوا علينا بحوافر الخيل. سالت دماء الشهداء أغرقت البلدة أيام وأيام، والله سبحانه وتعالى عاقبهم، شل أيديهم وبدل جلودهم الآدمية وأزاحهم بعد أن ناحت النسوة ومات الأطفال خوفاً، ومن بقي حياً هرب مع أمه باكياً. مسخهم الله، بدل جلودهم. أجل بدلهم الله حوّل وجوههم إلى غربان، بعد أن أغرقونا في الخوف وسرية اللغة العربية والسكن في المغاور مع الوحوش. يا الله كم من الجيوش الغريبة غزتنا ، وأوقعت ببلادنا وبنا المجازر واضطررنا إلى الهرب منها كي ننقذ أطفالنا ونسائنا !!، يا إلهي كم من الأماكن والبيوت سكناها وتركناها !! كدنا أن ننسى أنفسنا وأعرافنا وعرفاننا. عشنا نعيماً قصيراً دون غزو في تلك المدن العتيقة ذات الأسواق المسقوفة والأرصفة المرصوفة فتحنا البيوت ذات الأبواب الخشبية، زرعنا الورود في الدور، عشنا زمناً سعيداً وقصيراً. كانت الأعين ترصدنا خلف الأبواب والجدران، وفي ليلة ليلاء هجم المغول علينا، قتلونا، هجرّونا، شرّدونا، والله سبحانه انتقم منهم، فقد جف نهر المدينة ويبست البساتين ومات الضرع، وضرب الطاعون هؤلاء الغزاة القتلة، سبحانه هو المنتقم الجبار. تاريخ غزو والغزو يعني القتل والدمار، والهروب من خيلهم وسهامهم إلى الجبال والاعتصام بها، ورغم ذلك حاولوا الوصول إلينا وقتلنا لكن الله سبحانه جعل الجبل سداً في وجوههم وحمى المقهورين.

مشى الشيخ ومشى، كان بريق السماء يخفف أوجاعه ويدمل جروحه.

وقف قليلاً:

إنها صورة الباري عز وجل، انبعثت شفقاً، بل هي قمصان الرب، وتلك عين تلمع خلف الشفق الأحمر الملون بالضباب لحظات وداع زرقة السماء، انقشاع الغيم، إنه الأفق الواسع خلفه عالم وعالم آخر، هاهي قمصان الرب تظهر من جديد وتزهو، تدل على عظمة الخالق. وعين الشمس عين الله تبرق تضيء الكون، العالم، الله سبحانه يجلوها لمن يشاء، إنها قدرته تعالى عز وجل.

أنا لم أطلب التجلي، هي إرادة الباري، انتقاني وخصني بها كما خص محي الدين بتجلياته وأحرفه وأشعاره الروحانية.

صوت العصافير، عصافير الجنة تزقزق فرحة بطيرانها وبأجنحتها الملونة، تسبّح باسم الخالق، يا الله أصوات زقزقتها تبعث الراحة والأنس.

يا إلهي بحق نوح وهود، بحق إنجيل عيسى وقرآن محمد، بحق صورتك في الظلمة والنور، بحق تسييرك لأركان الدنيا الأربع وما فيها، بحق من خصصتهم بذلك، وبحق قدرتك على كل شيء، أرشدني طريق النور والعلم، وأبعدني عن طريق الضلال يا علي، يا عليم، يا قدير، يا كريم.

وصل الشيخ إلى مكان الرصد، إنها القرية الأولى التي سيدخلها، نظر ملياً إلى القرية، وتوجه إلى أقرب بيت، وكان متطرفاً جداً عن بيوت القرية. رأى أمام الباب عجوزاً سألها:

- أين شيوخ القرية؟.

- لا يوجد لدينا شيوخ، دلته إلى شيوخ في القرية المجاورة.

غادر الشيخ القرية ومشى باتجاه الطريق الذي دلته عليه العجوز، وصل إلى مرتفع قريب، دب النعاس في عينيه، رأى مغارة قريبة دخل إليها سمع صوتاً رتيباً، مشى باتجاهه رفع بصره، الماء ينقط من سقفها، نام ونام ملء جفونه كأنه لم ينم في حياته، سكون المغارة صوت تنقيط الماء أدخل السكينة إلى روحه وألبسه ثياباً مزركشة، تذكر المغارة تبعد مسافة عن القرية التي يقصدها عند ذلك قام وتابع مشيه مع خيوط الليل التي بدأت تنذر السماء الزرقاء وتهدد

لونها. توجه إلى الغرب، صلى ثم تابع سيره، وصل إلى القرية وسأل عن شيخها، فأرشده شاب إلى بيت يقبع فوق تلة مرتفعة، ذهب باتجاه المنزل وعندما وصل صرخ:

- يا أهل البيت

خرج رجل طاعن في السن وسأله:

- ماذا تريد؟ من أنت؟

- أنا الشيخ إبراهيم.

- أهلاً، وأنا الشيخ محمود.

أعطاه الشيخ إبراهيم علامات وإشارات: من أين يشرب، وطول ذراعه، وأنه "مشتد"؟.

دعاه الشيخ محمود إلى البيت ودخلا معاً.

وبدأ التباسط في الحديث بينهما، سأله الشيخ محمود:

- من أي المناطق أنت ياأخي؟ وما الذي جاء بك إلى هنا؟.

- اسمع يا أخي قبل أن أجيب، أريد منك خدمة.

- وما هي ؟

- اطلب شيوخ المنطقة لأروي لكم ما جرى معي، معه، ومن أكون؟ يكون.

فقال الشيخ محمود:

- حدثني أولاً.

قص الشيخ قصته، ابتداءً من الرؤيا إلى القبة، وصولاً إلى دفن الكتب والرموز التي اختفت في الكتب المفقودة. تاريخ الرقعيات، الرواة ومن هم وتسلسلهم ؟. ثم عرج على أسماء الشهداء، وكيف قتلوا ودفنوا؟.

ذهل الشيخ محمود وهو يستمع إليه، ويسأله عن كل تفصيل وحدث. انتعشت ذاكرة الشيخ إبراهيم، وأورد تفاصيل وأحداث حضرت لتوها أثناء الحديث. بكى الشيخ محمود قام وقبّل الشيخ إبراهيم وقال:

- اقسم بالذي جعل الماء جماداً، رأيت شخصاً ملثماً مكللاً بالنور منذ أيام

راكباً فرساً وبيده كتب وعلامات. صرخ بي:

ها أنا آت إليك يا محمود، إياك أن تذكر شيئاً عني الآن ومضى. قام الشيخ محمود ونادى رجلاً من القرية طلب منه التوجه إلى شيوخ وعلماء المنطقة في نفس اليوم والساعة.

وصل الشيوخ في ساعة متأخرة من الليل، سمعوا رواية الشيخ إبراهيم ورؤاه وأحلامه. إنه الشيخ الذي تناقلوا أخباره. الشيخ الذي يرحل من مكان إلى آخر، ومن زمن إلى زمن، إنه المهاجر!!

تباحثوا بما قاله الشيخ، وقرروا إرسال رجل صالح إلى المدينة القديمة والى قبر الشيخ الإمام الجليل المنسي غصباً عنهم، للبحث عن الكتب.

كانت نظرات المشايخ بين المصدقة والمكذبة، ولكي يقطع دابر الشك باليقين، لا بد من المغامرة وجلب الكتب وهذا يكون دليلاً قاطعاً على صدقه، وعلامة من علامات تقاه، وإلاّ فالرؤية كاذبة وكذلك الشيخ.. ولعله مدسوس من قبل الظُلاّم والمنافقين ليعرف ديننا ويكشفه.

جرى الحوار بينهم صامتاً ومتفقاً عليه، لطالما تعرضوا إلى مواقف "وأذيات" ومطبات كثيرة، واستطاعوا التخلص منها بفضل من الله فسلموا وأنقذ عرفانهم، وذلك عبر الطريقة التي ألهمهم الله إياها، حوار العيون والنظرات، كل نظرة لها معنى خاص.

أرسلوا في طلب رجل ذي سمعة صالحة، نقدوه أجرة الرحيل والسفر، وأعطوه فرساً أصيلاً يركبه، وطلبوا منه الحيطة والحيلة والسرية والحذر، وعدم البوح لأحد عن سفره، ولم ينسوا إعطاءه تعليمات سرية في حال مواجهته رجال الدرك العثماني وغيرهم والتعرض للأسئلة.

شكرهم الرجل على ثقتهم وقبل أن يركب فرس الشيخ محمود، ذكّروه بضرورة الصلاة في المقام، واستسماحه خطاياهم وذنوبهم، والدعاء لهم.

طلب الشيخ إبراهيم الإذن بالرحيل ولكن الجميع أصر على بقائه بحجة الاستزادة من علمه ومعرفته.

بقي الشيخ في البيت، وبدأت الأسئلة تنهال عن ماضيه وأجياله... ثم تحولت الأسئلة عن الإمام وكيف وصل إلى المدينة القديمة وهو من مكان بعيد.

روى الشيخ إبراهيم الحكاية:

عن فلان ابن فلان - الجميع يعرف الأسماء التي قالها_ هرب الشيخ صاحب القبر من سجن مدينة بغداد، الذي وضعه أمير الجيش الهولاكي فيه بعد أن سمع عن كراماته، اتهمه بإثارة الفتن والبدع، فأرسل الله ملاكاً إلى السجن فكّ قيده في الليل، ووضعه على جناحيه، وطار به إلى المدينة القديمة حيث قابل أخاه في الدين، وعاش في بلاطه ونعمته.. يتصيد الشعراء الكبار في اللغة والمعاني.

- وماذا فعل الأمير الهولاكي ؟

- بحث عنه في الشرق والغرب، الشمال والجنوب، لم يجد له أثراً أو يلقى ما يدل على هربه. ذاع خبر هروب الشيخ في المدينة، وأعلنت ولاءها وإيمانها به، وصار له مريدون ودعاة كثر نشروا اختفاء جسده وطيرانه بقدرة من الله عز وجل، ولكي يكذّب أمير الجيش الشيخ ودعاته، اتهم الحارس وجاريته بتهريبه من السجن. وفي رواية أخرى، اتُهمت الجارية فقط. قيل أنها أسكرت السجان، وفكت قيود الشيخ الجليل وهَرّبته. والناس لم يصدقوا قائد الجيش الغازي ورجاله وقضاته.

تكلم الشيخ إبراهيم طويلاً، وعندما صمت التمعت بوابات مذهبة، قناطر مرمر معلقة في السماء، وكأنها بنيت له وحده، لا أحد يراها أو يسكنها سواه، بوابات مرفوعة بين السماء والأرض رائعة الهندسة، مكسوة بالياقوت والزبرجد، محاطة بأشجار عرعار وشجر نخيل نوراني موشوم بالذهب.

نام الجميع في البيت الكبير ذي الحجارة السوداء والمداخن والنوافذ الكبيرة والصغيرة، بعد أن شربوا الخمر ولفوا السجائر وغنوا القصائد الصوفية.

في الصباح تحدث الجميع عمّا شاهدوه في أحلامهم، ودلت الرؤى أن الشيخ إبراهيم صادق، وهو فعلاً الشيخ المهاجر أو هو الشيخ..!!

عند الظهر تناول الجميع الدجاج المسلوق والبرغل، وقبل تناول الطعام أمّ الشيخ إبراهيم المصلين جميعاً.

سألوه عن مكان ولادته، شبابه، تلعثم لم يجب وكأنه ولد هكذا بهيئته هذه..روحه هي، هي روح الشيخ إبراهيم، تداخلت أماكن ولادته وعيشه وأجياله مع بعضها، وكذلك القتل، قتله وقتل من معه، دماؤه ودماء الآخرين... اختلطت عليه اللحظات.. وغاب.

صمت الجميع واتفقوا ألا يسألوه الآن، وانتقلوا إلى الأحاديث عن الأرض والزراعة والزكاة والظلم والقهر. وعادوا إلى غناء الأشعار، أشعار الأولياء عن أسفارهم وما تعرضوا له من أذى، وعن براهينهم وعلاماتهم، وانتقل الحديث إلى تأويل آيات القرآن وما تعنيه كل آية وما هي تفاسيرها المتعددة، وما يراد منها، ثم قرؤوا رسائل بعض الدعاة، وتحدث كل شيخ عن الحيف الذي تعرض هو مدينته وعشيرته له، وويلات الجور والقهر والتعذيب من عساكر الغزاة الذين داهموا سهول وجبال ومدن هذه الأرض الطيبة والمباركة وطردوا أهلها أو أكرهوهم على الرحيل. وكان العجب في كل قصة وحكاية تروى. صمتوا قليلاً عندما انتصف الليل سمعوا صهيل فرس، ميّز الشيخ محمود صوت الفرس القادم، إنه صوت فرسه. خرج الشيوخ واستقبلوا الرجل الذي نزل عن الفرس. فتح السرج وأخرج كتابين اثنين. ألقى السلام وناولهم الكتابين، فتحوهما، الورق أصفر يكاد يلتصق مع بعضه البعض، قال الرسول:

- هناك كتب أخرى في السرج، عاد الرسول وحملها إليهم.

بكى الشيوخ عندما فتحوا الكتب والرسائل، قاموا وقبلوا يد ورأس الشيخ إبراهيم، واعتذروا عن شكّهم أول الأمر. قال أحدهم:

ـ شكراً لك يا شيخ، هاهو تاريخنا المكتوب، بعد أن كان شفاهياً يعتمد على ذاكرتنا، الآن أصبح لدينا كنز لنشر تاريخنا ودعوتنا.

سأل الشيخ محمود الرسول إن كان هناك كتب مدفونة في المقام أم لا.

أجاب الرسول: أجل يوجد سرداب ويحتاج الدخول إليه إلى حيطة شديدة،

وأعتقد والله أعلم أن كتباً وكنوزاً مدفونة فيه، لكن الأعين العثمانية مفتوحة وأي مغامرة بالدخول إلى السرداب قد تكشف أمرنا لهم، فنقتل أو "يخوزقوننا"؟ كما يفعلون في عباد هذه البلاد كلما اشتموا رائحة تمرد أو عودة إلى لغتنا ولو لم يكن القرآن عربياً وخوفهم لما سمحوا لأحد بنطق العربية.

استأذن الشيخ إبراهيم منهم وطلب الرحيل، حاولوا ثنيه عن ذلك لكنه أصر وقال:

- هناك ما ينتظرني، ورحلتي لم تنته بعد.

ودعهم، وتابع سيره.

لم تنم قرية الشيخ محمود تلك الليلة، فالحديث عن الشيخ المهاجر، أجياله ورؤاه وعلاماته وتقاه، قد استحوذ على عقل وحديث القرية، وكل واحد يبلغ أقاربه أو معارفه من القرى المجاورة، فما حصل لم يكن قليلاً، وتحول سر الشيخ المهاجر إلى سيرة الركبان والضجرين. خلال يوم فقط انتشر صيته في المنطقة. رجع الشيخ إبراهيم إلى قبة الرصد، رصده. يمم وجهه شطر بيت المرأة العجوز، وإحساس داخلي يقول له:

- في هذه القرية شيء ينتظرك.

وصل إلى بيت المرأة العجوز التي سبق وسألها عن الشيوخ، كان البيت طينياً على حافة الانهيار يقاوم الموت، مقاومة المحتضر. ابتسم:

- وكأني لم أره في المرة الماضية.

صرخ بأعلى صوته:

- يا أهل الدار.

جاء صوت المرأة المعمرة.

- من المنادي؟

- أنا ياأختي.

خرجت المرأة إلى الدار وفتحت قطعة خشبية مهترئة_ باب الدار_ نظرت من الفتحة الكبيرة رأت الرجل المنور الوجه، هو ذاته الرجل الذي سألها قبل أيام

عن مشايخ القرية، دعته إلى الدخول مباشرة.

دخل الشيخ وسألها :

- من يسكن البيت؟

-أنا .

قرر الشيخ مغادرة المنزل، ودّع العجوز وتوجه نحو الباب، مسكت المرأة بقمبازه ومنعته من الخروج بعد أن أقسمت الأيمان ألا يخرج من البيت قبل أن يأكل عندها .

دخل الشيخ إلى البيت المظلم ذي الثقوب الكثيرة، تطلع إلى محتوياته، فرش عتيقة، بساط ممزق، صوت عنزة شق صمت البيت، وخرج من بين أكوام التبن والحشيش اليابس، وفي الجهة اليمنى ثياب قديمة، والحقيقة أن البيت يعج بفوضى غريبة، الأشياء تتداخل مع بعضها البعض، ويصعب التمييز ما بينها .

كانت العجوز تبحث عن شيء ما، أما الشيخ فكان واقفاً، يتأمل البيت والعجوز. سألها :

- عم تبحثين أيتها الأخت؟

- عن جلد الخروف.

ابتسم الشيخ وقال:

- لا داعي.

- إنه هنا .

ابتسم من جديد .

- أين ستجدينه وسط هذه الأكوام!!.

تابع الشيخ تأمُل ما حوله، رأى طبق قش لا أجمل ولا أحلى، علقت عيناه على الرسومات الرائعة وتداخل الألوان وامتزاجها ، ومنديل حرير لم يرَ في حياته مثله، في حين كانت المرأة المسنة لا تزال تتابع البحث عن جلد الخروف الذي وجدته أخيراً مع مرزة قماش ممزقة.

مدت الجلد المتسخ والممزق، وضعت فوقه المرزة المهترئة، ودعت الشيخ إلى

الجلوس.

لم يحرك الشيخ ساكناً، نظره معلق على طبق القش، وعلى المنديل، دعته ثانية وثالثة إلى القعود، لم يرد، اقتربت منه، وضعت يدها على كتفه، لم يتنبه، ربتت على كتفه من جديد:

- يا شيخ تفضل بالجلوس.

نظر إليها وكأنه آتٍ من عالم آخر.

أعادت الجملة مرات ومرات إلى أن جلس الشيخ، حملت إليه وعاءً نحاسياً قديماً وصغيراً فيه حليب ماعز، وقطعة خبز من الذرة الصفراء، وضعتهم في طبق قديم ألوانه باهتة ولكنه جميل أيضاً، رحبت العجوز بالشيخ ثانية، واعتذرت عن الطعام القليل.

قال الشيخ لها:

- يكفي هذا، لا تعذبي نفسك أيتها الأخت.

- شرفتنا يا شيخ والله لو كان لدي دجاجة أو أي شيء يذبح لما عززته عليك. هزت رأسها قليلاً وتابعت: العين بصيرة واليد قصيرة. أردفت العجوز:

- منذ وصولك يا شيخ، وأنت تنظر إلى الطبق والمنديل.

- لم أر أجمل من ألوان الطبق ولا منديلاً مصنوعاً بهذه الطريقة.

- لفّته أنامل ابنتي.

كانت العجوز تبكي بحرقة وبدموع حرة وهي تذكر ابنتها، سألها الشيخ:

- وأين هي؟

- لقد أخذها أبوها.

- إلى أين؟

- لتخدم في المدينة عند عائلة ثرية، أخذ أجرة خمس سنوات وسافر يجرب حظه بعيداً، ركب سفينة ورحل بعد أن باع كل ما يملك، فأصبحنا كما ترى، حتى ابنته الوحيدة باعها هي الأخرى، ادع لها يا شيخ أن ترجع سالمة، فأنا أراها في الأحلام متضايقة.

- إن شاء الله سترجع إليك....

لم يكمل الشيخ الجملة إلى نهايتها، أحس أن هناك أذى قد لحق بها، لكنه لم يقل للأم شيئاً.

ودع الشيخ المرأة العجوز، وهو حزين:

- شكراً لك أيتها الأخت على كرمك.

- لا يوجد شيء من واجبك يا شيخ.

ثفت خلفه بسرعة.

- يا شيخ، الله يخليك اقبل هذه الزكاة.

- ومن أين لك بالمال؟

- إنه بيض.

يا أخت أنت امرأة وحيدة، وستحتاجين إليه، اتركيه وكأني أخذته، مشواري طويل ولن أستطيع حمل شيء معي، والله سبحانه وتعالى يتقبل منك هذه الزكاة، والله يجازيك عني كل خير، أين أستطيع النوم؟

أشّرت له بيدها :.. هناك في نزل البيك اسماعيل، إنه يقع وسط القرية، يبعد عن هنا مسافة ربع ساعة مشياً سريعاً.

ودعها وسار باتجاه نزل _مضافة_ البيك. وعندما وصل تأمل النزل، لم يكن يختلف كثيراً عن بقية المنازل من الخارج إلاّ الضخامة والكبر، دخل إلى الدار، شرب ماءً من جرة فخارية قريبة من الباب، حمد الله وصرخ بأعلى صوته:

- يا أهل النزل.

رد عليه الخادم:

- من أنت؟

- أنا الشيخ إبراهيم المهاجر.

عندما سمع الخادم بالاسم ركض إليه وكاد أن يتعثر، قبّل يديه الاثنين مرات ومرات، كتفيه، ودعاه إلى الدخول، ثم ركض وفتح باب النزل:

ـ تفضل يا سيدنا، فقد سمعنا عنك ما يجعل المرء يؤمن، ويخاف الله وإن كان قد عمل "السبعة وذمتها". وليس من حديث إلاّ قصص رؤاك، وأجيالك عبرة لمن اعتبر، قد س الله روحك.

هرول الخادم باتجاه بيت سيده ليخبره بالقادم، بعد أن دعا الشيخ إلى الجلوس، وصل صوت الخادم إلى أذني الشيخ وهو يصرخ:

- سيدي سيدي، تعال بسرعة الشيخ المهاجر في النزل.

كان الخادم يتكلم ويتلعثم:

- سيدي سيدي، في وجهه قبس نور، والله إني رأيته في منامي آتياً إلى هنا. شيخ جليل له شأن كبير في الدنيا والدين.

صرخ البيك:

- اخرس.. منذ متى جاء؟!

- قبل قليل، سلمت عليه، أدخلته النزل، وأتيتك جرياً.

-اسبقني سأذهب إليه حالاً وإن لم يكن هو، سأضربك يا كلب.

- إنه هو، هو يا سيدي.

قرر البيك الذهاب إليه، سار هرولة، دخل المضافة، ركض البيك إلى الشيخ إبراهيم، وقف مذهولاً:

- أقسم، لم أر وجهاً يسطع منه النور كما هو وجهك يا شيخ.

أسرع باتجاهه، وقبّل يديه، كتفيه، وثيابه، ثم رحب به:

- حلّت علينا بركات السماء والأرض.

- أهلا بك.

- الدنيا لا تسعني من الفرحة أيها الشيخ الجليل القدر والمقام، خبرني كيف وصلت إلينا؟ كنت سأبحث عنك وأدعوك، وها أنا بين يديك. رحل الشيخ بعيداً بعقله وروحه، رحل يكلم نفسه، ويكلم السماء:

- ربي طلبَ مني الرحيل، هي حكمته لا اله إلا هو، اختارني من بين الناس جميعاً، وقال لي: اذهب يا إبراهيم في بلاد الله الواسعة، واختار لي الطريق،

والدخول إلى هذا البيت، والخيرة فيما اختاره الله.

نظر إلى الشيخ، وسأله:

- والى أين؟

- لا ادري وجهتي، وجهتي هي التي يختارها الله، ربما أُعلم القراءة والدين الحنيف، وربما أكمل مسيري.

غمز إسماعيل الخادم، فقام وأتى بألفية العرق، وصب كأسا فخارياً كبيراً:

- تفضل يا سيدنا، وبارك عرقنا.

شفّ الشيخ شفة واحدة، ابتلعها ثم أفرغ الكأس دفعة واحدة في جوفه، وأعادها إلى الخادم فارغة.

صمت طويلاً، يكلم نفسه:

كرمته، كرمة عنب، خمرة صهباء، خمرة زلال، ناولها آدم إلى.. إلى.. إنها الخمرة الأزلية.

كان البيك والخادم ينظران إليه مذهولين، أشار البيك إلى الخادم.. ووشوشه:

- ما الذي يحصل؟

- لا أدري يا سيدي.

ناول الشيخ كأس الفخار إلى النادل. صب النادل كأساً آخر للبيك، شربه دفعة واحدة، ثم بدأ يصب كأساً آخر فسأله الشيخ:

- لمن؟

- إليكم يا شيخنا.

- يكفي.

حرك البيك يديه وشفتيه، حركة غير مفهومة ترك الخادم الصيوان بخطى سريعة، أحضر ديكاً حياً، ناوله الخادم إلى الشيخ طالباً منه ذبحه، رفض الشيخ تدخل البيك، وأقسم: لن تخرج من المنزل قبل أن تأكل من زادنا وتبارك أولادنا.

رد الشيخ:

- لقد تعشيت.

- عند من ؟

- في بيت امرأة مسنة فقيرة.

- وأين تسكن؟

- في طرف القرية.

- لماذا أكلت عندها؟ هذا النزل نزلك، وبيتي بيتك، لك الصدر ولنا العتبة وهذا الديك نذر علي منذ زمن.

- أشكرك.

- والآن تفضل معي إلى البيت.

رفض الشيخ أول الأمر، زاد إصرار البيك أكثر، اضطر الشيخ للنزول عند رغبته والذهاب إلى بيته بعد الأيمان والقسم والحلفان، وصل الشيخ إلى بيت البيك اسماعيل، بيت حجري كبير حجارته بيضاء محفورة بطريقة جميلة، دخلا إلى ساحة الدار المزدانة بالحبق والورود الصفراء والحمراء، وفي طرف الدار شجرة عنب تعريش على الحائط، بعدها بقليل شجرة تين كبيرة، وفي الجهة الثانية بئر ماء ودلو، وشجرة توت كبيرة.

دخل اسماعيل وضيفه إلى الغرفة الواسعة "المضافة" المبنية على شكل قناطر، نظر الشيخ إلى الجدران النظيفة والبيضاء، والى القناطر المزدوجة المتشابكة، عدّ القناطر، أربعة. سقف البيت مرتفع جداً يشبه سقف النزل، ويختلف عنه بالعُقد والشبابيك الحجرية العريضة والممتدة، تكاد تحاذي سقف البيت علواً بل وتصل نزولاً إلى مسافة قريبة من الأرض، الجدران هنا أكثر ثخانة ونظافة من جدران النزل، أما الأرض فمكسوة بالسجاد السميك المزخرف بألوان وأشكال رائعة مختلفة، وقد وضع فيها أربع "دشكات" خشب مفروشة هي الأخرى بالسجاد و"اللبابيد" الملونة، وفوق كل دشك أريكتان محشوتان بالصوف وغطاؤهما مخمل قرمزي اللون، هذا اللون يذكره ببيته، قصره الكبير ذو الردهات الواسعة والجميلة، والجدران تشبه جدران بيته...

تذكر: كانت الجدران مزخرفة بماء الذهب والأحجار الكريمة، مكتوب عليها آيات قرآنية. عاد إلى المكان تأمله جيداً قال لنفسه:

_ البذخ واضح، الناس هنا فقراء وجوعى وهذا لديه كل شيء.

نادى إسماعيل زوجته وأولاده، جاؤوا جميعاً، ومعهم امرأة بثياب رثة، نظر الشيخ إلى المرأة الشاذة بينهم: غريبة عن إسماعيل وأهل بيته. سلمت زوجة إسماعيل وأولاده على الشيخ، ثم أتت المرأة الفقيرة، وقبلت يده وقمبازه وبكت. التفت الشيخ:

– من تكون؟

– إنها خادمة تساعدنا في أعمال البيت، تأكل وتشرب وتنام، فقيرة ومقطوعة من شجرة، نحن نرأف لحالها.

دعا إسماعيل الشيخ إلى الجلوس فوق الدشك الذي يقبع في صدر الدار_ الصيوان_ ولم يكتف بالأريكتين فوق الدشك، أحضر أريكة ثالثة، وجلس البيك بجواره:

– أهلا وسهلاً، حلت علينا البركات يا شيخنا.

أشار بيده للخادمة، أحضرت الماء الساخن في وعاء نحاسي كبير، واقتربت من الشيخ، وضعت الطشت بجوار قدميه، وطلبت زوجة إسماعيل منه أن يغسل قدميه، اقتربت الخادمة وجلست القرفصاء بجوار الشيخ، مدت يدها لتغسل رجليه، رفض الشيخ بشدة وطلب منها الوقوف:

– أنا أغسل قدمي لوحدي ولا داعي لأن تتعبي نفسك معي.

تدخلت زوجة إسماعيل وقالت:

– أنا أغسل قدميك يا شيخنا.

رفض أيضاً، قامت زوجة إسماعيل وأتت له بقطعة قماش نظيفة لينشف الماء عن قدميه، في حين أحضرت الخادمة إبريقاً نحاسياً كبيراً وكأس فخار صبت للشيخ شراباً ساخناً. سألها الشيخ:

– ما هذا؟

- زوفا وبعض الأعشاب معها.

أمسك الكأس الفخاري ونظر إليه طويلاً، سمع صوتاً نسائياً:

- مساء الخير.

رفع بصره، ارتجفت يده، فتاة سبحان الخالق العظيم لما خلق، اقتربت من الشيخ، ارتجف، مدت يدها لتسلم عليه، استغفر ربه، ومد يده، قبّلت الفتاة يد الشيخ، أغمض عينيه للحظات، وأدار وجهه، تمتم:

- تبارك الخلاق فيما خلق، صبية جميلة، سبحان من صوّرها.

قال البيك:

- ابنتي زينة.

ابنة جميلة، وأب سخي وكريم، هذا ما قاله الشيخ لنفسه، ويده ما تزال ترتجف، ولم يعد يتمالك نفسه، اندلق قليلاً من الزوفا على سرواله الأبيض_ السروال الذي أهداه إياه الشيخ محمود بعد تمزق سرواله القديم واتساخه_ فتغير لونه ا إلى الأصفر، قامت الفتاة وأتت بقطعة قماش عليها ماء، حاولت مسح البقعة عن سروال الشيخ، أحس برجفة في جسده:

- هذا يكفي.

تدخل الأب:

- يا شيخ، قلت إنها ابنتي، لا داعي للخجل.

- (الله يخليلك ياها).

- يا ابنتي هاتي سروالاً جديداً من الصندوق.

- لا تعذب نفسك.

- هذا ليس عذاباً، إنما شرف وبركة لي.

أتت الصبية بالسروال، فقام البيك وعائلته وتركوا للشيخ حرية تبديل الثياب.

قالت زوجة إسماعيل: ألا تتعشوا؟

أجابها إسماعيل:

- جهزوا المائدة ريثما يذبح الشيخ الديك. انتهوا من العشاء، صرخ إسماعيل: (هاتي) فراش صوف ولحاف، ضعيهما فوق " الدشك " كي ينام الشيخ نوماً مريحاً.

- شكراً لك.

غادر الجميع المضافة، بعد أن أحضرت الصبية الفراش واللحاف ووضعتهم فوق "الدشك" تمدد الشيخ، حاول النوم، دخل إسماعيل عليه حاملاً فراشه ولحافه لينام بجواره.

خلال لحظات غفا إسماعيل، وصوت شخيره يعلو ويعلو فيزيد من قلق الشيخ. كانت جدائل ابنة إسماعيل التي تشبه شجر "الخروب" تتمايل أمامه، تغرقه في عالم من الخيال، والشيخ يتعوذ من الشيطان، لكن عينيها المائلتين إلى الاخضرار حيناً والى العسل المصفى أحياناً، أبتا مفارقته واقتحمتا تعويذاته جميعها..

كانتا تقتربان منه.. اقترابهما من ضوء القنديل الأصفر.. عينان واسعتان جميلتان. غفا قليلاً، رأى شعر امرأة مجنون يلتف حول شجرة بلوط، والشعر يزداد طولاً، ويمتد نحوه، يصل إلى يده، يحاول الهروب، تتبعه خصلات الشعر كشلال حرير لاينتهي، وفوقه ذلك المنديل الحرير مع الطبق ... أفاق، نظر حوله سمع شخير إسماعيل.

خرج إلى الدار، ثم دخل الصيوان، استغفر ربه، حاول النوم والنعاس الجميل يفلت من عينيه، يهرب إلى الشعر الحرير، يتقلب يميناً وشمالاً. حاول النوم على ظهره، بطنه... والشعر يصل إلى الوسادة.

خرج ثانية إلى الدار، سمع أصوات النسوة في الصيوان الداخلي، الأم والأولاد ينامون في الصيوان الصغير.

عاد إلى الصيوان، حاول انتزاع صورة الفتاة والهرب منها.. سروال ملون، خصر مشدود بزنار بديع، منديل حرير، ليس الذي رآه في الحلم، منديل مزدان بدوائر الفضة، صوت خشخشة الفضة الرائعة والقوية كلما أدارت الفتاة رأسها

بسرعة، وتلك الخشخشة الخجولة وهي تلتفت بهدوء وخفر، فضة مع ضفائر الشعر الخرنوبي.. يا إلهي شيء بديع.. بديع يارب السماوات. انبلج الفجر أخيراً.

قام الشيخ إلى الدار وصلى، تطلع إلى السماء كانت آخر النجمات تنسل هاربة مع خيوط الفجر والغيم، خطوط سوداء تهرب وخيوط بيضاء تأخذ أماكنها في السماء.

أدار وجهه، وإذ بتلك الصبية الحسناء تقف سافرة الرأس، وخشخشة الذهب تأتي من أقراطها الكبيرة المعلقة بأذنين صغيرتين.أصوات الخشخشة تقول أنّ أنثى رائعة تختفي خلف الأبواب والأثواب الزاهية.

وقف الشيخ مذهولاً أمام الجمال الإلهي، نور الصبح تسربل بأثوابه الزاهية والداكنة، انزاح الغبش وحل مكانه بياض السماء مشوباً بالزرقة ومتداخلاً مع آية الجمال الواقفة قبالته.

سألته الصبية:

- أتريد شيئاً؟

صوت بلابل قادم إليه.

- هاهو إبريق الماء إن كنت ترغب في غسل يديك ووجهك.

صمت أعاد ترتيب الكلمات ورنة الصوت من جديد، تلعثم في الجواب، نظر إليها بطرف عينه، وجهها أشبه بآية، ولكن حرام تشبيه الوجه بالآية. قال الشعر.. بل غزلٌ بالإله وليس بالنساء والبشر..

منذ شهور وهو يفكر بأبيات غزل، وهاهي تنزل عليه فجأة مجسدة بوجه فتاة، تسحر الشيخ. أدار وجهه عنها، استغربت الفتاة، ولم تفهم سبب حركة وجهه، ثم صعوده إلى السطح..

أفاق إسماعيل، سأل ابنته عن الشيخ، أشارت بيدها إلى السطح، طلب الفطور وصعد إليه، رأى الشيخ يعرجل السطح، فأقسم أن يترك من يده، وينزل إلى البيت كي يفطرا معاً..

فكر إسماعيل قليلاً:

- هل تفضل تناول الفطور هنا؟

- كما تحب.

نزل الشيخ وإسماعيل إلى الصيوان، وطبق نحاس يسبقهما وعليه طعام الإفطار، نظر الشيخ إلى الطبق، ليس جميلاً كطبق القش الذي رآه في بيت العجوز، رسومات، ألوان هذا الطبق باهتة، داكنة. في حين تضج ألوان طبق القش ذاك، يتباهى ويتفاخر بألوانه الزاهية وأمواج البحر فيه التي لا تعرف قراراً مقارنة بهذا النحاسي. تذكر منظر البحر عندما ذهب إلى البلدة الصغيرة بقصد التعزية، كانت أمواج البحر زرقاء تتلاطم بلانهاية.. وألسنة الجبل تمتد إليه. اجتمع بعض الشباب من البلدة، عرفوه غريباً من سؤاله وطريقة لباسه، ضحكوا عليه وما يزال يذكر نظراتهم الشذراء.. وضحكهم:

- انظروا شيخاً عاقاً كهذا يتأمل البحر.

لم يسمعه الشيخ، ربت إسماعيل على كتفيه، وأضاف:

- ألا يعجبك الطعام؟

تأمل الشيخ إسماعيل، ونقل بصره إلى الصحون النحاسية، والخشبية، وقال:

- كيف لا؟!.. منذ زمن لم أتذوق طعاماً كهذا وفي وجبة واحدة!! إني أحسد نفسي، قالها مبتسماً، ركض الزمن به وراءً... الموائد العامرة في المدينة الكبيرة، الخراف المحشوة بالصنوبر واللحمة ذات النكهة الهندية، كؤوس الندامى... أكل فارسي، هندي، تركي، كانت الصحون فضة منقوشة بماء الذهب. وسائد موشاة بالذهب، شعراء، مداحون، غناء رخيم دافئ، وكأنه في حلم.

أنهى الشيخ إفطاره، لاحظ إسماعيل أنه تناول نوعاً واحداً من الطعام، ابتسم:

- كأنك تميل إلى الزهد يا شيخنا؟

- حياتي الحالية تتطلب مني هذا. قام الشيخ ليتابع رحلته الغرائبية،

أحضرت ابنة إسماعيل "زوادة " من خبز الحنطة (القليل جداً) وجبن، وزبدة، وعسل، لفتهم بقطعة قماش بيضاء نظيفة، ثم وضعتهم بمنديل حرير لها، مدت يدها وناولته الطعام، كانت تقف مسحورة أمام شيخ غريب الأطوار، جميل الطلعة، شارد الذهن، حاضر بقوة، رغم صمته وشروده الطويلين، نقي، تقي الإيمان، سمعتْ قبل مجيئه بأنه سليل عائلة إيمان وتقى، علاّمة ديني كبير، وحلاّل المشاكل العالقة بين الناس، سَمعته يغني ويقرأ سورة مريم بصوته الشجي، شيخ سماوي، وليس أرضياً، أنزلته السماء في غفلة عن البشر. تطلعت إليه، حملقت به، كان يسبح في ملكوت السماوات، هكذا ظنت... بينما هو يفكر بتلك الصبية الجميلة. نظرت إلى يديه، أصابعه الطويلة، بهذه يداوي الناس بالأعشاب... و..وهذا الشيخ الجليل القدر والمقام أمامها بقامته المشوقة الطويلة، ونظراته التي يصعب تفسير معناها وتأويلها، أهو ينظر إليها؟ تنبه إلى جمالها أم أنه سابح في ملكوته الخاص؟ فكرت للحظات بكل ذلك، ولم تصل إلى قرار. رغم مكوثها أمامه، وتحديقها في عينيه. ودعهم ورحل دون أن تفهم شيئاً، حاول الشيخ أخذ بعض الطعام وإعادة قسم منه، رفض إسماعيل وأقسم بالأيمان الغليظة أن لا يرجّع شيئاً، ثم قبّل إسماعيل يديه ودس بهما "مجيدية " ذهبية، رفضها الشيخ وأعادها إليه، أغلق إسماعيل الباب الخشبي، وأقسم ألاّ يفتح قبل قبوله الزكاة المتواضعة، قبل الشيخ الزكاة ودعا له بوفرة المال.

غادر الشيخ إبراهيم البيت متابعاً مسيرته، فرأى نفسه يتخذ طريقاً كأن الأقدار تقوده أو تشاء أن تقوده إلى بيت المرأة العجوز، صرخ بأعلى صوته:

- أيتها الأخت وداعاً.

خرجت المرأة المسنة تتعثر بخطواتها، بعد أن سمعت صوته:

- أهلاً يا شيخنا تفضل.

- إني راحل، أتيت لأراك وأطمئن عليك وأودعك.

- استرح قليلاً.

دخل إلى البيت الذي يشبه البيوت المقفرة والمهجورة لولا تداخل الأشياء

الحية به. صمت قليلاً، نظر إلى طبق القش والمنديل، تأمل ألوانهما الجميلة التي أضاءها النهار، دمعت عينيه.

- ماذا بك يا شيخنا؟

لم يرد، أعادت السؤال ثانية، وعينا الشيخ شاخصتان إلى الطبق والمنديل، دققت العجوز نظرها في الشيخ، تابعت عينيه:

- أعجبك الطبق أم المنديل؟

- الاثنان رائعان وحق السماء.

وخياله يرسم جمال اليدين اللتين صنعتا الطبق، والأهم الروح، أي روح جميلة لدى الفتاة لتختار الألوان الزاهية وهذه الرسوم. لم تشبع عيناه من الطبق، سقطت " زوادته " بين أشواك العليق والعوسج، تدحرج الطعام، لكن الطبق بقي في يده رغم الخدوش وأشواك العليق، يداه أطبقتا عليه ولم تفلتاه، ودخلت الأشواك إلى ثيابه.. احتضن الطبق وأصبح بجوار قلبه وروحه رافضاً التزحزح والتدحرج والابتعاد عنه. انتزع معظم الأشواك العالقة في ثيابه، وجمع " زوادته " ومضى، لم يحس بالوقت أو الجوع أو العطش أو البرد، كأن الله أرسل له الطبق هدية ليسلى طول الطريق والجوع وكل شيء.

وصل إلى نبع ماء صخري، جلس بجواره، نام بعض الوقت، أفاق، غسل يديه ووجهه، مسح ثيابه، فكّ "الصرة"، ذهل لرؤية منديل حرير، منديل لم يره من قبل.. مسكه بين يديه، لف حواف الطبق به تأمله لا ليس منديل الخادمة، إنه منديل ابنة البيك.ضحك من نفسه، وحمل الطبق والمنديل وما تبقى من الطعام. رأى الشعر الخرنوبي والعيون الواسعة والوجه الجميل ينط، يقفز من الطبق، يداه ممدودتان، ولسانه يقرأ، ويقرأ... شَعرٌ متناثر في كل الجهات، يتطاير في الهواء، يقترب من وجهه، يداعبه، يهرب. ابتسم جاءه صوت من الخلف، ارتجف، وعاد إلى رشده:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام.

- طريق قرية الزعفران من هنا!!

- علمي علمك...!!

تركه الرجل، جرّ حماره وراءه، ثم ثفره... شتم الحمار وساعة مجيئه إلى تلك القرية الضائعة بين الجبال ليبادل الحنطة بالزيتون.

عادت صورة الفتاة تخترق عيني الشيخ، استغفر ربه عن الرجل وكفره، ومن صورة الفتاة وهاجسها، فكر في الأمر، توصل إلى أن المؤمن لا ينظر إلى امرأة أي امرأة إلاّ بالحلال.

اقترب من نبع ماء فكّ " الزوادة " من جديد، وضع الطعام، فتح فمه، يد تمتد وتطعمه، تلاحقه، تداعب شواربه، وذقنه إنها هي...

- عليّ بالزواج.

جمع الطعام، غسل يديه بماء النبع، نفض الطبق، لفه بمنديل الحرير، ومشى قدماه تجرّانه، ورأسه يتخبط بالأفكار والرؤى والرغبات.

كان الغروب يناديه بين الشجر، رفع بصره إلى السماء، شعرٌ تدلى فجأة بين أقواس السماء الملونة، شعرٌ يناديه، يندهه من بين الأغصان الخضراء، خشخشة منديل حرير أيقظته، أسرع الخطا، ركض باتجاه قبة ظهرت له من بعيد فوق ربوة قريبة منه.حلّ التعب عليه تباطأت خطواته، ووصل أخيراً إلى الرابية، جلس تحت شجرة جوز عتيقة بجوار مقام. كانت شجرة سنديان تعانق القبة، اقترب منها، شجرة تفيء زوار المقام، تمدد تحتها، ظلت عيناه تبحثان في الأفق عن نجمة ساطعة، عن قمر مقدس بدأ يضيء لتوه المكان، ويلون القبة البيضاء، قام وتمشى بجوار القبة.

هناك بقايا نار، اقترب منها، بقايا عظام، إذاً كان زوار هنا، قدّموا الأضاحي والنذور منذ ساعات فقط.

جمع قليلاً من الحطب، والتجأ إلى جدار القبة، أشعل النار بحجار الصوان هذه المرة ليتدفأ من لسعة البرد، دخل إلى المقام، ونام حتى الصباح، تناول طعامه وتابع سيره، قدماه قادتاه إلى قرية مهملة، لفتت انتباهه أكوام من غصون

الأشجار اليابسة، نُشر عليها سراويل نسائية ملونة، وقف قليلاً بجوار الغصون. حدق في المكان، قبر ذو حجارة بيضاء، اقترب من القبر، قرأ الاسم، ضرب كفاً بكف، الشيخ الجليل أحمد بن سلمان بن..ذهل، لم يعد يعرف بماذا يفكر، أو ماذا يقول. مر بقربه رجل، توجه الشيخ إبراهيم إليه:

- ألا تعرف هذا المقام؟

- أجل.

- أنت من هذه القرية؟

أومأ الرجل برأسه: نعم. (لاح) الشيخ رأسه، قال بصوت هادر موجهاً الحديث إلى القبر:

- إن كنت شيخاً وفيك شيء لله وتقياً ونقياً... كيف تترك النسوة ينشرن سراويلهن بجوارك....؟! كيف تسمح بذلك؟!. أي شيخ جليل يقبل هذا الانتهاك لحرمته وحرمة الشيوخ الأجلاء!.

كان الرجل لا يزال واقفاً يسمع صراخ الشيخ إبراهيم، ويضحك عليه ومنه:

- مخبول... رجل مخبول.

لم يقطع الشيخ إبراهيم مسافة قصيرة إلا والنار شبت في الحطب، وأحرقت السراويل والغصون، وكل شيء حوله.. وبدأت تمتد إلى البيوت القريبة منه. ركض الرجل خلف الشيخ صائحاً:

- يا شيخنا داخل عليك انظر خلفك.

التفت الشيخ فرأى دخاناً يملأ السماء، اقترب الرجل من الشيخ، قبّل يده، وطلب السماح والغفران له ومنه، وسأله عن اسمه، أجابه: أنا الشيخ إبراهيم المهاجر، عليكم يا أهل القرية أن تبنوا قبة للشيخ أحمد وإلاّ لن تتوقف هذه النيران، وإذا توقفت الآن... ستشتعل بعد حين.

- أتوسل إليك يا شيخنا أوقفها، وسنحاول بناء القبة،لا قدرة لنا على بنائها الآن، عندما يتوفر معنا المال سنبنيها بإذن الله، وأعدك بأننا لن ننشر بعد الآن غسيلاً أو أي شيء، وسننظف المكان.

- حاولوا والله ييسر أموركم.

ودعه الشيخ وتابع سيره.

انطفأت النار، صرخ الرجل: يا أهل القرية، الشيخ إبراهيم المهاجر كشف سر الشيخ أحمد، وطلب منكم بناء قبة له. انظروا إلى سره وبرهانه، أحرق الحطب والسراويل، إنها علامة من علامات قدسيته، النار كادت أن تلتهم القرية لولا وساطة الشيخ إبراهيم، طلب من الأهالي بناء قبة له، ، وحذرهم:

إياكم ونشر الغسيل والثياب، وإلاّ فإن الحريق سيقع مجدداً.

وقف أهل القرية يراقبون الدخان والحطب المرقّد خلال ثوان، أزاحوه بعيداً عن المكان، ونظفوا الأماكن القريبة، ونذروا بناء القبة بعد موسم الحرير. كان يوما مشهوداً، روي الكثير عن المقام، وأعاجيبه وبراهينه، وينابيع المياه التي تفجرت بجواره. وكذلك براهين الشيخ المهاجر، وأصبح الشيخ والمقام جزءاً من أحلامهم ورؤاهم القديمة، ولم ينسوا تهديدهم بالحريق وأضافت كل من مخيلتهم ومخاوفهم، أن يحرث عليهم ليلاً إذا أعادوا نشر الغسيل.

التجلي الثاني

وقف الشيخ إبراهيم في قمة الجبل يداه ممدودتان:

- بسم الله الرحمن الرحيم، إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً.

يا الله يا من كان محمد من نور ذاتك، وعلى صورتك، وهو حجابك العظيم، وعرشك القديم، يا الله يا علي يا عظيم.

بحق سلسل وسلسبيل، وجابر وجبرائيل، وحام ودان، اجعلني من عبادك الصالحين، لك الشفاعة، لك الطاعة، يا رب العالمين.

وجهت وجهي، وسلمت أمري للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً، مسلماً، وما أنا من المشركين. إليك يا قدس الأقداس، أيها المعنى والذات، أتوجه، وأصلي وأدعو. الشمس... تختفي خلف الحجب، وضياؤها يمتد إلى عيني الشيخ. عينان تشبهان العيون، عيون ماء، عيون نور.. أنهر ذهب امتدت أمامه، نون واسعة نون الكون، ونون صغيرة مشتعلة أشبه بصحون بخور، والنقطة ارتفعت ألفاً، ألف الرب،إله، مسيّر الكون من سماء وأرض، وما فيها من ماء وروح، حياة وسلسبيل ...وسماء...

الشيخ إبراهيم مذهول في الكون اللامتناهي... ينظر إلى خلق الرب، وقدرته على ترتيب الكون، ورسمه، واسمه ويدعو... يدعو من آدم إلى نوح، سلالات وبيوت تنجب أنبياء وأوصياء وأغلقت الدائرة، الدوائر ، سبع في سبع. ثلاث في سبع، بكى الشيخ وجداً، فالدمع يجلو القلب، يغسل الروح... جاءه صوت إسماعيل:

- يا شيخ تنبه، قطاع الطرق كثر، لا يتركون أحداً، "يشلحون" كل من يقع في طريقهم.

- وماذا عندي؟.. قطعة ذهبية؟ ليأخذوها.

جلس الشيخ نظر حوله، وقف ثم مشى، إلى أن اقترب من أرض زراعية. أحس بالوهن:

- تعبت كثيراً، لابد من شراء دابة تعينني على الرحلة.. إنها تحتاج إلى علف. لاحت قرية صغيرة من بعيد. مشى باتجاه البيوت، رأى نسوة مجتمعات حول نبع الماء، نزل باتجاههن، ابتسم، جرار الفخار فوق الأكتاف وحول عين الماء. اقتربت امرأة منه:

- مساء الخير.

- مساء الخير، أيتها الأخت، ما اسم هذه القرية؟

- عيون الفضة، وكأنك غريب؟

- أجل، وهل في القرية عيون كثيرة؟.

- نعم وماؤها نقي كالفضة.

اقترب الشيخ من العين:

- مساء الخير يا أخوات، أيمكنني الشرب؟

أجابت إحداهن:

- تفضل، هاهو النبع، وهاهي الجرار أمامك، اشرب من حيث تشاء، تطلع يميناً ويساراً، أكثر من سبع جرار. اقتربت امرأة وأبعدت جرتها عن العين، وقالت:

- تفضل.

- سأشرب من النبع.

بسم الله الرحمن الرحيم، يا الله اسقنا من ماء زمزم، واحفظ لنا نعمة الماء من الزوال، فهي منك، يا من جعلتها من السلسبيل سلسبيلا.

ملأ كفيه، وغبّ الماء.

- يا الله، باردة ونقية، سبحانك شققت الصخور والجبال، لتخرج لنا الينابيع.

- شكراً لكنّ يا أخوات.

سألته إحداهن:

- أين وجهتك؟

- إلى نزل القرية.

- لا يوجد نزل، اذهب إلى بيت المختار.

- وأين يقع؟

أجابت إحداهن:

- في وسط القرية منزل كبير حوله أشجار توت كثيرة ودوالي عنب.

أسرع الشيخ خطاه كي يصل باكراً ويشتري دابة، قفز الشيخ عن "ألحواكير" و"رعوشها" والبيوت الترابية وولج الطرق الضيقة ذات الأحجار المتشظية المتناثرة، راقب البيوت ذات الحيطان المتشققة قال لنفسه:

- عليَّ الانتباه كي لا أقع... لابد من السؤال عن بيت المختار.

لمح امرأة عن بعد صرخ:

- يا أخت.. يا أخت.

التفتت إليه:

- ماذا تريد؟

- أين بيت المختار؟

- خذ الطريق الواسع إلى اليمين تصل إليه.

- أشار بيده:

- من هنا؟

- أجل.

كان الغروب قد بدأ يزحف بطيئاً، أسرع خطاه أكثر، نظر حوله.. هاهي أشجار التوت:

- أعتقد هذا بيت المختار.

صرخ:

- يا أهل الدار.

خرج رجل كبير بثياب رثة، أعور العين، محني الظهر.

نظر الشيخ إليه محدثاً نفسه: أي ذنب ارتكبه ليشوه هكذا.. أرخى نظره إلى الأرض، كي لا يرى الرجل نظراته الغريبة والممتلئة شفقةً، أظنه أجير المختار أو خادم عنده فهذه الثياب الممزقة والمهترئة لا يمكن أن تكون ثياباً يلبسها مختار.

- ماذا تريد؟

- المختار.

- ومن نقول له ؟

- الشيخ إبراهيم المهاجر.

سمع المختار صوتاً، صرخ من الصيوان:

- ماذا هناك؟

- شيخ.

- وماذا يريد زكاة... حنطة... زيتون.. ذرة صفراء؟

تذكر الشيخ كلام المرأة عند العين:

- انتبه يا شيخ، المختار بخيل، ولا يستقبل سوى رجال الترك من أعيان ومتنفذين و درك... ويجبرنا على إطعامهم، يأخذ منا الدجاج وحليب الماعز والبقر، ولا نستطيع ردعه.

- والبيك ؟

- أرذل منه.

قال الشيخ: لابد أن أعيده إلى طريق الإيمان وسبل العمل الصالح. أحس بكرب في نفسه، ضاق صدره من اللقاء. صرخ بأعلى صوته:

- لا أريد زكاة.

أغلق الأجير الباب في وجه الشيخ.

صرخ الشيخ:

- رجل اعصن، الله لا يبارك لك بمال أو ولد.. اللهم أنزل غضبك

عليه.رأى صخرة بجوار البيت اعتلاها، أرغف النظر إلى الأسطحة. بعض النسوة يتفقدن التين المسطوح...وعيونهن الكئيبة تنطق متى يصبح يابساً وجافاً كأيامنا وأعمارنا عند ذلك نلوكه...وأخريات يمضغن حبات الكشك خلسة قبل أن تنشف وتجف. وفي الجهة الأخرى نساء رفعن سراويلهن الملونة، يعجنَّ روث الحيوانات!! يعددن "الجلة" لتنانير الخبز ومواقد النار لشتاء قادمٍ.نزل الشيخ وتوجه إلى بيت قريبٍ من بيوت القرية، استقبله رجل عجوز، وعندما عرف اسمه، شكر الله وحسد نفسه، واعتبرها ساعة رضى من الله، إذ يزوره الشيخ المهاجر، رحب العجوز بقدوم الشيخ واحتفى به واكتست ملامحه بالخشوع، في حين كان الشيخ يراقب البيت، الجدران المتشققة، السقف المتعب " اللبابيد " الممزقة والمهترئة التي تغطي الأرض، الأرائك أرائك بالاسم فقط. أعاد الشيخ السلام مرة أخرى على العجوز.

صرخ صاحب البيت لامرأته، أتت وسلمت على الشيخ بخشوع وتقى غريبين، طلب زوجها إحضار العشاء للشيخ، أحضرت المرأة الدجاجة اليتيمة المتبقية عندها، رفض الشيخ ذبحها، أصرّ العجوز وزوجته، وقالا إنها نذر... وحان وقت الوفاء به، جلبت المرأة اللبن، وخبز الذرة ليأكل الشيخ بعض الطعام إلى حين تنضج الدجاجة والبرغل، والعجوز يتأمل طعام الشيخ، أحس بإهانة كبيرة،رفع صوته:

- يا شيخ هذا العام لم يكن لدينا زيتون، وما تبقى من العام الفائت بادلناه بالحنطة والذرة كي نأكل، لا تؤاخذنا.

- الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، المؤمن التقي من لا يملك المال والجاه، ولا يبحث عنهم، أما من يبحث عن الحياة الدنيا، أنت تعلم أن إيمانه دنيوي وليس إيماناً حقيقياً يا أخي. وقلب الحديث باتجاه آخر.

- ما هي صفات المختار؟

- بخيل ونذل، بلا ذمة ولا ضمير.ألم تسمع برجل شجاع؟إنه رجل جريء، قتل من الدرك ما قتل" وشلّح " البكوات والمخاتير الطعام والحنطة والذرة

والمجيديات، ووزعهم على الفقراء في القرى. سلّمه المختار إلى الدرك بحيلة شيطانية.

- كيف؟

- وبحجة أن يشاوره بأمر توزيع إعانة للفقراء في القرية، أرسل في طلبه، وأقسم بكل المقدسات بأنه تاب وصادق في توبته، وقد أحضر شيوخاً من المنطقة شهوداً على توبته وتنسكه، وارتدى ثياب الرحمن شهرين إلى حين اقنع الرجل بتوبته، أتاه البيت فأعطاه بعض الشعير والذرة الصفراء كي يوزعها على الفقراء، واتفق معه على موعد ثانٍ. وعند ما أتى الرجل، غمز لأجيره الأعور الدجال ليذهب ويحضر الدرك، فحاصروا البيت وأخذوه مقيداً، وفي الطريق قتلوه.

والله يا شيخ لم تبق موبقة إلاّ وفعلها، من لا يخاف الله، خَفْ منه، إنه بلا إيمان ولا أخلاق، جلد أطفالاً أيتاماً لأنهم انتزعوا شتلات حمص خضراء من أرضه وطرحهم الفراش شهراً كاملاً ليس هذا فحسب، بل أخذ بنتاً من القرية وقدمها هدية لتخدم في بيت البيك، بنت لم تر العين أجمل منها، ضحك على أهلها وأعطاهم كيساً من الشعير والذرة الصفراء، وقبض ثمن خدمتها من البيك مجيدية، وأطلقت يده على أراضي البيك في القرية، وهذه الفعلة تكررت كثيراً، النذالة والخسة من طبعه، ولو تكلمت حتى الصباح لن أنتهي من قصصه. ماذا فعل معك يا شيخنا؟

- ظن أني أريد زكاة فطردني.

- وسكتَّ له؟

- دعوت عليه.

- الله يسلم فمك، مشايخ المنطقة يدعون له مقابل الدجاج الذي يطعمهم إياه. رغم أن الدجاج والبرغل والزيت مسروق منا ومن بيوتنا.

شح ضوء السراج: ألا يوجد لديكم زيت؟.

- لا والله يا شيخنا.

تناولا طعام النذر، ثم مدّ الرجل العجوز الفراش الوحيد الذي يمتلكه، ودعا الشيخ للنوم، وطلب منه الدعاء.

نام الرجل وزوجته العجوز فوق " اللبابيد " العتيقة.

استيقظ الشيخ فجراً، وخرج إلى السطح، صلى ثم نزل مع خيوط الصباح التي غزت السماء وعتمة البيت الترابي، تطلع إلى الجدران المتشققة... والحجارة الناتئة والصامدة بقوة إله جبار.

دمعت عيناه، وهو ينظر إلى موقد النار الخاوي من الحطب المرمد منذ زمن. المساكين لا يوجد عندهم من يحمل الحطب. كانت أشعة الشمس تدخل من الطُوَق، وكذلك الهواء، سبحان الله موزع الأرزاق، يا إلهي انظر إليهم بعين الرأفة.

أفاق العجوز، قام وقبّل يد الشيخ:

- الله يخليك يا شيخنا اكتب لي حجاباً يقيني الأحلام المزعجة.

- سأحبس لك التابعة.

طلب "دست" النحاس، وأخرج من جيبه عوداً صغيراً، ومرر العود فوق القدر المسوّد من الشحار، وكتب له كلمات ورموز، ورسم له رسوماً لا يعرفها إلا الله، وذوو العلم، أغلق الورقة بقطعة قماش ناعمة، ثم غطاها بقطعة أخرى وأعطاه الحجاب_ الكتيبه_ المثلثة:

- ضعها تحت رأسك قبل النوم، وبإذن الله لن ترى أحلاماً مزعجة بعد اليوم. أفاقت الزوجة العجوز، وأحضرت الإفطار، المسكينة جسدها مترهل ومنحن ويكاد الطعام يسقط من يديها . قام الشيخ وتناول صينية الطعام منها، صحن وحيد، صحن " شنكليش " تفوح رائحة عفونته، تغمر هواء الغرفة، وضعه على الأرض، فقراء مساكين الله يكون بعونهم.

- ألا يوجد عندكم أولاد؟

- كان لدينا، ماتوا بالطاعون والجوع، بقيت ابنة وحيدة وهي متزوجة في قرية بعيدة عن هنا . دمعت عينا الشيخ هذه المرة غصباً عنه. دعا لهما بستر

آخرتهما وبالرزق الطيب.

جاءهم صوت مرتفع جداً:

- أين الشيخ؟ أين الشيخ؟

خرج العجوز.

- من هنا ؟

- رأيت الشيخ؟

- عندي.

- المختار يريده.

- لماذا؟

- اسكت، لا علاقة لك بالأمر، أرسل الشيخ الآن.

دخل العجوز، وخلفه أجير المختار:

- تفضل يا شيخنا المختار يطلبك.

كان العجوز ينظر إلى الشيخ ويؤشر له... أحس الشيخ بالعجوز، اقترب منه وضع فمه فوق أذنه:

- أنا ذاهب، ولن يؤذيني.

خرج الأجير من البيت تدخل العجوز: يا شيخ صوت الأجير خائف متهدج، مرتجف، هناك شيء ما !!

- سأعرف بعد قليل.

خرج الشيخ.. وسأل الأجير:

- ماذا هناك؟

- المختار يا سيدي، لم ينم طوال الليل.

- ما الذي حصل!!؟

- المزارات.. المزارات، أطبقت على صدره، خنقته، استيقظ صباحاً رقبته متورمة، ولا يستطيع تحريك لسانه الذي ثقل، وأصبح يتأتئ، وهو يطلبك في الحال.

تردد الشيخ طويلاً قبل أن يوافق على الذهاب مع الأجير، راودته نفسه أن يتركه يجن، لكن هذا حرام، والله يريد إنقاذه وإلاّ لما أبقاني هذه الليلة في القرية، إذا عاد الأجير وحيداً فإن المختار سيجلده.

حسم الشيخ قراره بالذهاب إلى بيت المختار.

دخل الدار المحاطة بأشجار التوت الكثيفة ذات الأوراق الوارفة، أدخله الأجير إلى الصيوان، وعندما رآه المختار، نهض بصعوبة وتثاقلٍ وقبّل يدي الشيخ ونزل الأرض ليقبل قدميه.

- استغفر الله!

- أتوسل إليك يا شيخنا أن تنقذني.

نظر الشيخ إليه:

- والله لا تستحق العلاج أو الدعاء.

- خذ ما تريد.

- ويلك، أنا لا أبتغي شيئاً أتفهم، غضب الله منك، ومن أعمالك السوداء وجازاك، هات زيت زيتون، وأشعل النار.

جلب الأجير الزيت المسخن وأعطاه للشيخ، فسمّى وقرأ بعض الآيات البينات ودلّك رقبة المختار برهة من الزمن، طلب قطعة قماش، لف رقبة المختار بها، ربطها وكذلك فعل بيده ثقيلة الحركة، وأعطاه عشبه يلوكها كي يعود لسانه إلى سابق عهده. أنهى الشيخ معالجته، فقام المختار وفتح صندوق الخشب، أخرج مجيديتين ذهبيتين زكاة الشيخ، وقال له:

- ادع لي يا شيخي وسيدي.

- أصلح نفسك وروحك بابني آدم، الذهب لن يفعل لك شيئاً، كفاك أذىً للناس، أتعبتهم!!

فكر الشيخ ألاّ يقبل الزكاة، لكنه ما لبث وأخذها، سيعطي العجوز وزوجته مجيدية ذهبية، وفكر أن يعود إلى قرية البيك إسماعيل، كي يمنح المرأة العجوز المجيدية المتبقية، لكنه تراجع فأمامه طريق طويل.

أخذ القطعتين الذهبيتين، وفكر بشراء دابة من القرية، لمّا عرف المختار رغبته، أهداه حماراً، ركب عليه الشيخ وتوجه إلى بيت العجوز، أعطاه مجيدية ذهبية وتابع سيره، وصل إلى سهل، ترك حماره يرعى، وجلس يأكل، لمح رجلاً ملثماً يظهر ويصرخ عالياً.

- ألم تر حمارك يرعى في السبل، الله يبلاه بوحش الجبل.

رد الشيخ إبراهيم عليه:

- "ما أكل من الزرع يبل الريق الله يبلى زرعك بالحريق".

لم يتم الشيخ إبراهيم دعاءه،إلا والحمار مقتول، ومأكول من الوحوش الغامضة، ولم يبق منه إلا العظام والخرج. وبعد لحظات اشتعلت النار وأحرقت الزرع، نظر الشيخان إلى بعضهما البعض وابتسما وتعانقا وتعارفا، فالشيخ اسمه كامل، واتفقا على اللقاء بعدما أظهر كل منهما برهانه وعلامة تقاه ومكانته عند الله، ضحك الشيخ إبراهيم وقال لنفسه: إن الله لم يقبل هدية ذلك الجبار، فقتل الحمار.. وأحرق الزرع.

وعندما سأله الشيخ كامل:

- ماذا يضحكك؟

قص عليه قصة المختار و الحمار.

ضحكا معاً وتوجه الشيخ كامل إلى الشيخ إبراهيم:

- أين وجهتك يا أخي؟

- المكان الذي يأمرني ربي بالاتجاه إليه.

صمت الشيخ قليلاً ثم ودعه وافترقا.

تابع الشيخ إبراهيم سيره وكاد الصخر الضارب إلى البياض حيناً وإلى الزرقة أحياناً، وتلك الجبال الوعرة أن تهلكه، لكن القصائد التي غناها بصوت مرتفع وأدعيته خففت عنه مشاق رحلته، وأنقذته.

تطلع حوله شجيرات عليق وعوسج وبطم ... ابتسم أي منطقة فقيرة وبائسة هذه، لا يوجد أشجار مثمرة، أو خراف أو قطيع ماعز يسكن هذه الجبال...

توغل أكثر، ازدادت الأرض والجبال قساوة وأشواكاً.

- ماذا ينتظرني؟ أصوات ابن آوى؟ ضباع؟ الله يحميني فهو من وجه وجهتي.

كانت الظلمة تكسو السماء والأرض معاً... الظلمة هي الوجه الآخر للنور، وجه آخر لقدرته سبحانه وتعالى، هو من خلق الظلمة والنور.. هما تجلياته.

بدأت أصوات الوحوش تعلن عن بداية يومها في السطو الليلي والتجول والحركة، أحس الشيخ بأنيابها تحيط به، وتكاد تفترسه، رفع صوته عالياً، غنى وغنى ثم أشعل بعض البخور الذي خبأه في جيبه، انطفأ. حمل أعواداً يابسة، وأشعل العيدان والبخور معاً، أجّت النار، أضاءت المكان، النار قد تعينه وتساعده على هذا الليل الطويل، النار نار موسى، وليست نار الجحيم، نار تحرق المسوخ والظالمين، ولن تؤذي المؤمنين، أنقذت ابراهيم ورفعته إلى السماء، إلى نجوم السماء. نار مقدسة تحرق المشركين، لمع ضوء القمر فجأة وكأن يداً امتدت وأنزلته إلى رأس الشيخ. حملق طويلاً به.

- سبحان وجهك أيها القمر، وجه ربي خالق السماوات والأرض، سبحانك، إني عبدك المطيع، أدخلني فسحات جنتك ورحمتك، مد يده إلى طبق القش والمنديل اللذين نجوا من الحريق مع خرج الحمار، أحس بطمأنينة، وكأن ملائكة تحرسه أو حوله تكلمه تحدثه. تستمع إلى تلاوة القرآن، والى أدعيته تصحح أخطاءه، ما لبث وأحس بالنعاس، رأى مغارة قريبة منه دخلها ونام، أفاق، صلى ودعا ربه، كان الفجر قد انبلج، وبدأت خيوطه تدخل المغارة وتؤنسها، خرج من المغارة، تناول الطعام، شكر الله على نعمته وفضله عليه.

تابع طريقه رأى أشجاراً كثيفة، لمح بيوتاً في جوفها، أسرع يبحث عن ماء للشرب، اقترب من الصخور، وجد نبعاً صافياً حجارته تلمع نظيفة براقة، لجين فضة.

ضحكت الصبية...مقاطعة زميلها:

- هل ستطول حكاية أبيك، جدك، إنها كالأحلام أو الأساطير، أهي حكاية

حقيقية؟ أعتقد أنها شعوذة... أنتم تحيطون أنفسكم بخيوط عنكبوت، ربما كنتم مجانين، وهذه الحكاية دليل جنونكم، أيمكن تصديق ما تقوله؟. أكمل....

- قولي ما تريدين، حكاية، أسطورة لا يهم. هي البداية، وإكمالها ليس بسيطاً كما تتوقعين، طُرق جدي، أبي، الطويلة، ذاكرته الأولى.. الثانية الثالثة رواها جدي، جد جدي، أبي، وآخرون.

- أتصدق الحكاية حقاً؟

- حكاية جدي وأبي، تاريخ جدي، جد جدي، وأبي... تاريخي.

- وعلمك... ودراستك... وتؤمن بما تروي... ضحكت: حكاية غريبة تستحق الإصغاء، وأنت تنقلني عبرها إلى عالم لا أعرف عنه شيئاً، عالم غرائبي، وجو نفسي مخيف... لا أدري من أين جاءت هذه الخطوط التي ترويها، ومن أي أرض وأناس جمعتها، أي موروث تحمله فوق أكتافك، أتريد إخافتي أم أنه خيال، وإذا كان خيالاً حوّله إلى شعر جميل وقصّه، الآن عرفت قسوتك وعنادك الآن بدأت أعرف شيئاً عنك، أكمل...

لم يكن يسمع كلامها، فهو سابح في حكايته..

- تجلٍ ثانٍ..

- تجلي؟!!

غابت عيناه في البعيد:

تذكرها،هي القرية التي أرشده الله إليها، الحلم الذي رآه، أسرع إلى قمة الجبل، ركض، وركض والفلاحون خلفه، تجمعوا، سألوه ما به، صمت/ لم يرد..

تابع الهرولة، خاف الفلاحون، رجع قسم منهم وتابعه آخرون بأعينهم وأجسادهم والبعض ركض خلفه وصل باب المزار، دفعه، ودخل.

وقف الفلاحون مذهولين، سأله أحدهم:

- ما الذي تفعله هنا؟ ولماذا لا تقبل الباب، أو تدفعه برفق؟

نظر جدي الشيخ إليه، أدار وجهه إلى المقام:

- الإنسان لا يطرق باب بيته، وهذا بيتي.

- من أنت؟

- أنا الشيخ إبراهيم..أحمد ..حسن..

- وما علامة أن القبة بيتك؟

- هناك نبعة ماء، احفروا قليلاً تجدوها بجوار الباب، وهنا تحت القماش الأخضر كتبت أبيات شعر هي..

ذهل الفلاحون أكثر.

حفر فلاح الأرض قليلاً في المكان الذي أشار إليه الشيخ، فوجد نبع ماء بارد وصاف رقراق.. ركض الفلاح ونادى أهل القرية، تدافعوا أمام باب القبة يريدون تقبيل يد الشيخ، وشرب الماء المبارك، والتمسح به.سأل أحدهم:

- كيف توفي.؟

- توفيت.

رحل الشيخ بعيداً بروحه ورأسه، سُلخ جلده، جلدي، أمسكوه جلدوه، طلبوا إفشاء أسرار ربه. رفض. جلد، سلخ جلده حتى السرة.

هو، أنا، استشهد وهو يحارب، حاربت، حارب. كنا في المدينة الجميلة مدينتنا هربنا من مذابح الغزاة الغرباء بلغتهم وسحنهم وقتالهم ولباسهم وديانتهم المجوسية، حينما دخلوا المدينة عنوة وغيلة ، صعدنا الجبال الوعرة، قتل قتلنا، وفي السهول هجموا علينا، قتلونا هرب من هرب ومات من مات.

كأنه كان يتذكر أجيالاً، دهوراً، أنطقه الله بتواريخها، وأمكنتها، في تلك اللحظة بالذات تذكر ما نسيه اسمه، اسم جده، أجياله!!

وقف يصرخ: سبحانك ربي يا من حركت البحور، وخلقت الصخور، وخضّرت الجبال. يا من جعلت موسى يكلمك، وأظهرت إعجازك بعصاه، وبنار القبس في الطور، يا من كلمك عيسى _وهو بالمهد_ صغيراً، سبحانك ربي، سبحانك يا رب العالمين، يا عليم يا قدير. وقف الشيخ طويلاً بجوار قرية صغيرة التم عليه البشر قبلوا يده كتفيه ثيابه، سألوه الرحمة.. والمغفرة والدعاء، دعا لهم، وأدار ظهره، وانطلق باتجاه الغرب، وصل إلى منطقة مرتفعة مهجورة

ذات أشجار كثيفة وارفة، جنة على الأرض، وغابة بكر لم تلمسها يد أو تدوسها قدم، أحس أنها غابة آدم أو منذ أيام آدم، توغل فيها، صور تأخذه، أسماء تنهال في ذاكرته أفلاطون، الاسكندر، أدوار سبع، أرواح، أجساد، أزمان وأمكنة، ، أحرف تلتمع ألف مرفوعة، طاء، هاء، سين، سقراط المسموم، أنس، أثواب أنس، أرواح تصعد إلى السماء، أنبياء أوصياء، أشكال أنسية، أرواح الله، فيض إلهي، حلول في الأنبياء.. في كل شيء.

خمسة في واحد، ثلاثة في واحد، اثنان في واحد، واحد في واحد، تماهى الاسم في المعنى، الصورة في الذات واحد أحد، مريم أخت هارون وابنة زكريا، وليدها المسيح، شمعون، خمسة في واحد مريم فاطمة، فاطمة مريم، صفية، خمسة في واحد زواج إلهي سماوي ثلاثة في واحد .بيوت نبوات تنتقل، تتجلى..

يزددشير، وماني، أرسطو، سقراط، يهودي، مسيحي، بوذي، مسلم، جواهر الله، من ذاته في ذاته ولذاته نور ذاته.

توغل في الغابة أكثر التمعت قرون ذهبية، قرنان اثنان، قرنا الاسكندر، كبر القرنان، أضاءا الغابة، حملا الأرض، وجميع من عليها .روح الشيخ طارت، حلق وشق الغيم، أضاء الأفق بأنواره، أنهر، نساء حور ، هاهو يسبح في النهر تتماوج أطياف الشمس مع فضة الماء، وهناك أنهر عسل، وجوه نورانية تقرأ، تسبّح، هي خالدة بإذن الله، نار، نور، الخمرة الزلال، طلب الصفح، ناولوه الخمرة، طلب العرفان شرب من أنهر الخمر، وغبّ، غبّ ولم يسكر، سكر بالمعرفة.

نزل إلى الأرض، وصل إلى الهند والصين بعد أن قطع البحار والأنهر، رأى بشراً يعبدون النار، نار الله وليست نار البشر، ورأى أناساً يعبدون البقر، وآخرون يعبدون النور والظلمة، سمع الصلوات بألسنة مختلفة، اختلطت عليه، دعاهم إلى الدين الحنيف، استجاب من استجاب، وبقي على دينه وغيه من بقي.

دخل قصوراً مليئة بالطنافس عند الأكاسرة والأباطرة، وملوك الهند، شرب بكؤوس الذهب، وأكل بصحون من ذهبٍ ، جلس على كرسي ملكي من عرعار

مزين بالياقوت والأحجار الكريمة، وعليها أرائك من ريش النعام موشاة بالفضة ومنقوشة بالطلاسم، سمع الحكايات العجيبة والغريبة عن ملوك قتلوا، وعن أمراء ظلموا، عن فقراء ماتوا جوعاً، والحكايات تتشابه مع بعضها البعض، بقيت حكاية الملك الحزين في ذهنه، ربما سمعها بعد حين.. أو قبل وقت، أو ربما تكررت أمامه. أو سمع بها.. الله أعلم، وربما اختلفت ببعض التفاصيل، وتذكر جلد الحمار.. وما كتب عليه: ملك كئيب، طلب العراف، فتح في الرمل وبعد أن قال له ما قال، طلب منه أن يستقدم صديقه ونديمه.وما كان من الشيخ إلاّ أن سأل العراف عن سبب حزن الملك، فصمت طويلاً، وخاف أن يروي الحكاية، طلب منه الانتظار، فتح العراف الرمل، واكتشف سر الشيخ الذي يسأله.. عندئذ أجابه: أن سر حزن وكآبة الملك رغم النعيم والرخاء الذي يعيشه هناك ما ينغص حياته، فقدانه ذاكرته، فهو لا يتذكر اسمه واسم زوجته ومملكته.. وو.. ومن أين جلب طنافس القصر وغيرها، لقد تناثر كل شيء عنده في لجة وظلمة، وضاع استبداده وتحول الملك إلى رجل شبه ميت، ولا أحد يعرف سره، فهو يسأل كل يوم عن اسمه واسم مملكته، يسألني ويطلب مني ملازمته، فهو لا يستطيع كشف سره لأحد.. لذلك ألزمني سكن القصر ومجلسه، وأحياناً يستدعيني إلى غرفة نومه، نصحته بأن يأتي بصديقه ونديمه، فهو العلاج الوحيد له، بعد زمن اقتنع بما قلته، طلب صديقه، جاء مغلولاً بالقيود، شعره كثيف وطويل وأبيض، وكذلك لحيته، وجهه يشبه الأموات أو أقرب إلى الأموات. كان يتعثر بالسجاد، وقع أكثر من مرة.

عندما رآه الملك، بكى.. سمع السجين صوت بكائه..

- لماذا أتيت بي إلى هنا ما الذي تريده مني؟! ألا يكفيك سجني؟ أتريد رؤيتي وأنا على أبواب الموت كي تشمت وتتشفى بي.

- لا أريد منك شيئاً، أبغي رؤيتك، اشتقت إلى ذكرياتنا معاً.

- ذكرياتنا..أي ذكريات هذه!!الآن تتذكر كيف أكلنا التراب؟ والأعشاب؟ وقاتلنا؟ وانتصرنا معاً؟ وحينما وصلنا إلى الحكم، ووصلت إلى كرسيك، قتلت

أصدقاءنا جميعاً، ووضعتني في السجن.

قال الملك:

ـ انس السجن الآن وأمسكَ الكأس الذهبي وابتسم ثم وضعه، وحمل سيفاً مرصعاً، وابتسم أيضاً، أتذكر من أين أتينا بها.

- طبعاً، لقد حملنا السيف من إيران، والكأس من الصين..

ضحك الملك، بدأ يتذكر حياته، في حين أكمل السجين.. الكلام:

- وأبوك المسكين ما أحواله الآن لقد هجّرته وهدّدته بالقتل إذا تدّخل في أمور الحكم، وأمك المسكينة عميت عيناها من كثرة البكاء بعد اختفاء أخيك وقتله.

المسكينة لم تصدق أيمانك بأنه لا علاقة لك باختفاء أخيك، كانت تحس أنك قتلته، ضحك الملك بصوت عال، نهض عن كرسيه، رقص ورقص، صفق، جاءه الخدم:

ـ أقيموا الأفراح والزينات واذبحوا الذبائح ودقوا الطبول في الحال.

فتح السجين عينيه مندهشاً، ما الذي قاله ليدفع هذا الخائن القاتل إلى إقامة الأفراح، سمع صوت الملك يناديه..

- تعال، واجلس بقربي.

والسجين يتساءل من المقتول؟ من المسروق اليوم كي يكون الملك سعيداً إلى هذه الدرجة؟.

فقد استطاب الدم، حدق فيه:

- هل قتلت أحداً جديداً من أصدقائنا المشتركين؟

نظر إليه الملك شزراً:

- وهل تظن أني أبقيت أحداً حياً، وتابع حديثه، يذكر صديقهم المشترك الذي قتل أولاً، رد عليه:

- كان قوي الشكيمة جريئاً وأنت لم تكن تجرؤ على الكلام أمامه أو الضرب بالسيف وهو إلى جوارك.

- اذكره طبعا لا أنساه في حياتي، أراه دائماً في الأحلام.

- قتلته... وفلان وفلان؟.

والملك ينظر إلى السجين الذي لا يعرف سبباً لذكر أصدقائهم القدامى، وفجأة وقف السجين المقيد على قدميه، وصرخ في الملك:

- لماذا أتيت بي إلى هنا، لتذكرني بك وبما اقترفت يداك هاتان، أم تريد قتلي، لذا أقمت الزينات والأفراح؟

صمت الملك.

- أجبني بحق أيامنا الجميلة وصداقتنا القديمة.

لم يتفوه الملك بكلمة واحدة، فكر في قتله، حمل السيف، وهمّ بجز رقبته، هجم عليه عصفور كان يقف فوق نافذة القصر، طار وانقضّ على يده، نقرها، وأحرقها، ثم نقر يده الأخرى وأحرقها أيضاً، ارتسمت تجويفات في اليدين عليها كلام غامض، حاول الملك تحريك يده لم يستطع، نادى السياف ليقتل العصفور، رُبط لسانه، عاود التفكير بقتل السجين مرة أخرى، وتذكر ربما يفقد ذاكرته ثانية، ومن أين يأتي بذاكرة أخرى. نطق من جديد وتعثر في الكلام، وطلب ورقة وقلماً.

أعيدوه إلى السجن وحسنوا طعامه وشرابه.

طار العصفور إلى حديقة القصر...وهو يغرد بنشيدهم القديم المشترك. روح العصفور روح القتيل الثاوية في ذاكرتهم... روح مغردة فوق شباك القصر.

وعندما فكر في الحكمة جاءه الجواب بأن على الملك أن يستبد ويظلم أكثر، ليستحق عقاباً أكبر.

فكر الشيخ وفكر في الكلمة المكتوبة على جلد الحمار هي ذكرته بهذه القصة الغريبة. إذاً فقد مسخ الله الملك إلى حمار ينهق طوال الليل والنهار ويُضرب طوال الوقت. والعصفور يمنع الملك من قتل صديقه ليبقى في ذاكرته السابحة وسط بحر الدم الذي أباحه واستباحه، فيقتل، ويبطش، ويعاقب بفقدان ذاكرته التي تعود عند رؤية صديقه السجين فتتحول براكين الدم إلى

كوابيس تحرمه النوم وتقلقه وتفزعه، ثم تفقده ذاكرته، عندئذ يطلب صديقه الذي لم ينسه يوماً، مع أنه نسي تاريخه واسمه وملكه وجاهه وكل شيء سوى اسم صديقه، بقي عالقاً مع بقع الدم حوله.

وهكذا يُمسخ الملك، ويتحول الى حمار، يموت الحمار، يولد حماراً من جديد، يضرب، ويجلد، وهكذا عاقب الله ذلك الملك الظالم والخائن. بين فترة وأخرى يعيده الله بقدرته إلى سحنته الأصلية، وملكه ثم يحرمه متعة الملك ويلبسه ثوب حمار يرفس وينهق، يُضرب.

الحكاية تتكرر في أزمان مختلفة. المُلك مفسدة، مظلمة للجميع، متاع الدنيا، يقال: من نجا من أرجاسها ومظالمها فمأواه الجنة، سبحان الله له حكمة من ذلك.

وقف الشيخ يتأمل الشجر المقدس التين والزيتون، وأكمل بطور السنين، وهذا البلد الأمين، لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، ثم رددناه أسفل سافلين.

سبحانك ربي خلقت الإنسان في أحسن هيئة، ووهبته العقل ليعبدك، ويفصل الحق عن الباطل، الرحمن عن الشيطان.. والإيمان عن الكفر.

صوت ناداه:

- اقرأ القرآن، الإنجيل، التوراة، اقرأ بالهندية، والصينية، والفارسية، واليونانية.. أقرأ كتب الله وآياته وأسماءه.. أقرأ الأحرف الأولى ومعانيها، والأسماء وتفاسيرها، وافهم ماهية الصورة والأبواب، بكى الشيخ ومشى في الغابة اختفى الاسكندر وقرونه الذهبية، وتحولت إلى قرون عجل ذهبي عبده الهنود وأُخفيت كتب المعرفة فيه. فتّش الكافرون المرتدون عنها، وفتشوا فوجدوا عجلاً ذهبياً أغواهم، تبعوه في الصحراء، وضاعوا هناك بين الرمال والسراب، سنوات وسنوات، وعندما وصلوا الواحات، تحول العجل الذهبي إلى عجل عادي، كلما اقترب منه أحد نطحه وأرداه قتيلاً، لاذ الجميع بالفرار واستيقظوا يوماً لم يجدوه، فتشوا عنه. وأشار عليهم مؤمن أن ينظروا إلى السماء، فكان يسبح بين

الغيم: انظروا إلى الأرض كانت القرون الذهبية تلمع، يقتربون منها فتختفي، يبتعدون عنها، يرونها تلمع من جديد، ثم شاهدوها تطير في السماء وتضيء مع النجوم... حطت نثرات منها فوق القباب، وأنزلت وابلاً من الحجارة على رؤوس الكفار والمرتدين.

وهناك وجوه ملوك أحرقت بالنيران، وكذلك أجسادهم، هاهي تترمد وتطير في الكون تسبح تتحول إلى غزلان، هؤلاء أقوام غزاة مجوسيين ، ومنهم من أدعى الألوهة والنبوة والحلول غضب الله عليهم وقلبهم من ثوب الأنس إلى أثواب ألا أنس ، مسخوا، تحولوا إلى كل شئ عدا العناكب فقد خلقت لحماية المؤمنين الصالحين. العالم يتحول إلى كروم عنب وزيتون، وتين وأنوار، هاءات ميمات كثر، تلتف حول شجر الصنوبر والشيخ معاً، سبحانه انظر إلى قدرته في خلقه فهذا النمل ينقب الأرض، يخرج الذهب والفضة والياقوت، كما انه سبحانه يخرج النيران من باطن الأرض، ويجعل الشموس ضياء للكون اولناس.

سبحانه أرسل الأنبياء منذ بداية الخلق..من آدم إلى محمد، هي الأسماء بأحرفها المنسوخة منذ قدم الدهر، منسوجة من النور والإيمان، من النور والنار من الليل والنهار..إيمان بإيمان ، وهناك الكفر ومن اعتنقه ويعتنقه..ملوك..أمراء على عروشهم، وفي ركن من أركان قصور أحد الملوك ابن يبكي، ويقول: افرشوا لي فراش العنكبوت لحط راسي وموت،

يموت الشاب الجميل لماذا، ليحرق قلب أبيه الظالم، إنها الأضداد ، الليل والنهار، السماء والأرض، الخير والشر. يتربع

ذلك المعتوه والساكن والمسكون ببحيرات من الشراب والنساء، حالة من اليقظة واليقظة. يغبّ الخمر ويغبّها، ويشتم ويسب كل المقدسات ويمزق الكتب ذات الحروف السوداء والزرقاء والمذهبة ، وخيالات نساء ترفعه ليغمر رأسه في الخمر أكثر فأكثر حتى يموت، تتعفن جثته فلا يقترب منه أحد سوى خليلته ونديمته في الخمر ليسقط ملكه.

صور خيالات تختلط في بعضها البعض، قصص وروايات وملوك. وكيف

يمكن فصلها وتفصيلها. أحداث وأسماء، ماني هناك في بلاد فارس يجوبها، ويدعو للخير، للنور الإلهي، للضوء الإلهي، للوحدة الإلهية، يصعد الجبال، يقطع الفيافي والقفار والأنهار، يدعو الناس بصوته العذب الرخيم لعبادة إله خيّرٍ وجميلٍ، يمشي خلفه الخلق من الأجناس المختلفة، وهو يدعو ويدعو ويسبّح خالقه ويضفر جدائل من نور في ليل كالح السواد، ووجه نهاري جميل يقطع خلفه النهر، والبشر يدعون له ومعه وهم تركضون إليه، فمنهم من يموت جوعاً وعطشاً، وماني يمشي ويمشي قاطعاً البراري والفيافي، وهو يغني لإله جميل، ويتأمل السماء الصامتة وضفائر النور المجدولة بدمائه المسفوحة التي الهبت ذلك الليل الكالح. الملوك والأشقياء لا يستطيعون تحمل فكرة إله جميل واسع الرحمة والضوء، إله يكره القبح ويحب الجمال و التسامح، يتفق الملوك والعسس والسفلة على قتل ماني، النور المضيء، يُقتل وتتحول وَهْمُ ابتسامته لحظة الموت إلى نور أضاء الكون كله، ثم اختفى النور، وجاءت النار التهمت القتلة، وأحرقت الزرع ،و أظلمت عليهم المكان، غضب الله على ما تبقى من الظلمة فأرسل إليهم صواعق نزلت على رقابهم وقطعتها وهوت بها إلى الأنهر التي صبغت بدمائهم وفاضت بجثثهم، وجف الماء والضرع وقحطت الأرض حداداً على ماني النور المضيء.

وذلك السيف البتار والمضيء ضاع هو الآخر مع ضياع ماني، لكن السيف ضاع في صحراء لا يعرف قرارها وحتى الآن لم يعرف صاحبه، ضاع السيف وصاحبه بحثاً عن عدل دنيوي ديني..

مشى الشيخ إلى حصن نبي الله سليمان، لقد كان هنا يقاتل الظلمة، والله ساعده أرسل له طيوراً نقرت أيديهم، وأعمت عيونهم وعيون أحصنتهم، وهنا كان يقف هدهد نبي الله سليمان، في هذا المكان كلّم سليمان الهدهد ووضعا معاً خطة القضاء على الكفرة، وإلى هنا جاء ببلقيس الملكة فوق جناحي الهدهد، ودعاها إلى الإيمان بالله وسليمان نبياً ورسولاً. وهذا القصر، قصر كليب، نقل إلى هذا المكان الطاهر بقوة الله وإيمان كليب وتلك القلاع أخفت المظلومين

وحمتهم من غدر الجبابرة الظلمة.

أجل هذا المكان المقدس أسكن ملوكاً، وعاقبهم على ظلمهم، واستبدادهم وجورهم، وفي هذا المكان حاولوا تعفير المؤمنين بالتراب، ودفنهم أحياء بحوافر خيولهم التي داست الأرض، وحاولت دعس الرقاب لكن الله وقف لهم بالمرصاد. فلم ينالوا المؤمنين أو أعراضهم، التي حاول غزاة البحر ، والشرق، والشمال انتهاكها مرات ومرات.خلف شجر الزيتون والتين اختبأ المؤمنون، ورد الله كيد الغزاة إلى نحورهم، يا الله كم أغرقت الأرض بالدم؟ وأنبت وبعثت خبيزة أكلها العفاريت الكفار، وماتوا، أو مسخوا ، ووراء هذه الجبال الوعرة عيون فقيرة مؤمنة بالله والرسل والأنبياء، ينتظرون الفرج من دعاة يقيمون العدل.

سكن الشيخ قليلاً ووقف يتأمل الشجر المقدس، ويتساءل:

ياإلهي من أين هذه الصور والأحداث والتواريخ وتلك الوجوه الآدمية؟ يا إلهي أين رأيت ظلالاً وأنواراً؟ يا الله إنك تحمّلني فوق طاقتي، وأسألك الرحمة بي.

غادر الشيخ الغابة، ومشى هائماً على وجهه، ولم يعد يدري أي الاتجاهات يسلك أو يتوجه، الصور تتزاحم في رأسه، وأمام عينيه، حجبت عنه رؤية الطريق، وفقد التمييز مابين الصور الحقيقية والأحلام الطويلة وتداخلت الأزمان والأماكن.. ازدحمت في رأسه خيالات ورؤى رحمانية، وأخشى مايخشاه الرؤى الشيطانية. حاول التماسك قليلاً وإزاحة الصور. تأمل المكان، ركّز عليه، تعثر، نزل الجبل زحلقه، رأى نفسه الى جانب بركة ماء خلع ثيابه، تعرّى نزل الماء، اغتسل، صلى ودعا، ثم بكى، وصرخ، غسل رأسه جسده نظر إلى خاصرته اليسرى ضربة خنجر، رأس سهم بجوار قلبه.

أعاد طقس الاغتسال، هذا ماء مقدس ماء مثلج إلهي، مكث لحظات، ساعات، أياماً، يقوم بهذا الطقس، فلم يعد يعرف كم أمضى من الوقت في البركة، وكل ما يذكره طقس الاغتسال، وإعادته وتكراره. خرج من الماء أكل نبات القرة والجرجير التي قطفها من حوافي البركة، ثم ارتدى ثيابه صلى من جديد،

كانت ألوان الشمس تغرق في بركة الماء، ألوان الطيف المقدس تنعكس صوراً، عيوناً، أنهراً، نوراً إلهياً، جميلاً، بركة مقدسة، اندمجت صورته وجهه وجوهه مع نور الشمس، دخلت مساحات الجسد، أضيء الجلد، انتقل النور والضوء إلى وجهه، لم يكن ضوءاً إنما نور، هذا ما أحسه، مارآه، مشى فوق صفيحات الماء لم تتكسر، طار فوق الجبال، بساط ريح، طار كأنه حمام أبيض حلق في السماء، سبّح، وأنشد وعاد إلى مكانه، وقف يتأمل السكون الملتبس بحفيف الشجر، ورقرقة المياه. أصوات العصافير العائدة إلى أعشاشها بعد طول طيران وتعب. وهاهي نجوم السماء تبدأ حفلة سحرها ومؤانستها الشجر السامق والليل الكالح السواد وربما الضال أيضاً.

– الليل ضالة قطاع الطرق ، بل الليل وجه النهار الآخر..فسحة للرؤى والمعرفة والعرفان !!؟ ليل الأمس، ليل أعوام وقرون، كنت أركب الفرس، أحمل السيف وأركض، أختبئ في تجويف الليل والشجر، أقارع جند الغزاة ملتحفي جلود الحيوانات ممسوحي الوجه ، أنده أنبيائي ورسلي، يرد صوت خافت من خلف الليل. هو صداه صدى صوته.

كانت النجوم تختفي وتظهر، والقمر يأخذ شكل وجه، يخفيه ضباب الليل، تأتيه رؤية انشطار القمر لتلك الليلة المباركة، نزلت رهام من المطر، أيقظت روحه الغافية الثاوية في أماكن بعيدة. تأمل سرواله، لقد تمزق وسقط الطربوش، لا لم يسقط إنما لفه بمنديل هارب من..!!. كان قد استقر على جذع شجرة هناك في تلك البيوت الحجرية، بل جاء من الأزقة الهاربة من الخوف، أزقة آوته وحمته وأطعمته أياماً وأيام. وجوه أصحاب البيوت، وجوه ضبابية لم تتضح ملامحها معالمها في السواد الدامس لليل المدينة.

ـ هناك في مكان بعيد، بعيد، كنت ضارباً بالسيف والترس والمنجنيق، ياالله يارب السماوات والأرض ياعالم الغيب وبالغيب أنا من أنا؟ وكم صورة لي؟... وكم جيلاً عشت؟.. هلاّ فككت طلاسمي، ورؤاي كي تهدأ روحي وأستريح.

المشهد الثاني

التجلي الثالث

يا عالم الغيب وأنت الغيب المطلق، أعشت أزماناً وحيوات كثيرة؟ أهذا وجهي أم وجه وجوه لآخرين ؟. والروح روحي. أهو بلدي، أم هناك بلدان عشت بها؟. أهذا عالمي الداخلي ولغتي ، أم هناك عوالم، ولغات أخرى؟ تبدت في الصور والأشباح التي تلاحقني، تطاردني، تمزق جلدي، فيخرج منه رجل آخر... وآخر، وآخر، هي الروح فقط في الجسد، وهذا الجسد فان، فان.

صوت خرج من صدره ـ أنت الشيخ إبراهيم، عبد الله، حسن، ربيع، عبد الرحمن، يا إلهي "والنجم إذا هوى".

أيتها الحصى ألا تنطقين وأنت تُسبّحين في كل الأوقات، في صمتك وحتّك وتكسرك، وانكسارك. حمل حصاة منحوتة على شكل ألف ناطقة..وسألها :

ـ بأي لسان تذكرين ربك في الصبح والعشية؟.

أيتها الحصى ألا تفكرين؟ ألا تساعديني؟ تطلع إلى السماء

ـ سبحانك ربي، وقل رب زدني علماً، زدني تسبيحاً وتكبيراً.

وأنت أيتها الأشجار الوارفة، أأنت ظلال الإله على الأرض، أم ظلال أئمة، وقديسين وأنبياء؟! أأنت شجرة عيسى وموسى أم أن عيسى وموسى اختفيا في جذعك؟ وخبأا العلم لتتلألأ أقباس النور، وأنت صامتة وصامتة، الله جعلك صامتة لتكتمي الأسرار وتخفي سر الأسرار، ولذا غرقت في لجة الصمت وضئت بالنور،نور يراه العارف والكاشف سر الحجب، والمؤمن بك وبسرك.

يا إلهي يا خالق السماوات والأرض، والشجر والحصى، واليم واليابسة؛ يامن أوجدت من هم قيمون على ذلك. يا إلهي يا قادر على كل شيء أعنّي، واهدني الصراط المستقيم. سمع خرخرة ماء النبع، انسيابه إلى التراب

والحصى: أحس أن التراب يتأوه ويصرخ صرخات فرح وحزن.. يا الله أكاد أميز مابين رقرقات الفرح من الحزن.إنك أنت العليم الخبير، إليك وحدك نتوجه بالدعاء، إلى صورتك وأسمائك، وأبوابك الكريمة، ندخل بوابات معرفتك لنتعرف إلى اسمك وصورتك، يامعنى كل معنى يارب السماوات والأرض. هي الأحرف الأولى من أسمائك ومعانيك، وذاتك في كهيص، الكاف كميل، والهاء هود، هارون، والصاد صموئيل، وصالح... والياء يعقوب، ثم اللام وراء والزاي زكريا...

والميم محمد.. والشين شمعون.. والألف تبدأ من آدم المصطفى يتبعه يعقوب، موسى، هارون، سليمان، عيسى، محمد.

يا الله يامن جعلت من رأس الحية الصغير رأساً بحجم الفيل، وخلقت لها لساناً لتتكلم وتوصل الرسائل وتبتلع لسانها وتختفي.

يامن أنزلت الرسل والأنبياء بثياب وجلد الناس، ووجوههم وعلى أشكالهم لتهدي البشر ولتعرف المؤمن من الكافر، يا الله يا من جعلت الأرواح الطاهرة ترفع إلى السماء والأجساد تفنى وتبلى، ونقلت الروح الصالحة من الواحد إلى الآخر، ومن تقي لتقي ومن نبي لنبي.. ومن وصي لوصي منذ بداية الخليقة؛ ونقلت الأرواح الشريرة والكافرة إلى الحيوانات، يا الله. أسماء، أنبياء، صور. أبواب. قديسون كلها فيَّ، ومن الغيب المطلق. الأرواح والأزمان.. الكتاب كتاب واحد، كتاب الغيب.

بيوت، بيوت، بل نون تنتقل الأرواح منها وتحل الروح في جسد، والجسد يتحول إلى تراب.. سبحانك ربي، وسبحان خلقك.

رسل، أنبياء يدعون إلى الحق. ثنائيات، ثلاثيات، خماسيات تغيب وتحضر، وتحضر على مر الأزمان والأوقات، ثم تغيب، تلج، تندمج في الغيب المطلق. وكل طهارة إلى جانبها نجاسة، والضد بالضد يعرف ويكشف وينجلي. أرواح خماسية، ثلاثية، ثنائيات فرعون وهامان، وفرعون عزيز،وعزيز...

بيوت مقدسة حاشى لله أن تدنس، والله يطهر البيوت من الأدران

والضلال، من بيت عيسى إلى بيت محمد....نور في نور ومن نور.

يا الله أنت عمّدت، طهرت الأرواح.. والأنهر، والبرك المقدسة.

يا الله أنت فديت اسماعيل بكبش غنم، وماكان بكبش غنم، إنه إظهار نبوة اسماعيل، النار، نار مقدسة نزلت برداً وسلاماً على ابراهيم، وما كانت ناراً إنما إعجاز، وماكان كبشاً إنما إعجاز، وإظهار النبوات والرسل وكشف معجزاتهم وإنقاذهم.

إنه كتاب مسطور، كتاب بنقاط، كتاب مسطور قبل بدء الخليقة، ومع الخليقة إلى الآن...من آدم وهابيل، نوح و حام، إدريس وشيث، موسى وهارون، وعيسى و شمعون، محمد وعلي. لوح مسطور تنتقل الأرواح النقاط، لا ليست نقاطاً، حبيبات، لا إنها أرواح نور... تنتقل في الهواء وتتحرك، ترسم خطوطاً، ترسم نقاطاً، بل ربما هبوب ريح، نور، ظل، نور ينبثق من الكتاب المسطور، ليس كتاباً، إنها نور، صور، ظلال، أرواح نورانية تنتقل في نقاط الكتاب المسطور، المكتوب من الأزل إلى الأبد .يا الله يا أعلم العالمين، يا علي يا عظيم.

ـ يا صاحب الكتاب المسطور، يامن تنقل الأرواح والأنفس من الجسد إلى الجسد، أرسطو، أفلاطون، سقراط، أفلوطين.. أدوار مرسومة مرصودة منذ الأزل إلى الأبد...

يا الله يا مالك الغيب، ويامن سطرت النقاط، الأرواح، ووزعت الأدوار، وخلقت الحياة ونقيضها الموت، ولم تبخل علينا بخلق السماوات والأنهر والأرض، والكل في فلك يسبحون، والكل بأمرك يسير، إنها حكمتك في الخلق.

يا إلهي يامن أطلقت صوت الرعد، وجعلت من صورتك مرآة مرايا لانهائية وأظلة ونقاطاً مرفوعة فوق الكاف... نون النور، كتاب مكنون مسطور.

رفع الشيخ يديه إلى وجهه، مسّده بكفيه، ودعا إلى سمائه ورسله ـ كتاب مسطور، ميم ميمات، سبع في تسع... عين في خمسة، سبعة أنهار في عين أزلية، نورانية، أظلة، أسماء الله ،صور،الضد في الضد .الضد يقتل الضد يمزق ثوبه الإنسي، ويعود إلى عالم الأظلة، نور من نور كلي.هالة قومي، هالات

قومي...إكرام قومي...والبشر من يعرب وحام وخضر،إلى ربيعة وكلاب...إلى...يا إلهي، شجرة، شجرة نسب، أكملُ النسب.. الله سبحانه يمنح من يشاء المعرفة..وكشف الحجب...هنا أهدرت الدماء الزكية، ونقلت الأرواح من الأجداد إلى الآباء إلى الأبناء..الإ يمان، وانفصل الضلال عن الهدى، يارب السماوات يامن تبديت للبشر خلف صور وحجب الألف، آدم، وميمات موسى ومحمد. يامن كلمك موسى في طور سيناء، يوم تبديت ظلالاً في ذلك الطور المقدس، وفي الجذوة الزينبية، يامن أعطيته عصا الإعجاز، العصا السحرية كإشارة وعلامة نبوته ورسالته..

"وهل أتاك حديث موسى إذ رءا ناراً، فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي ءاتيكم بقبسٍ منها...فلمّا آتاها نودي يا موسى إني ربك فاخلع نعليك بالوادي المقدس طوىً...فلمّا" تجلى له ربه في الجبل وكلمه" ـ خرّ موسى صعقاً.!..

يا الله يامن هزت لك مريم جذع النخل لتطلب العلم منك.. وكان إعجازها، وإعجاز عيسى الذي تكلم في المهد، وما تكلم هو إنما كان صوت.. رعد.. صوت منك، من نورك يخرج من صدره، ومن بيت النبوة نبوة آل عمران، مريم تنجب ولداً، وهي تهز النخل لتأخذ العلم إعجازها إعجاز الله..وأبوها زكريا... لم يكن أبوها وإنما نور... وعيسى المصلوب.. ولم يصلب وإنما شُبه لهم.. ورفع إلى السماء، كما شُبه لمن بعدهم ـ علي ـ لقد تمزق الثوب الإنسي عنه.. انتقلت روحه إلى روح أخرى، لا إنما فيض من روح الله.. فيض منه..

انتشر الرسل من بعده في الأرض، اثنا عشر رسولاً في بقاع الأرض، شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً؛ نشروا دين عيسى، عيسى الذي شفى بيده الأبرص والأكتع، وكان إعجازه، إعجاز ولادته، وصلبه، وتحوله إلى نور، رفع إلى السماء، إلى النور الكلي، قبس نوره انتقل في أكف الرسل، أضاء الأرض، خضّر الزيتون والتراب، وأنبت العشب الصالح للرعي، ولطعام البشر، حبات حنطة تتناسل.

قبس النور أحال كل أعمى بصيرا، ومن لم يبصر بعينه أبصر بقلبه .يا إلهي يامن أظهرت إعجاز الرسول صالح، بعد أن كفر قومه به وبناقته المعقورة التي أطاعته طاعة عمياء، لم تكن ناقة وإنما قبس نور جبلته على شكل ناقة لتضيء طريق الرسول، ولتظهر الإيمان من الكفر، يعقر الكافرون الناقة كي يكذبوا نبوته، الناقة اختفت بقوة الإله، طارت وشقت السماء ورحلت، خبأها النجم ابراهيم مع كواكب السماء.. التي أخفتها للأبد.

أقوام مؤمنون، أضداد مشركون، ولكل ضده، وكل نفس مؤمنه تجاورها نفس خبيثة. وتلك بلاد عاد وإرم ذات العماد رحلت ناسها وبقي العماد، ومعها الكثير من البلدان والأمم أفنيت بكاملها، ولم يبق إلاّ السيِّر والحكايات عنها .هناك من يظن أن قابيل قتل هابيل ، حاشى أن يُقتل هابيل؟!! إنما .. اختفى وعاد إلى الأظلة.. وكانت الصهباء قرباناً مقدساً لك، له، نزع قابيل ثوب الإنسي عن هابيل مثلما فعل ابن ملجم.

الله يرسل الأنبياء والرسل، يكذبهم قومهم، وقلة قليلة تصدقهم، والحكاية تعاد وتعاد ..نوح الذي رحل في سفينة بعد أن غرق العالم، ولم ينقذ إلاّ المؤمنون والصالحون من الناس، والطيور والنمل والنحل، وطافوا في بلدان الأرض، ورأوا غرق الزرع والضرع والشجر والبيوت والناس، وبإعجاز نوح وبقدرة الله أنقذ البشر المؤمنون.. والحيوانات من الفناء الكامل، وفيها درس وعبر لمن اعتبر. إنها الحكمة والإعجاز يتوارثها الأنبياء عن بعضهم البعض، إعجاز من عند الله عز وجّل، ليتقي البشر ويؤمنوا. وتعاد الحكاية، موسى وإدريس..وعيسى..إلى محمد

نظرت الصبية إلى زميلها، ابتسمت ـ إلى أين ستصل؟ وأي أحمال فوق ظهر هذا الشاب الجميل، ومن أي أرض أتى ومن أين له كل هذا الخيال؟ إنه يتكلم وكأنه هو الشيخ، هو من رحل وليس جده.. يتذكر كل شجرة ونبع ماء.. وجده من أين جاء؟ من الصين، الهند، فارس، مصر؟ وكأن أجزاء العالم، دياناتها تجمعت به... شق الأرض وخرج منها، أو من جذع شجرة، أو نجم

تشظى فنزل جده.

سألته:

- الشيخ إبراهيم. يعني جدك، جدك لغز! وأنت لغز! وحياتكم لغز ووهم!

- لم يكن جدي لغزاً، ولكن يصعب عليك فهمنا ... لم تعيشي في الجبال الوعرة، وتري ضوء القمر والنجم، وتسمعي خربشات الليل والأنوار فوق الوجوه، ودقات الخليلي عندما يموت الصالحون. لن تفهمي ماذا يعني انتقال الأرواح وفناء الأجساد .. في الهواء، والذاكرة تنتقل من واحد لواحد، والحقيقة روح تنتقل.

التجلي الرابع

وصل الشيخ ابراهيم إلى قمة جبل مرتفعة جداً، كان الليل قد أطبق على كل شيء، سواد بسواد لا متناه، يتماوج في بؤبؤ عينيه، التمعت نجوم الليل، التقى سواد السماء مع ذلك البحر الهائج وزبده، لا يفصل بينهما فاصل، اختفى ازرقاق البحر، تحول إلى السواد في حين كانت النجمات تعكس موجاته الهائجة على شكل صورته البديعة.

أخذ الثلج يتساقط، ألقى بصره إلى المنحدر، رأى قرية صغيرة، لم تلبث "سرجها" وأطفئت، عمت الظلمة الضيعة الشاحبة، وخبأت في حوافها وجوارها الشجر الوارف والبيوت، وابتُلعت النجوم في ضباب القرية وثلجها وغمامها. بقيت أصوات الذئاب وابن آوى الذي بدأ بالاستعداد السطو على دجاج القرية، وبريق عيون الضباع يترصد القرية من جهة الحرش تهم بالانقضاض على الأحياء، إنسان كان أو حيوان يقع في طريقه إثر جوع أسابيع، آن أوان البحث عن صيد ثمين، خروف، حمار، إنسان...

وقفت ضبعة أمام جدي، عيناها تلمعان وتنظران في عيني جدي الشيخ، بعد قليل هربت الضبعة من وجهه، بينما كان يسبّح ويقرأ، يبعدها عنه بآيات الذكر الحكيم وببسملته التي تلاها بعد الأدعية. أكمل الشيخ طريقه ووصل إلى قبة تبدأ حدود القرية المنحدرة بها، سمع وقع خطا، تسارعت الخطوات، أخذت تركض، كانت القبة مكللة بالنور، هذا ما رآه الراكض، وهو ينظر وراءه إلى القبة، وصل صوته إلى أذني الشيخ وكأنه همساً لاهثاً، ما لبث وصرخ بأعلى صوته صراخ الخائف، أيقظ سكان القرية من سباتهم، خرجوا من البيوت رغم برودة الطقس، وقفوا أمام بوابات بيوتهم، سمعوا صوتاً مبحوحاً، صعدوا إلى الأسطحة لمعرفة ما إذا كان قاطع طريق أم ضبعة اعترضت أحد المارة المتأخرين والمقطوعين. نظروا إلى الجبل والقبة، خرج صوت واحد منهم نور نور، ارتفع الصوت ارتفع عالياً مدوياً دون أن يحسوا به، بدأت شفاههم

تنطق بالبسملة والآيات البينات، وشفاه أخرى تتمتم بالأدعية، دقائق وعادت العتمة والصمت يلفان السماء، والشجر، والبيوت. بقيت دموع الأهالي الخاشعة المتساقطة فوق الخدود ،والتي وصلت إلى الحجارة التي تعثر الأهالي بها، وهم يعودون أدراجهم إلى المنازل.

لم ينم أحد في القرية تلك الليلة، قضوها تضرعاً ودعاءً وتوسلاً لذلك النور الجديد.

في الصباح خرجوا إلى الأسطحة، رأوا رموزاً وأشكالاً فوق الحجارة، خشعوا من جديد، وقلوبهم الصافية وعيونهم الدامعة، والتي تساقطت أمس بغزارة ورسمت الأحرف والرموز، لم يفهموا معناها، تركوها لشيخ عالم يفك سحر الليل والرموز، وقد تأكدوا أنهم قرية مؤمنة تقية، وإلا لما جرى ما جرى بالأمس، أحسوا أن النور غمر قلوبهم بالإيمان والتقى. نادى مناد:

- يا أهل القرية، يا أهل القرية

تجمع الناس وخرجوا رغم الثلج المتراكم فوق الطرقات الجبلية، صعدوا باتجاه القبة، وجدوا قطعة قماش خضراء، ركض الجميع للتبرك بها، تمزقت القطعة إرباً إرباً بين الأيادي التي تخاطفتها وشدّتها.. واعتبروا الخلعة فأل خير من عند الله، وأنه سبحانه سيدب البركة والخير في القرية وسكانها.

بقوا أياماً وأياماً يتساءلون عن صاحب النور أو زائر القبة، عرفوا فيما بعد من الرجل الذي كان يركض لاهثاً "ليلة النور"، إنه شيخ قدسي نام في القبة ليلة الثلج والنور، وأنه رأى بعينه النور يكلل ذلك الشيخ، فأكد أهل القرية ما قاله، وهم أنفسهم رأوا النور، وقد ترك لهم قطعة قماش خضراء "خلعة" مقدسة ليباركهم.

الحادثة رويت، ورويت في مساءات الشتاء الباردة والكئيبة والقاسية، وتحت أشجار البلوط والسنديان، ولم تُنسَ في الليالي المقمرة، فقد زينت الحكاية مساءاتهم وخيالاتهم معاً، فرأوا وجهاً من نور، ورجلاً راكعاً خاشعاً محاطاً بالنور، وشُبّه لهم أنه المهدي أو شبيهه... أتى ليخلصهم من الجور

والظلم والفقر والعذاب، وبيده المن والسلوى،وكان يصلي بجوار القبة ويسبح ويدعو لهم..

مضت أيام شتائية باردة ومثلجة والجميع حول مواقد النار والحطب المسروق، وأحاديثهم تدور عن الشيخ وبركاته وأنواره، وما سمعوا عن علاماته، وقيل لهم - إنه الشيخ إبراهيم المهاجر، ظنوه، شبه لهم المهدي... وهو الذي هرب ذات يوم من عسكر العثمانيين، وكاد أنُ يقتل لكنه استطاع بعون الله أن يجعل البراميل المغلقة مفتوحة من الأسفل،ذهل الجنود ارتبكوا، وهرب الشيخ.

توقف الشاب عن السرد التمعت عينيه، وشرد ، قطع غصن شجرة قريباً منه، سمع صوت جده، جده هنا .. يخرج من الجامعة من أغصان الشجر في الجامعة ومنه. لم يكن يلحظ إذا كانت الصبية تنظر إليه. فقد كان يحملق في عالم آخر، عالم بعيد بعيد، صوته يخرج من غابر الأزمان، صوت من داخله كأنه صدى صوت قادم من الأحراش والأتربة والأشجار الباسقة ،الملتفة حول قباب، ووجوه خاشعة - الله أعلم. ولعل السماء انشقت فنزل جده أو هو جد جده... هو... بياض وجهه ولحيته وشعره وعمامته البيضاء، لقد جلس يروي سيرته، والسيرة تنخلع من أضلعه، تمزقها. لا .. السيرة تروى من شغاف القلب، قلبه لبه. لم يعد يحس بوجود الصبية، وإن كان ينظر إليها وهي تحملق مذهولة متشتتة بما يحصل، تحاول تفسير ما يقوله وهو يتكلم بصمت كي لاتسمعه، يتمتم كلمات غامضة...

نادته لم يسمع نداءها، كأنه أصم وأبكم. والحقيقة غاب عنها وعن الجامعة والأرض. صرخت باسمه، صرخت دون فائدة.

صوته، صوت جده، جد جده، يخرج من أعماقه وذاكرته الثاوية دون علمه وإحساسه، يتابع الحكاية، وعينا الصبية تهدئان رويداً رويداً من روعهما. تصمت. تدخل في عالم الحكاية، حكاية الجد.

هو أنت،هو أنا، جدي جده، وصل إلى قرية أخرى، والثلج مازال يتساقط غطى الأسطحة، ومداخل البيوت والأدارج والأبواب مما اضطر النسوة للخروج

في البرد القارس لإزاحة الثلوج عن الحطب أولاً، وعن الأبواب ثانياً، وبقي الناس سجناء البيوت الترابية الباردة.

النسوة ينتظرن توقفّ الثلج لإشعال "التنانير" كي يخبزن، واضطررن إلى الخبز فوق مواقد الحطب في البيوت، تداخل دخان المواقد مع الخبز مع نفس البيوت وصوت السعال، والأسوأ هو رائحة خبز الشعير والذرة الصفراء والبيضاء، والثلج يتساقط ويتساقط.. انقطعت المؤونة، وخلت معظم البيوت من القمح، ووصلت إلى فقدان الذرة الصفراء والبيضاء، والشعير "والشنكليش"، مات البعض صرعى الجوع والثلج، واتسع شبح المجاعة أكثر، أصبح يهدد المنطقة بأسرها. تحولت أحلام الناس بالفرح من الأعراس والربيع إلى الخبز والهندباء و"قرص العنة"، والخبيرة "ولباس القطة والحر تمنه"، واختلطت بالموائد الهابطة من السماء، وعليها اللحم والزبدة، ووجوه الأولياء والعمائم البيضاء والحمراء والخضراء. كثرت الأدعية ما فتئت تبدأ مع ساعة شروق الشمس إلى غيابها، يديرون وجوههم نحو الشرق ويتمتمون بالأدعية التي ستهبط إماماً منتظراً فوق حصان أخضر، يحمل إلى عباده الصالحين الطعام ويوزع عليهم الأعطيات. يراقبون الإشعاعات الذهبية المتساقطة على الكون الممتد مابين سفح الجبل والأرض الأكثر انبساطاً، والممهدة من أجل زراعة القمح، ينظرون وينتظرون إن كان قد سقط إمام أو نقيب، أو سائح، أو طعام حقاً!! أم مازال الدعاء دعاء.. انتشر الناس في أرجاء المنطقة، ومعهم أدعيتهم.. صعدوا الجبال والوديان يتتابعون يهرولون باتجاه أشعة الشمس المقدسة، وعطاءاتها وخصبها ونورها، هو نور إلهي، ظل من أظلة الجنة والحياة والغيب المطلق،تجلٍ إلهي، وبأيديهم كؤوس الخمرة والعرق الذي ازداد شربه لتدفئة الأجساد الباردة وحمايتها من الصقيع والتجمد، يمنحهم الحرارة أكثر من رماد المواقد الأرضية المنتشرة في زوايا تلك البيوت الترابية، التي كادت أن تتهاوى لولا الإيمان والهدى الذي حط فوق رؤوسهم.

أيام عصيبة مرت والناس تصف صفوفاً صفوفاً، جماعات جماعات من

سفح الجبل إلى السهل ومن القاع إلى المرتفع، دموعهم تحجرت، وشفاههم ازرقت ولم تعد تطبق على بعضها البعض، وأجسادهم المرتجفة المزرقة تعلن بداية موتها، والمنطقة أصبحت كتلة من البياض، بياض سفوح الجبال، أسطحة المنازل، أغصان الشجر جذوعها البنية، أبيض في أبيض.. والوجوه السمراء لفها البياض أيضاً بياض الموت.. وهو يلتفح، يلتقح، يتوهج داخل الحكايات، وأقاصيص المعجزات وعلامات المؤمنين، لم يبق أحد إلا ونذر ما عنده وعند جاره من ماشية وأرض كي يتوقف الثلج والصقيع. الدجاج مات من "الوجعة"، والبقر جف حليبه، وكذلك الماعز.

والأدعية بدأت تتغلف بالشتائم، والإيمان دخل الكفر، والكفر أصبح إيماناً بالكفر في نفوس الناس، وهم ينامون وأحلامهم تتقزم تختزل في الطعام والشمس الساطعة، يستيقظون على أمل خائب بالطعام.صورة الشمس، الأئمة، الأنبياء، الأولياء تشوشت مع بريق العيون الذي خُطف، وخَطف معه الأطفال الفقراء، سرقوا،انتُزعوا وأمهاتهم جاثيات، وكأن أيديهن ممدودة، وفوقها أطفال قطعت أنفاسهم الأخيرة، وكأن الله عز وجل أنزل غضبه على شكل ثلج أبيض، ولم يكتف برؤوس الناس، بل أخذ حيواتهم أيضاً. وتلك القطعة الخضراء "الخلعة" والنور كانا إيذاناً بعقابهم على ضلالهم وقلة إيمانهم، ولم يكونا نذير خير وبركة كما ظنوا.

توقف الشاب عن الكلام المباح ثانية، وصمت قليلاً، تدخلت الصبية وطلبت إكمال الحكاية.

- أأنت جادة في سماع رحلة جدي؟.

- بالطبع هي حكاية مشوقة.

- ليست حكاية، إنها قصة جدي.

ابتسمت الصبية:

- حكاية جدك! أنت تصر على ولوجي عالمك الخاص ونسيج عناكبك وأساطيرك، وأنا اعتبر القصة جميلة وغريبة...

- هي تقاوم تصديقي.. عيناها غائبتان في القصة وبي لقد بدأت رحلة جدي تدخل عالمها النفسي. قطع أفكاره وانتقل إلى الحديث معها - لازلت ابنة بيوتات مغلقة، وتربية مدارس أجنبية.

ضحكت.

- جميل.. وأنت ابن جبال مغلقة، قاسية وجميلة، أغنت خيالكم، بنيتم عليها القصص والأشعار والحكايات والأوهام.. ومع ذلك فالقصة تبقى قصة!! وأنت تعلمت في مدارس أجنبية وكل منا تأثر بها...

- ستدخلين هذا العالم وتتعرفين عليه وتحبينه.

- أأدخله؟ أدخله لكن لن أصبح جزءاً منه، وعليك أن تدخل المدينة وتعيش في البيوت الواسعة ذات الأبواب الخشبية، والتي تظنها بيوتاً بائسة وهي جنة من الداخل، ورود جوري، ياسمين، فل، نوافير ماء عذبة، عندئذ تعرف سحر المدينة الخاص بعيداً عن سحر التوت والكروم المقدسة، كرومنا للأكل فقط، وليست لصنع الخمور التي تتغنى بها..

شُمَّ شجر الكباد والنارنج واترك جانباً رائحة البخور، وإلا لن تصبح شيئاً مهماً. غداً سأسقيك شرابنا المقدس، شراب التوت اللذيذ لعلك تبتعد عن العرق والنبيذ.

سأشتري لك البروكار.. لتبتعد عن مواسم الحرير والقز والدواليب، والمغازل ونسجه مع أنه جميل.. لذا اجلب لي شال حرير يشبه الشال الحرير الذي حمله جدك في ترحاله، ألفّه على رقبتي بدون حبات عنب وتين سحريين ومقدسين، صحيح لماذا لا تدخل شجر التفاح كشجر مقدس؟!!

رازها الشاب طويلاً، أدار برأسه معترضاً على كلامها.. أنت لا تفقهين شيئاً ولا تعرفين ما تقولين عن الشجر المقدس ومعانيه ودلالاته، تركها ومشى، ثم توقف قليلاً، عاود المشي من جديد تلبّسته حالة جده، مشى بين الأشجار ساهماً في شجر الكينا والزيزفون، اقترب من جذع الشجرة بحث عن حجر حاد، ركضت الصبية خلفه، لم يتنبه إليها أو يحس بها، حمل الحجر الحاد. أنا

جدي، جدي أنا، ابراهيم المهاجر، قطع قطعت الفيافي والقفار، دخل دخلتُ مغاور، صعد صعدتُ جبالا ووديانا، هبط هبطتُ، نزل نزلتُ، مشى مشيت في السهول، سمع سمعتُ، رأى رأيتُ ما لم ير أو يسمع. أخذ يكتب على جذع الشجرة، والفتاة تتابع الأحرف المحفورة، هي تعرف خطه الجميل، هذه المرة أحرفه وكلماته كتبت بطريقة غريبة لم تألفها، أو ترها من قبل، مزيج من الخطوط المعروفة وغير المعروفة، رسم خاص لكل حرف، خط رقعي متداخل بالكوفي، بالديواني بالرسم، ولكل حرف رسمه العجيب. حاولت تفسير الأحرف لم تقدر على قراءتها وتمييزها، فكرت في أسباب رسمها على هذا النحو، ضاق خيالها وفكرها عن إيجاد جواب شافٍ، تضايقت كثيراً، عاودت محاولة التفسير والتأويل للأحرف والكلمات، شدهت طويلاً، في حين تابع الشاب كتابته وهو يتمتم، اقتربت منه شفتاه تتحركان على غير العادة، أصاخت السمع.. اقتربت منه أكثر!

- جدي تعال، وانظر، جدي أيها القابع خلف الصخور وفي القباب، وفي القبور المتناثرة في السهول والجبال، تعال، وانظر ما يقال...

جدي خرجتَ من الأرض، قلبتَ الصخور، مهدتَ السهول، ظهرتَ واختفيتَ، تواريتَ عقوداً وظهرتَ من جديد، تاريخك ظهور واختفاء، اختفاء وظهور... أين أنت؟..جدي دخلت مسامات جلدي، روحكَ هنا في صدري أليس كذلك؟؟... قلقك قلقي، خوفك خوفي، جدي أحقاً أنت هنا؟ في روحي، روحك روحي، نحن واحد!! كثر في واحد، واحد في كثر!!

نادته الصبية، هزت كتفيه، هو يغيب ويرحل في البعيد، بعيداً عن الجامعة والزمان والمكان، يغيب، يرحل، يطير وهي تنظر إليه عجباً.. ولا تعرف إلى أين وصل؟... شكت أنه مريض، سمعت حكايات عن المتصوفين، لربما كان زميلها أحدهم، أو لعله مصاب في لوثة. استبعدت ذلك واستغربته، منذ معرفتها به وهو يتكلم، يتصرف بجدية، يحاور.. يناقش بهدوء وسلاسة واتزان أكثر من معظم زملائها في الجامعة. تنبهت فجأة إلى أسئلتها القديمة

عن أهله، وبيته..غيابه عن المكان والشرود الدائم وعدم الإجابة!! قد يكون مهلوساً؟!! لا يظهر عليه ذلك!! طقسهم الخاص!! تداركت صمتها بسؤال:

- أكمل قصة جدك، وصلت إلى الثلوج المتراكمة التي قُطعت الطرق والطعام، وعم الجوع، ومات بعض الناس صرعى الفقر.

استفاق من غيبوبته، نومه، طيرانه، هذيانه، وتابع...

- كان الثلج يغطي أسطحة المنازل، وكل شيء حتى الحصى تحول في ذلك العام إلى كرات ثلجية، منبسطات أرضية مستوية تعلو يوماً بعد يوم ،والسماء تشابك غيمها وثلجها وثلج الجبال، فلم يعد ممكناً فصل ثلج السماء عن الجبال، والعالم تحول إلى عالم ثلجي وكذلك البشر.

توقف قليلاً، شرد في منظر الثلج الأبيض في القرية.. وفي الفقر والظلم، وجده، وجد جده. لم يعد يذكر البيت الترابي، الحجري، الأشجار، الجامع، القصر، الطرابيش الحمراء، التي أكرهوا على ارتدائها من قبل العثمانيين كي يميزوهم عن بقية الناس ويزدروهم لدينهم فقط.. العمائم كلها هناك، أولاد صغار، كتب، أطياف تقبع في السماء. هو هنا .. يخط الكتب، يقسر نفسه على الحفظ والدراسة والرطن باللغات الأجنبية، وروحه طائرة مع الطيور، ومع سنونو السماء. يختلط بالضباب والأوسمة الخضراء الملفحة بخيوط دم، وهناك أحصنة قادمة فوقها رجال ملثمون يَقتلون، يَضربون، يَدوسون الكرمة والزيتون والعنب، يشعلون النار، يحرقون الجبال، رائحة الشواء الآدمي تسكن في أنفه منذ زمن.. يلتمع سيف معلق في الأفق، ينزل قليلاً ثم يرتفع، ويغيب بين طبقات الغيم، لم يعد يراه.. خيوط نور، حزمة ضوء أمامه وأمامي.. صوت بعيد يقول: من هنا .. كنت أنا .. وهو.. ونحن معاً، والثلج مازال يهطل، تراءى للبشر أن القيامة قد قامت، والساعة قد حانت، ولم يبق إلاّ النفخ في الصور والثلج وكل يحمل كتابه في يمينه أوشماله.

حمل الجميع الكتاب أو هكذا تراءى لهم، وصوت يصرخ بالاسم والحلم، صفوا بالتسلسل، وكل يوم اسم بيت، أو بيتين، أو ثلاثة.. وليالي الثلج المخيفة

والمميتة تطول وتطول، أما نهار الثلج... وخلف الجبال الثلجية خيالات ملائكة وأطياف أنوار، ورب يترقب بهم، يحاسبهم، ويعاقبهم، وهم مفتحو الأعين، مصيخو السمع والآذان، وكل ذلك يختلط بصوت الريح والرعد يمتزجان بعواء الذئاب، وهمهمة الخوف من الليل والبرد والكوابيس، وكأنهم بانتظار الثبور وعظائم الأمور. سنة غبراء، لا أذاق الله الناس مثلها، ولا أعادها عليهم.

ليال مجنونة، ونجوم شاردة في السماء وكأنها على موعد مع الناس الراكضة والمهرولة، والهائمة على وجهها في تلك الجبال، منهم من هاج وماج دون جدوى.

اختفت النجوم المذعورة خلف شجر السنديان والبلوط والسماق، وضل المشاة الطرق والسبل بعد هروب النجوم. انتظروا ظهور نيزك مشرئب العنق، يبحث عن مداره الضائع هو الآخر فيضيء.. ويجد المارة سُبلهم، وضالتهم.

وخلف ذلك سياط بأيدي رجال غرباء ينتظرون الطرق، كي ينزلوا فيهم الضرب، وينشروا ذعراً جديداً.

رجال ونساء يبحثون يفتشون عن الأعشاب الصالحة للأكل، حفاة الأقدام، أسمالهم بالية، لا يجدون إلا الحجارة والحصى المثلجة... ونباتات صقيعية صفراء. معد خاوية تقرقع كتلك الأحجار المهروسة.. تئن، تصرخ ـ كل شيء ممتحن في كل شيء.. الطبيعة تمتحن البشر، والثلج يمتحن الأرض والناس معاً، والله يمتحنهم جميعاً.. والبشر يبحثون عن قرابين جديدة لم ينذروها بعد، وينتظرون ذبائح الأغنياء فلا يجدون سوى الحجارة، وتحتها جثث الأموات، ووجوه قديسين يحملون الخلاع، ويضعونها على صدورهم ورقابهم وأيديهم فقد تغنيهم عن الطعام، وتبعد عنهم الثلوج، وربما تحمل لهم أطباق طعام، قففاً من السماء.

الفاجعة تخفي خلفها فاجعة أمر وأقسى، والعيون بدأت تنسى البكاء ـ أو جفت دموعها ـ والجوع والمقامات والقديسون، والشهداء بأضرحتهم لم تعد تقدم شيئاً إلاّ الوعد بالجنة للمؤمنين الصابرين، والجنة هي معرفة الله

والتقرب إليه، والموت يهاجم الناس من الجوع، والصفرة تهاجم ما تبقى من الأحياء.

ذاكرة جدي ضعفت يومها .. وبقي فيها صورة اثنين في القلعة، وصوت من اجتث رؤوسهم في ليلة ليلاء.. وحشيت بالتبن، ونسي وجوهاً كثيرة... إلى حين.

لم يبق في المنطقة إلاّ صفر الوجوه، الفاقة، وانتظار الموت، وعمامة جدي تطير مع صوته وأصواته القديمة والجديدة، يصرخ في وجه الموت ورهبته، ويعود ومعه صور القتلى الذين دفنوا منذ أيام وأعوام، أيام المجازر والخطف والقتل.

تطايرت الأغصان فوق رأسه، تعانقت على شكل سيف أضاء سعف النخل، والوجه الهائم بين السماء والأرض، شحب الوجه وأضيء أكثر، ثم ارتفع وسعف النخل لا تفارق رأسه... اختفى دقائق ساعات، لم تعد الصبية تذكر، تنظر حولها .. العشب الأخضر فقط، وسعف النخيل. هربت مع زميلها الضائع الذي ينوي إضاعتها معه.. لقد تخفف من جسده وطار، ثم رأته وهو متربع يجلس مكانه، جاءها صوته مرتجفاً مرتعشاً منخفضاً متقصفاً، اقتربت الصبية منه لتسمع ما يقوله لم تجده، عاد ثانية إلى الارتفاع إلى الطيران والتحليق في السماء، أسرار مقدسة بين يديه وهو يصعد، يرتفع، اخترق الغيم، صعد السماء الثانية، توهج النور، أغمض عينيه لم يعد يرى سوى النور، النور فقط.

الشاب يغمض عينيه، والصبية لا تعرف ماذا تفعل، تتكلم!! تهرب، جسدها لا يساعدها على الوقوف والمشي أو الركض أو الحركة... لقد دخلت خياله وأصبحت تراه يصعد ويهبط، صوته ارتفع وغاب في الهواء رائحة، الزينب تعبق في المكان، تمتزج برائحة البخور والطيب والنور.اللحظات، لحظات كشفه ورؤيته النور...برقت الشعلة في دّن الخمر... مد الشاب يده، كأس تقدم إليه يشفها، ويد خفية تدفعها إلى فمه، تفرغها، تملأها من جديد.

- يا الله لم أر كأساً أجمل من هذا الكأس

والصبية تتساءل أي كأس؟.تتابع وتراقب حركة يده، جسده ارتفع عن مقعد الحديقة، ارتفع وكأنه معانق السماء فعلاً. حالة تلبس، هذيان وتمتمة

ـ ساعة طيبة... أطلب من الرب ما أشاء، وقت استجلاء الروح، طيران الروح إليه تعالى، إلى المعنى، إلى أظلة النور... الجسد فانٍ... يتمزق كيفما اتفق ولذا لايهم المؤمن طريقة وكيفية موته وقتله، روحه تطير وتحل في جسد آخر.. والجسد إلى تراب ومن تراب.

نختلف الصورة ،أجل تتغير.. أما النفس فهي الروح.. والروح هي جزء من الله..من آدم، وموسى، وعيسى، ومحمد.

ملائكة السماء.. صورة ملاك بجناحيه، الطريق إلى الله... جبرائيل... سلمان... مرزوبيه... هم أنفسهم.كلهم واحد، ظهروا، تبدوا لعيسى، وموسى، وآدم، تواروا في التين، والزيتون، وطور السنين: يا الله سبحانك.

لم تفهم الصبية أياً من كلامه، وأحست أنها لم تعش لحظات خوف وخشوع كما هي الآن. كانت تتذكر حكايات المتصوفة، قصة محي الدين بن عربي طريقة تصوفه، وذلك الذي كان يصرخ في حضرته، الله هنا، الله هنا، حلّ هنا، ولم يفهم أحد من الحاضرين، ضرب بالسوط، والشيخ طار وطار، وارتفع إلى السماء، ولم يستطع السوط ملامسته.

هاهي تلج المكان، الجامع، الحضرة، والمكان هو الجامعة، وهي تجلس فوق السجاد الأخضر.. لقد التبس الأمر عليها..دلكّت رأسها عينيها لتعود من جديد إلى صوابها، ما الذي يحصل لها؟ هل ستتابع حكايته؟... قد تجّن، ولكنها حكاية، لماذا تخافها؟ شعرت بالغثيان، دلّكت رأسها من جديد قامت ولم تودعه، شعور غريب أنها تحس جسدها يتخفف ورأسها في مكان آخر، مشت باتجاه باب الجامعة، عادت إلى زميلها المهلوس... ربما المجنون، كانت عيناه ماتزالان مغمضتين، سمعت عن لعب اليوغا، وقرأت ترجمات عن ديانات الهنود والصين لعل زميلها متأثر بهم وبالتصوف، جلست...والحقيقة تسمّرت بجواره..وهو غائب، يصرخ:

جدي. ثم يخفض صوته تلقائياً، صوته يخرج من صدره، أضلاعه أضلاعي، حنجرته حنجرتي، ذاكرته ذاكرتي. تشوشت الصبية، شردت فقدت التركيز.

تجمدت الصبية من كلامه للحظات، استعادت قواها وقدرتها على المتابعة.

مشى الشاب، ومشت خلفه.متابعاً سرده

- نزل عن المنحدر، وصل إلى قرية... إحساس غامض استوقفه، وصوت خافت ناداه - توقف مستقرك هنا في هذه القرية، قرية الربيع.

جلس جدي قليلاً، نظر إلى القرية، اقتطع وريقات الزعتر البري، وضعها في فمه وتابع إلى القرية، رآه رجل سأله عن اسمه، وعندما عرف جدي، نادى أهل القرية، تجمعوا حوله وأقسموا أن يبقى بينهم، والشعور الغامض دفعه إلى البقاء، صوت داخلي ناداه من جديد- ابق هنا . وأومأ برأسه بالموافقة.

نزل ضيفاً على القرية، وأقام في بيت واسع. بدأ شباب القرية يعمرون له بيتاً قرب قبة في الجبل، بعد أن سألوا الشيخ رأيه في المكان ونالوا موافقته، استصلحت الأرض بجوار البيت المنوي بناؤه، وحفرت لإقامة أساس المنزل، وبتيسير من رب العالمين لم يجدوا عراقيل، فالصخر اقتلع بسرعة وكذلك الشوك، وزرعت أشجار التوت، والعنب والتين والزيتون والجوز، وأصبحت الأرض كالمدرجات أو"حواكير" متدرجة.

سمع أهل القرية المجاورة أن الشيخ ابراهيم المهاجر استوطن قرية الربيع، بدأ شبابها يتوافدون وينقلون الأحجار اللازمة إلى مكان البناء، وانتقوا الأحجار البيضاء الكبيرة بدلاً من الحجارة السوداء، رغم الجهد الذي كلفهم في تأمين الحجارة من المقالع البعيدة، وقدم أفضل معماري وأشرف على البناء، وحفر الحجارة ونسقها . أصبحت داراً جميلة بحجارة مميزة عن القرية والمنطقة معاً.

عاوده الصوت، أو الملاك... لا يعرف ماهيته:

- ابق هنا ... وادع الناس إلى الخير، أرشدهم إلى الطريق القويم.

فكانت الخيرة فيما اختاره الله.. فتح كتّاباً لتعليم القراءة والكتابة ولحفظ القرآن والأشعار، فأصبح لقبه الشيخ الخطيب، ووفد إليه طلاب من القرى المجاورة والبعيدة.

انتهى بناء البيت، انتقل الشيخ إليه ومعه طبق القش، وبعض القطع الذهبية، عندما رأى الشيخ الطبق، ابتسم:

- رغم ما حدث معي في هذه الرحلة العجيبة لم يتأذ، ولم يصب بخدش.

جمع أهل القرية الصوف، وشدوا له الفرش واللحف والوسائد، وصنعوا له اللبابيد الصوفية المزركشة على أنغام الناي والأرغول؛ وقد أمّ البيت الجديد أناس كثر من القرى المجاورة، وكل يحمل هدية لبيت الشيخ، وزكاة نقدية، وأصرّ أحدهم أن يصنع له لباداً بيده منقوشاً على ذوقه، رجل مشهور بهذه الصناعة، وقد قدم حاملاً معه خشبة الندف وحاك له لباداً على أنغام حزينة، وفرحة تتفق وحركة قدمين خفيفتين ورشيقتين، وألوان اللباد الجميلة، والتي بقيت لزمن مدار حديث الناس وقد أخذها الرجل من ألوان، ورسومات طبق القش المعلق في صدر" الصيوان" كما أسماه الشيخ.

وأهدي الشيخ سجادة قال عنها صاحبها:

- أنها قديمة قدم دهور وأزمان غابرة، وهي من بلاد فارس ورثها عن جد جده، ولم تمد بأرضٍ. جاءه رسول في المنام، وقال له:

- اعد الأمانة إلى صاحبها

وأضاف الرجل:

- رأيت حرف الألف فوق قطعة قماش بيضاء، وسرت إلى شيخ جليل.. ليفسر لي المنام، وعندما حكيت له رؤيتي قال:

- السجادة للشيخ ابراهيم المهاجر. وهكذا حملتها إليك.

مد السجادة واللباد الجميل في الصيوان، وما تبقى من اللبابيد في الغرفة الكبيرة الثانية. لفت انتباه الرجل، النوافذ الكبيرة، وسأله عن السبب

- لا أدري المعماري قرر ذلك، وأنا لم أتدخل... ولكني أستطيع رؤية نور ربي بشكل أفضل.

طيّنَ سطح البيت، ومسّده "بالمعرجلينة".

لم ينسَ الناس إهداءه قدور النحاس الكبيرة والصغيرة وكذلك الفخار وخوابي زيت، وعرق ودّن عسل، وزبدة "وشكليش "وكشك وكلها نذور حاول أهلها إيفاءها بقدوم الشيخ الجليل القدر.

أمضى فترة من الزمن، يستقبل الوفود المحملة بالهدايا، زيت، عرق، تين يابس، سمنة، امتلأ البيت مؤونة وأثاثاً فاخراً، وأصبح يضاهي بيوت بكوات المنطقة، وقد اعترض أكثر من مرة على الهدايا الغالية الثمن، لكن الجميع أصرّ أن بيته يجب أن يكون قبلة للناس الفقراء والأغنياء، ورده لم يلاق قبولاً، فقد أكد لهم أنه يحب البيوت البسيطة، أبى الناس وألحوا على أثاث يليق به.أكره على الصمت، وقبول الحياة الجديدة - والخيرة فيما اختاره الله.

كان طوال الوقت يسمع الصوت - هنا مستقرك، البيت قرب القبة، قبتك في سفح الجبل وعليك البقاء بجوارها، تحرسها وتدفن ثانية بها.

الأشجار كبرت وأثمرت بسرعة، وكانت من علاماته.

قرر أهل القرية تغيير اسم قريتهم من قرية الربيع إلى قرية التشريفة، تشريفة الشيخ ابراهيم المهاجر. أهدوه الأراضي الزراعية الواسعة، زرعوها واعتنوا بها، والموسم أعطوه له، ليس هذا فحسب، وإنما كانت تأتي إليه امرأة كبيرة في السن تخدمه وتخدم ضيوفه وطلابه، وفي الليل تنطلق عائدة إلى بيتها.

كل صباح يفيق الشيخ يصعد السطح، يذكر ربه مع انبلاج الفجر، ثم ينزل إلى الصيوان ينظر ويتأمل طبق القش المعلق في صدر الصيوان، ثم يحول بصره إلى الشبابيك الكبيرة والواسعة، يحدق بالحجارة التي ضفرت مع بعضها البعض في زوايا النوافذ لتعطي أشكالاً جميلة، لكن جمالها لم يكن يضاهي قط جمال طبق القش... وكان يتساءل عن سر طبق القش. ولم يجد إجابة

لديه.

وفي يوم من ذات الأيام وبينما الشيخ يذكر ربه وقت الغروب؛ وقعت قصاصة ورق في حجره، عليها اسم الشيخ كامل الذي التقاه في رحلته الطويلة، ودعا على حماره بالقتل؛ كتب عليها:

- تفضل لعندنا، وفيها اسم القرية.

ركب الشيخ فرسه الذي ابتاعه بعد مجيئه إلى القرية، فرس محجلة أصيلة وتوجه إلى قرية الشيخ كامل، المعروفة باسم جرجرة، وعندما وصل ألقى السلام على الشيخ، وأهل بيته، رد الشيخ كامل التحية، وسأله:

- لماذا تأخرت؟

- الورقة وصلتني قبل ثلاث ساعات فقط..

استغرب الشيخ كامل ونادى ابنه الصغير وصرخ في وجهه:

- ألم تذهب إلى بيت الشيخ ابراهيم؟

- لا لم أذهب.

- كيف أوصلت الورقة؟.

- طيرتها في الهواء.. سامحني يا أبي، نسيت...

- كيف تنسى؟!

- لعبت مع الأولاد، بعد حين تذكرت الورقة، طيرتها على نية وصولها إلى الشيخ، الله يخليك لا تضربني.

نظر الشيخان إلى بعضهما البعض، ابتسما وباركا الصبي، أو الشيخ الصغير.

سأل الشيخ كامل:

- ما رأيك بما حدث؟

- ابنك سيكون له مستقبل ذو شأن.. مستقبل ديني و ربما دنيوي، إنها علامة من علامات هذا الطفل. اعتنِ به.

كان اللحم والبرغل في القدور النحاسية قد نضج، وأحضرت زوجة الشيخ

الطعام، اعتذر الشيخ كامل من الشيخ ابراهيم، فقد اضطر لدعوة شيخ آخر لذبح الدجاج إثر تأخره، ابتسم الشيخ:

- لا بأس هذا شيء عادي

توجه الشيخ كامل للشيخ ابراهيم:

- ستعلم الولد الدين.

- إنه صغير

- ألا ترى معي أنه يستحق التعليم الباكر

- صحيح

اجتمع شيوخ المنطقة، وأحضر الشيخ كامل العرق المثلث، شرب الصبي كأساً صغيراً، وهو ينظر يمنة ويسرة، رعشة تتسرب وتسري إلى بدنه ما لبثت الرعشة وتحولت إلى رجفان واصفرار في اللون.

انتهى الشيخ من تلاوة البسملة وبعض الآيات البينات، بدأ يعلمه ويطلب منه إعادة ما يقول، يعيد الصبي الكلمات دون أن يفهم شيئاً، فالخوف وصغر السن أثرا عليه، ورغم ذلك كان يكرر ويحفظ غيباً ما يقوله الشيخ بسرعة غريبة، الآيات الدعوات، البسملات الأدعية الرموز وكيفية فكها وما تعنيه.

جلس الصبي يتخيل حلقات الشيوخ، ذقونهم، كلماتهم، طريقة نطقهم، بعد انصراف الجميع،عدا الشيخ إبراهيم، تصورهم يتحلقون حوله من جديد، وفوق رؤوسهم الطرابيش والعمائم واللفات تتحرك، والقنابيز تتماوج ببطء مع الأدعية، يعيد ويكرر ما حفظه والرؤوس تهتز موافقة، ومعجبة بهذا الصبي المعجزة، والسماء تمطره ألعاباً من القماش هدية له وجزاء حفظه، قرقعت معدته الخاوية، تذكر أنه لم يأكل، وقدور الطعام ما تزال غافية فوق مواقد النار... رآها تسقط، وتبقى مليئة دون أن يندلق منها شيء، خرج من حضرة والده والشيخ ابراهيم، وإحساس غريب يتملكه.... تملك الأسرار التي قيلت أمامه، وحفظها... وليس لأحد معرفتها سواه.

بدأت علامات الكبر تظهر جلية، حركة يديه، قدميه، امتناعه عن اللعب

مع أبناء جيله، مواظبته على دروس الدين وحفظ القرآن والأشعار، زيارته الأسبوعية وأحيانا اليومية لشيخه وسيده تزوده بالعلم،الأدب والأخلاق ،وتفسير التفسير للقرآن، وتأويل التأويل في الدين، وحل غموض بعض الرموز.

عينا الطفل تبحثان في السماء عن سحاب الله، أمطاره، صوته في الرعد، ابتسامته في الريح. كان قد اكتسب عادة الحديث مع الأحجار، لعل واحدة منها تجيبه، تكلمه، فيكون ذلك من معجزاته، وعندما يعجز عن تحقيق ذلك يتوجه إلى التأمل، وتخيل ظلال الله، وهي تتبدى في السحاب، تفاجئه هجمات الريح، يسبّح كما يفعل شيخه، يحملق في الظلمة الحالكة، ويتسمر في مكانه، ويرتجف عندما تطلق الريح عنانها في السبل..يصل إلى أذنيه صوت زئير الذئاب، تتحلق حوله، تهجم عليه، يصرخ ويركض، والريح أمامه وخلفه، يسبقها وتسبقه، تضرب رأسه، وتذرف دموع الفزع عليه، وهو يتعثر بالحجارة، أو يرتطم رأسه بجذع شجرة، يركض والدم ينزف من رأسه ويديه وقدميه، وهو لا يحس بالألم.. أو الجروح، يركض فقط، يلمع البرق يرى نفسه مدمى، ممزق الثياب، يعود إلى رشده، ويسبح باسم الله ومعناه وذاته. يضاء ماحوله وكأنه نهار، ويتساقط البرد كحبات عنب بيضاء، يضع يديه فوق رأسه، ينزاح الخوف، يأتيه الأمان من السماء، وهي تضيء طريقه بالبرد والرعود، وتخصه بهما وحده.

يصل الصبي داره والدماء تنزف من يديه وقدميه، يدخل البيت ينظر الأب إليه فزعاً، ربما أخطأ بإدخاله الدين وهو في هذا السن المبكر:

- الحمد لله على سلامتك.

- كدت أموت يا والدي.

- أرأيتَ ضباعاً على الطريق؟.

- لا

- خفت عليك يابني، فقد تأخرت، سميّت لك، قرأت الفاتحة والأدعية، والشيوخ بانتظارك في الداخل، يرغبون في رؤيتك.

دخل الصبي إليهم، رأى العمائم والطرابيش تعجّ في فضاء البيت، والنار الملتهبة تضيء وجوههم أكثر من السرج الموضوعة في زوايا الغرفة الكبيرة.

انطفأت النار فجأة، فطلب من ابنه الذهاب إلى أمه، وجلب جمر من الموقد في الغرفة الثانية، سأله الصبي وبطفولة:

- كيف أحملها؟

- بحجرك.

ذهب الولد المدعو سليمان إلى أمه وطلب منها الجمر، تطلعت إلى ولدها الذي كبر فجأة وفقد طفولته، وبماذا أضعه؟ ابتسم سليمان وقال:

- في حجري.

اندهشت الأم من جواب ولدها، ولكنه فتح قميصه الطويل، ووضع الجمر بها، صرخت الأم، لم يرد وعاد إلى والده، فتح حجره ورمى الجمر في الموقد، فاشتعلت والتهبت بسرعة غير عادية. استغرب الأب والشيوخ من اشتعال النار، وجهوا أبصارهم إلى الصبي الذي نفض "جلابيته" من سواد النار..

- مجنون؟!

- أنت قلت ضع النار في حجرك.

صرخ به: تعال إلى هنا، تفقد الأب الثوب لم يكن به حرق أو شيء يدل على وجود جمر سوى بقع من السواد، فقام الشيوخ جميعاً، وقبلوا الصبي الصغير، واعتبروها علامة ثانية من علامات قدسيته، ودعوا له بالحياة الرغيدة والذرية الصالحة، أحس الأب أن ابنه مذعور من طريقة تعامل الشيوخ معه، بادر بسؤاله:

- كيف حال عمك الشيخ ابراهيم؟.

- بخير يقرئك السلام.

- اسمعنا قصيدة.

أنشد الصبي قصيدة لمكزون السنجاري بصوته الشجي والجميل، وبعد أن غناها، قال لأبيه:

- أبي، لقد أرسل عمي رسالة لك.
فتح الشيخ كامل الرسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أخي في الدين
ينتظر ولدنا مستقبل كبير، لديه فطنة من الله عز وجل، لم أر حتى الآن رجلاً أو شاباً مثله، لديه ذاكرة قوية جداً هبة من الله منحها لابنك، وكذلك الذكاء، والبداهة، والفطنة، انتبه إليه، أرشده وعلمه، وأنا من جهتي سأفعل ذلك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته
الشيخ ابراهيم المهاجر

نطقت عينا الشيخ كامل بالفرح، وهو يتلو الرسالة على الحضور، الشيخ المهاجر زكى ابنه، وهو الذي لا يزكي أحداً إذا لم يكن يستحق ذلك، رد الجميع:
- الله يبارك لك في هذا الولد.
- سأرسلك لقضاء الصيف عند عمك.
توافد الناس إلى بيت الشيخ كامل، بعضهم أتى من أجل الطعام، وبحجة أنهم يريدون التبرك بابنه وبه، و بكؤوس العرق وبعض اللحم.القرية يضرب فيها الجوع.
قال الولد بعد انصراف الجميع:
- يا أبي الناس يأكلون عندك، وعندما يخرجون من هنا، يتحدثون ويعلقون عليك تعليقات سيئة وأنت تعرف هذا، لماذا تستقبلهم ؟.
- اسمع يا ولدي هذه ضرورة، ونحن بحاجة للناس يقدمون الأضحيات،

والزكاة والنذر، وعليك أن تفهم، النميمة جزء من طبائع البشر، تتساهل معهم كي تصبح شيخ المنطقة، وتبقي على احترامك.

- كل يوم تأتي وشاية عن ضيوفك وطريقة كلامهم عنك.

- يا ولدي عليك التأني، ونحن نطعمهم من كيسهم، فلولاهم ليس لدينا شيء والجوع كافر يا بني، والكرم خصلة حميدة، والناس يحبونها ،كن كريماً... المهم ألاّ يجرؤ أحدهم على الكلام في وجهك إلاّ بالمديح. كي نبقى شيوخا لابد أن نفتح بيوتنا، ونشعل نارنا، ويأكل عندنا الناس... انظر من يزرع أرضي وأرض سيدك، هم، من يحصد القمح، ويقطف الزيتون وغير ذلك،هم، طبائع البشر هكذا. اسمع يابني من يخطئ يخطئ بحق نفسه وليس بحقنا، وعلينا تحمل بعض الأذى مقابل ما نحصل عليه منهم، ورق التوت وموسم الحرير يهبوننا منه أليس كذلك! وأيضاً تأتينا حصتنا من مواسم الحنطة والزيتون فهمت !!والآن قل لي ما هي أخبار سيدك؟.

- بخير عنده ثلاث عنزات، تحلبهم امرأة عجوز، يوزع الحليب على الفقراء، وقد استصلح شباب القرية أراضي كثيرة له، وزرعوها تيناً وعنباً وزيتوناً، زكوه امرأة، زوجة، رفض، أعطى أهلها قمحاً وزيتاً ليؤودوا بطونهم.

- زكوه المرأة لأنهم لا يستطيعون إطعامها.

- بلى، ولذا رفض عمي.

- وماذا أيضاً؟

- لاشيء لكني أحس باله مشغول وقلق دائماً، سألته أكثر من مرة عما يشغل باله لم يجبني، عندما أذهب المرة القادمة سأعرف.

- هل بدأت تتعلم النحو والقواعد؟

- نعم وصل إلى عمي كتاب قواعد من الجبال المجاورة، ألفه رجل اسمه الشرتوني.

- الشرتوني اسم الكتاب أم صاحبه؟.

- اسم صاحب الكتاب، وهو بأربعة أجزاء، وقد بدأ بتدريسي حسب

تسلسل الأجزاء والدروس، وأعطاني أيضاً كيفية حساب الأشهر القمرية والسنوات العربية.

- هذا حسن.

- سمعت خبراً من قرية عمي، أن القرى المجاورة هجرها سكانها، ركبوا بوابير البحر، ورحلوا من الفقر والجوع، رهنوا أو باعوا أرضهم وهربوا.

- وهنا أيضا يا ولدي رحل مجموعة من الناس

والحقيقة كل من استطاع دفع المناولة

-المناولة؟

ثمن بطاقة السفر. كما قلت يا ولدي الفقر، والظلم، والجوع، والخوف أكره الناس، أجبرهم على البيع، ورهن أراضيهم من أجل السفر، والبحث عن حظ أوفر وأفضل، الناس لم تعد تجد الحشائش والفطر والخبيزة والدردار لتأكله بعد هذا الجدب.

-قالوا أن المخاتير والبكوات سلبوهم كل ما تبقى من غلالهم عنوة وغصباً لم يبق لديهم أمل سوى الهجرة، والله أعلم إذا كانوا سيوفقون أم لا؟. قد يموتون في البحر، أومن الجوع، أو الغربة تلك بلاد لا نعرف عنها شيئاً، والناس تظن الذهب والفضة مرمية... وتنتظر من يأخذها... إنه الهروب والآمال..قد تكون آمال خادعة، ليس من خيار أمامهم.

- أبي لماذا لا يمتنعون عن دفع ما يطلبه البكوات وغيرهم؟.

- لا يستطيعون يا ولدي فالجلد والسجن، والشتائم تنتظر كل من يقول لهم لا. البكوات قليلو ذمة ودين وإيمان وسفهاء.

- ولماذا لا تطلب منهم التسامح مع الفلاحين في هذه الأعوام الجدباء؟.

- لن يردوا... وقد يرتدون علينا. منهم السفهاء... هناك قول احفظه احفظه يا ولدي، داروا سفهاءكم... وإلاّ يصيبنا أيضاً الجلد.

- وهل يجرؤون؟.

- يجرؤون ومن يمنعهم؟.

- الناس.

- يخافونهم يابني.

جاءهم صوت حزين، يغني الأوف..

- أيامنا تشبه هذه الأوف الحزينة كحالنا وحال هذه المنطقة، والأ قضية.

ـ ذهبت إلى الأقضية تلك، أو المدن؟

- لا يا ولدي، هناك الخوف من الذبح وإهدار الكرامة، إنهم لا يتوانون عن ضربنا والسخرية منا، أينما رحلنا.. ألا ترى يابني أننا نتهرب جميعنا من الذهاب إلى المراكز الحكومية والسرايا، إنها عقوبة لكل منا.. أما أنت يا ولدي عليك تحمل ذلك من أجل العلم، وأنت جدير به، والله سبحانه لحكمة عنده لم يسلم لي سوى أربعة، رزقني سبحانه اثني عشر ولداً وبنتاً، الريح الصفراء والمرض أخذهم جميعاً مع ما أُخذ من بقية البشر، وأنت أكبر أبنائي عليك التعلم.

- أبي أين تلميذك الذي كان يخدمنا؟...

- ذهب مع من ذهب إلى السهول من أجل موسم الحصاد ربما يوفقه الله، ويجمع بعض المال ليستعيد أرضه المرهونة.

- وهل نزل إلى الباشا ؟..

- أي باشا؟.

- سعد

- سمعت بهذا الباشا من قبل، قيل أنه نزل إلى المدينة.

- واعتنق دينهم والقيامة قامت في المنطقة لهذه الردة

- لماذا فعل ذلك؟

- من أجل جمع الأموال والتجارة والمركز بابني، وسمعت أنه في زمن قصير أصبح معروفاً، وامتلك أراضي مروية وخصبة قريبة من النهر الكبير، وهناك الكثير يحصدون عنده، وقد تزوج ابنة عائلة كبيرة من تلك المدينة.

- والشيخ العلامة يقال.إنه أيضا غير دينه.

- اسمع يابني العلامة علي غير دينه ظاهرياً، وكان مضطراً، فقد تعرضت عائلته للذبح، ولم يكن أمامه طريق آخر، أما الحقيقة فهو منا ونحن منه ، وإياك وأن تذكر اسمه بسوء سمعت..إذا نزلت إلى المدينة يوماً ، إياك والبوح!!لقد تعرضه للموت، والشيخ يعرف ما يفعله، بينما الباشا ذهب وهو لا يعرف الحلال من الحرام، وما يهمه جمع المال وإكثار العاملين تحت يده وظُلمهم، وقد كان خيّالاً لا يشق له غبار، قوياً جداً، جر ثورين معاً، يكفي هذا. نم يا ولدي لدينا زيارات كثيرة، العيد اقترب - عيد نصف شعبان.. وهذه ورقة بأسماء الناس الذين دعونا إلى الذبح، وحضور العيد في منازلهم.

-كيف نقلتني إلى هذا الصبي، وأين جدك في الحكاية؟.

- جدي هنا وهناك وفي كل مكان كان يتساءل:

يا الله لماذا أنا قلق هكذا؟ دعوتني إلى الرحيل، رحلت، قلت هذه القرية مستقرك، فاستقريت، وها أنا أعلّم الأولاد، يا الله... أرشدني إلى الصواب... وأرح نفسي، تعبت. كان يدعو وعيناه لا تفارقان طبق القش والمنديل الحريري. خيال امرأة!! طيف يزوره يهرب، وينشد الأشعار، وينتقل إلى الأدعية... يد تمتد نحوه، صوت يناجيه، أحس بحرارة جسده، قام إلى الدار، وغسل يديه ووجهه

يارب العالمين، وأنت أعلم بحالي، أهرب من طيفها، وهي تلاحقني، يا الله خلقت النساء فتنة وغواية لنا، تدبر أمري يارب العالمين، وخلقتهنّ أيضا من أجل الذرية!!.... أعنّي على نفسي، أرشدني واعصمني من إغواء الشيطان الرجيم، يا الله وأنت القدير، العليم، الخبير.

- ارحل.. يا شيخ..

- وكيف أرحل، وواجباتي الدينية؟ العيد قادم وأنا لا أستطيع الذهاب قبل الإيفاء بالمواعيد.

أجّلَ الشيخ رحيله بضعة أيام، أمضاها من بيت إلى آخر، ومن دعوة إلى دعوة، ينسى الطيف في النهار، يلاحقه في الليل رغم محاولاته الهروب من

وجهها وخصرها وصدرها، يتعوذ من الشيطان، يغسل وجهه يغني، ويغني، يصمت قليلاً يداهمه طيفها.

حزم أمره وقرر الرحيل إلى بيت اسماعيل، انتظر المرأة العجوز حتى قدمت، أعطاها الحليب لتوزعه كالعادة، وطلب منها تفقد البيت بغيابه، الأثاث والشجر إلى حين عودته.

حمل زوادته ووضعها في خرج الفرس المحجلة، ويمم وجهه صوب بيت اسماعيل، الطريق يعرفه جيداً وهذه الرحلة لن يبتعد فيها عن الناس، وحميرهم ومواشيهم، ولن يهرب من الباعة المتجولين وسمرتهم الداكنة، سيحاول فهم لهجتهم الغريبة، دخل إلى مغارة قريبة، وجد امرأة تعرض نفسها عليه مقابل الدخان، استغرب الشيخ من هذه المرأة الغريبة التي تدخن، وتقايض عرضها بالتبغ!.

- لا أدخن...

تطلع بغضب إليها، الله يلعن النساء وساعتهن. الله على حق في جعلهم مرتبة أدنى من الرجال ولا يسلمهن سر.. فهذه المرأة مستعدة لبيع كل شيء من أجل الدخان، ناقصات عقل ودين، وأردف:

- وتعطين عرضك مقابل (التتن)؟.

نظرت نحوه نظرات غريبة وساخرة، أدارت برأسها، وأشرت بفمها إشارات غير مفهومة، ومع ذلك أحست بإهانة إذ طلبت دخاناً منه، تجاهلَ طلبها فثارت كرامتها فجأة:

- وما دخلك أنت؟

- خاف الله يا امرأة.

– وهل يخاف الله من سلَبك كل شيء، عرضك وأهلك وزوجك وكل أحبتك، ويبقى سالماً غانماً، والموبقات تحيط به من كل جانب. أين العدل؟.... أو أن العدل ومخافة الله لنا نحن الفقراء والمساكين..

– وتصل بك حد بيع نفسك؟

- أبيع نفسي أفضل ألف مرة، وأشرف من أن أُباع من قبل غيري.

نهضت المرأة ومشت إلى باب المغارة، عيناها عالقتان عليه، ومليئتان بالدمع والحزن... وهذا ما أذهل الشيخ.. الذي بقي قابعاً في مكانه، يفكر في هذه المرأة الغريبة.

عادت إليه بعد قليل:

ـ اسمع تمنيت أن أبقى معك لأنك لم تلمسني، أو تقترب مني، ولكن معرفتي بضعف الرجال منعتني من البقاء معك... مثلك لا يقربني، أو يرافقني... ويعتبرني امرأة خاطئة فيهرب من وجهي، ولذلك أقول لك... ورغم أنك لن توافقني الرأي في السير برفقتك، وإذا سمحت سأفعل وأرمي كل شيء.

أطرق الشيخ في الأرض هرباً من وجهها، وحاول أن يغلق أذنيه، كي لا يسمع صوتها الحاد ذا مسحة الحزن والوقاحة في نفس الوقت.

ـ اذهبي من هنا يا امرأة، والله أعلم بخلقه.

جلس في المغارة زمناً، ثم خرج وتابع سيره داهمه المساء، رأى وجه المرأة من جديد هل تبعته؟ أم يتخيلها؟ امرأة داكنة السمرة،عيونها متوحشة تصعق وتصفع الرجال، قامتها كحد السيف، فتح عينيه، نظر حوله... لا لم تتبعه... ذهبت في حال سبيلها. تطلع إلى الأفق ،أفق مزدان بالذهب، امرأة جميلة وشفافة. داهمه النعاس، نام وحلم بامرأة بين يديه، تداعب وجنتيه وجسده، أحس برطوبة ولزوجة، أفاق، اللعنة، لن يستطيع تبخير المزارات الليلة، ولابد من البحث عن نبع ماء ليغتسل ويطهر جسده من الرجاسة والنجاسة. اللعنة على النساء وساعتهن، إنهن شيطانات!! إنهن شيطانات!!.

انتظر حتى الفجر، مشى إلى أن وجد نبع ماء، خلع ثيابه وغسل جسده، والبقع العالقة على السروال، ارتدى قمبازه بين أشجار البلوط، ونشر سرواله ووضع فوقه الحجارة، كي لا يطيره الهواء.

قعد الشيخ يترقب نجوم السماء، تذكر سن المرأة المذهب و لونها يشبه هذا الليل، وسنها نجومه ابتسم:

- ظننت أني لم أرها .. اللعنة،حفظت ملامحها...

أحس بالضيق رغم فسحة المكان، والأزاهير التي تعبق وتحيط به وتلف جسده شبه العاري كلما هبت نسمات الهواء رفعت القمباز وشرّعته نحو الغرب، أخذ نفساً عميقاً، أحس بدوار في رأسه، قام غسل وجهه، تذكر أن معدته خاوية، ففتح زوادته، لم يأكل منذ خروجه من البيت، وظن أن الجوع سبب ضيقه ودواره، تناول لقيمات من الشنكليش والزبدة، غصّ، شرب ماءً، وعاود الأكل دون شهية، نسمات باردة لسعت جسده، شعر بالانتعاش أول الأمر ما لبث وتحول جسده إلى كتلة باردة... انكمش جلده وجسده، تقوقع على نفسه، عاوده الدوار. أتى بالفروة من الخرج لبسها، وبقي إحساسه بالبرد والدوار. استغرب من حالته، حاول الهروب بإنشاد القصائد الصوفية لم تسعفه، أوتعينه ذاكرته في إتمام بيت واحد. انتقل إلى أبي فراس الحمداني، وغزلياته..

بلى أنا مشتـــاق وعندي لوعــة ولكن مثــلي لا يـذاع له ســر
إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى وأذللت دمعاً من خلائقة الكبر

وانتقل إلى بيت شعر لمكزون السنجاري:

شربت من الحمي ما سقتني بكاسات المحي ذات حسن

يارب أنا عاشق، الهوى لفحني، اغفر لي، أنا بشر ولست إلهاً، أو ملاكاً، أو نقيباً، ولم أصبح سائحاً، سبحانك أنت غفور رحيم.

يارب ساعدني، أهرب إليك، أعني... أنت أعلم بحالي... وكم حاولت،و أحاول تجنب طيف النساء والتفكير بهن، ولكن جسدي فقد قدرته ،استطاعته، لم يعد يطاوعني، ساعدني عليه، يهرب مني ليلاً، ويحلم أحلاماً شيطانية، جسديه،حسية، وأنت عليم ،حليم، قدير. يالله أعني عليه وهدئ الرغبات الشيطانية، يارب...

نظرت الصبية إلى زميلها الحفيد المهاجر هو الآخر:

ـ جدك غريب جداً!!..

ـ ورجل قوي الشكيمة وقادر..

ـ وشاعر

ـ بلى

ـ ألهذا أصبحت شاعراً؟...

ـ ربما ورثت الموهبة منه

ـ قلتَ أخوك أسمر اللون داكن. ابتسمت الصبية وهي تنظر إلى زميلها، تستفزه وتستنفره بسؤالها:

ـ هل رغبة جدك في تلك المرأة أنجبت لكم ولداً يشبهها؟!

زورها طويلاً، واكتست ملامحه القسوة، والصرامة.

ـ اسمعي سمرة اللون أتت من أحد أجدادي المصريين، حمل الرسالة.. رسالة من مصر وأتى بها إلى الجبال، ومعه مجموعة من الأتباع إثر نزاعات الدولة الفاطمية وصراعها على الدعاة والزعامة ، فاستدعى ذلك التوجس والخوف من القتل النزاعي ففر البعض إلى الجبل، واستوطن المنطقة مع إخوتهم وشركائهم في الخوف ، ولهذا جاء أخي داكناً وبعض أقربائنا .. وربما كان لدينا جداً كردياً، فارسياً، أو عراقياً، حمداني الجذر، وفينيقي الأرومة، لا تعودي إلى هذا الكلام

ـ أمازحك

ـ لا تمزحي بأصولي وإلا قاطعتك

تنفست الصبية ،وقالت متذمرة:

ـ لم أقصد استفزازك...عفواً.. اكمل

ـ كان جدي يتأمل القمر من جديد وهو بدر.

صوت جده يغرقه في الغياب، تحضر الصورة:

ـ يارب خلقته شبيهاً بك، بعض من نورك، صورتك، وكذلك خلقت

الشمس من بعض نورك.يارب هبني بصيصاً منه. يارب العباد بحق هذا النور، أعني على نفسي...سمع أصوات أولاد آوى تقترب منه، سمّى وربط عقاله، توقفت الأصوات القريبة، وابتعدت، وهي تجري، كان يسمع صوت ركضها ... الحرش أمامه وستعود إليه، وقد تجده ضبعة جائعة تائهة، توجس قليلاً، لربما هاجمته ضبعة...

- "قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا"، لا خوف علي، إذا كان لدي عمر سأعيشه.

وقف يتأمل الجبال الوعرة ويكلمها

- أيتها الجبال، والصخور أنت حميتنا من الغزاة والطامعين وهادري دمائنا؛ أنت صنت أعراضنا- بفضل من الله عز وجل... وهو سبحانه لن يخذلني وأنا عبده المطيع، ولن يسمح بإيذائي قط.

تمدد، خيالات جنيات تلاحقه، ابتسم:

يقولون الجان تسكن قرب الماء، تسرق أشياء الإنس من لباس وطعام وأحذية وتفر، لا يستطيع اللحاق بها أحد، إلا من تريد إغواءه، فتقضي عليه..إذا ذُكر القرآن يهربون، ويتوارون عن الأنظار، يختفون في تراب الأرض!! أو في قطرات الماء!! أو في حفيف الشجر، أو تحت الأحجار والصخور!!!. الجان مخلوقات ليلية، لا يخافون الليل، بل يخشون النهار، لو كانوا أخياراً لما خافوا منه؟... وربما هم عبدة الظلام وليس النور وهذا ممكن!! أين الجان؟ كيف يلحقون البشر أو البشر يلاحقونهم، كي يرونهم؟... وهل يشبهوننا؟ ألهم أيد مثلنا؟ تمتد وتسرق الأغراض!!.. كيف يتم ذلك؟! وأي الأمكنة يفضلونها؟.. وحقاً هم موجودون؟. القرآن ذكرهم ،لكن التأويل مغاير وكذلك التفسير. سمعتُ زوجة المختار تقص حكاية اختفاء فستان عرسها من الصندوق المقفول، بحثت عنه طوال النهار والليل ،أكدت أنها فتشت الصندوق قطعة قطعة ولم تجده، وفي اليوم التالي كان الثوب في المكان الذي وضعته فيه، والأغرب أنه كان محروقاً برماد الدخان، وهي لا تدخن أبداً. وما أدراها أن

فستانها سرق؟ وهي لم تلبسه، أو لم تكن تبحث في الصندوق!!. قيل أن رجلاً رأى الجنية ليلاً، ومعها ثوب زوجة المختار، حضر إليهم وأخبرهم بما رآه، ساعتئذ فتشت زوجة المختار عن الثوب ولم تجده، وفي اليوم التالي أتى الرجل ثانية، واستفسر عن علامة في الثوب وإن كان فيه حرق! فأكدت زوجة المختار له ـ الثوب لم ألبسه، أو ألمسه منذ ليلة عرسي.

وعندما أعادت البحث وجدت الثوب، وبه حرق، فاتُهم الرجل بأنه يصاحب الجنية، وهو من سرق فستان المرأة لها .

تساءل الشيخ:

ـ أيمكن للجان السرقة والإغواء؟ ربما كانت المرأة التي شاهدتها في المغارة جنية، نوريّه، راودتني عن نفسها فأبيت، وهربت بعد ذلك... ولعلها محاولة إغواء، أو سرقة شيء ما مني..

فتش جيوبه تفقدها،الجزدان، الساعة،المنديل، كما وضعهم، لم ينقص شيء منهم:

الجن من صنع خيالنا، لا إنهم مذكورون في القرآن مخلوقات خفية مستورة. يبدو أن الإنسان يسرق ويهرب وعندما يريد الاختباء والتواري، يتوارى خلف الجن، لماذا لا يظهرون إلاّ في الليل؟!!. الليل غطاء السارقين، والعاشقين. الناس يهربون إلى الجان، ويقولون بأنهم يشبهون فلاناً وفلانة، وهكذا يتخلصون من الورطات الاجتماعية؛ وقد يكون من الجن مؤمنون ومؤمنات جميلات. هناك أناس "يخاوون" الجن. الجان غير الصالحين؟ لم يسمع بإنسان صالح ظهر أو ظهرت عليه جنيه ،وماذا يعني ذلك؟!عدا النبي سليمان، هو من اختص بتكليمهم ورؤيتهم، الله سبحانه وتعالى نصبه ملكاً على الإنس والجان معاً. وكان يكلم الطيور والحيوانات.هو نبي، وهذه إحدى براهينه وعلامات نبوته أمام الكافرين، والضالين.

سمع ذات مرة عن قوم خلف البحار لا يؤمنون بالجان، ولم يسمعوا بهم، وفسروا الجان بأشكال، أو أشباح غير موجودة، أوحى بها سراب الصحراء

ورمالها، والخوف وحده رسمها وابتدعها .والمرأة التي التقاها في المغارة، أهي جنية أم إنسية؟... الله أعلم. الجن لا يظهرون على المؤمنين وأنا مؤمن وأخاف الله.

غفا الشيخ فرأى مناماً غريباً، عرس، دبكة، طبل، زمر، نساء غريبات الأشكال يرقصن (بالمحارم)، والمناديل، يسكرن يعربدن، يدعينه إلى المغارة وهو يركض أمامهن يختبئ خلف الصخور، يدخل إلى المغارة يرى امرأة بديعة الجمال، تقول له:

- أنا ملكة الجان و أرغبك زوجاً...

تتعرى وتحاول إغراءه، يركض ويركض، يصل إلى باب المغارة... يخرج، يرى الجنيات يحطن به، يبسمل، يقرأ الآيات، تنفتح طاقة للهروب. أفاق من نومه وكابوسه، استغفر ربه، كان الفجر يتهيأ للطلوع، خيوط الفضة تلتمع في السماء، انكمش جلده هي قرصة برد، وجع في بطنه وأمعائه. ذهب للتبرز حاملاً أوراق الشجر لينظف شرجه.غسل يديه ووجهه، أطعم فرسه، ثم أكل بعض اللقيمات من الشنكليش. ركب الفرس، ورحل إلى قرية اسماعيل مسرعاً، لما وصلها... توجه إلى المنزول، تذكر المرأة العجوز، أأعود أدراجي إليها أم أتابع وأقضي حاجتي، ثم أزورها، واطمئن على ابنتها؟. حزم أمره وتوجه إلى "نزل" البيك اسماعيل، استقبله خادم النزل ونادى سيده من البيت فجاء اسماعيل على عجل صائحاً:

- أهلاً يا شيخنا شرفتنا

- أهلاً بك

قبّل اسماعيل يد الشيخ وتعانقا، سأله البيك:

- تأخرت علينا

- وهاأنا قد أتيت

- حللت أهلاً

- جئت إليك في حاجة.

ـ أقضيها لك إذا استطعت بإذن الله، تفضل..وقل ما تريد .

ـ أنا خجل منك... لابد من الكلام..

ـ تكلم ما تشاء يا شيخنا

ـ عندك ابنة شابة

ـ صحيح

ـ أهي مخطوبة؟

ـ لا

ـ جئتك طالباً وراغباً بالتقرب منك...

صمت الشيخ تصبب العرق من جبينه ،تنهد ،استجمع قواه..

ـ أتمنى مصاهرتك...و...

ـ على الرحب والسعة

ـ ما شروطك يا اسماعيل

ـ مهرها

ـ ماذا تطلب؟

ـ ما يليق بابنة البيك اسماعيل والشيخ إبراهيم، ناطور ذهب صافٍ (كردان)، أسوارة الأرباع ذهب، حلق كل فردة عصملية ونصف من الذهب الصافي... فأنت يا شيخ تعرف من أنا؟ وإذا لم أطلب مهراً يليق بابنتي... سيتقول الناس، وإلاّ لكنت أهديتك ابنتي، هو الخوف من كلام الناس، وأنت تعرفه، سأشدّ لها فراشين من الصوف ولحافين ووسائد ..

ـ اتفقنا ... أمهلني... لأمهرها ... وسأعود بعد حين.

ـ أهلاً بك، اتفقنا .

ـ نقرأ الفاتحة.

ـ نقرأها .

فكر الشيخ قليلاً لربما عند اسماعيل أكثر من فتاة، وقد تكون واحدة منهن بشعة، ويريد تزويجها لي، أما الفتاة الجميلة التي رأيتها قد تكون

تزوجت!!

خرج من منزل اسماعيل رافقه الخادم إلى الباب، سأله الشيخ عن أوضاعه وحياته... ثم سأله عن أولاد اسماعيل

- عنده ابنتان، واحدة صبية والثانية صغيرة، وولدان اثنان، أولاده سبحان الخلاّق لما خلق كالنقاط في المصحف يا شيخنا.

ودعّه الشيخ، واطمأن على زواجه الميمون ورحل ليتدبر مهر الصبية الحسناء زينة، وهي زينة فعلاً. لديه من المهر ثلاث قطع ذهبية، فكر في الأمر ملياً ووجد من المناسب الذهاب إلى الشيخ كامل ومشاورته في الأمر.

نسي زيارة العجوز والاطمئنان عليها وعلى ابنتها، فالمهر شغل باله وقرر زيارة بيت المختار اللعين والبخيل ليعرف أحواله، وإن كان مازال فاسداً وظالماً أم تغير بعد عقابه من الله عز وجل؟. يمم وجهه إلى بيت المختار في القرية المجاورة وعند وصوله صاح بأعلى صوته:

- يا مختار يا مختار.

خرج أجيره كالعادة واستقبل الشيخ ودعاه إلى الدخول، دخل الشيخ قام المختار وقبّل يديه، والشيخ يراقب وجه وعيون المختار... التي أحست بنظرات الشيخ، ارتجف وفقد جرأته دفعة واحدة، حالة خوف انتابته وأرجعته إلى يوم استقباله للشيخ والعجز الذي أصابه حينذاك، تمالك نفسه قليلاً، ورحب بالشيخ الذي بادر إلى سؤاله عن رقبته وكأنه يريد تذكيره بما مضى... تحسس المختار رقبته حرّكها...

- بفضل دعائك يا سيدنا تحسنت، والآن تفضل لتناول الطعام، فقد نذرت عجلاً، أذبحه عند ما تزورني، وها أنت هنا... هات سكينك وتعال إلى الدار

نادى المختار الأجير وطلب منه إحضار رجلين قويين ليمسكا العجل... وقف الشيخ والمختار ينتظران. قدم الرجلان، حاولا تثبيت العجل، أفلت من أيديهم ثار وهجم لينطحهما، فرا وانتظرا حتى هدأ، عاودا المحاولة ثانية،

وثالثة، ووقعا أكثر من مرة... تقدم الشيخ سمّى واقترب من العجل، أمسكه من قرونه ودفعه إلى الأرض، خرّ العجل أدركه وذبحه، أشعلت النار تحت القدور النحاسية الكبيرة، وفي المساء نضج الطعام، وزع المختار نصف العجل على القرية، استغرب أهل القرية ذلك، أو بالأحرى ذهلوا. المختار يوزع اللحم والبرغل؟!! لأول مرة يذوق الناس الطعام من بيت المختار... هذه من علامات القيامة!!. تناول الشيخ الطعام مع المختار ووجوه القرية ثم نهض المختار وزكاه ثلاثة قطع ذهبية... حلف عليه أن ينام في صيوانه ليتبرك به، قبل الشيخ الدعوة ونام إلى اليوم التالي. تناول فطوره وقام ليرحل، طلب المختار بقاءه ساعة أو ساعتين لأن زواراً يريدون رؤيته... وهذا ما حصل. قدم مخاتير من القرى المجاورة، زكاه الجميع القطع الذهبية فكانت زيارة موفقة، جمع جزءاً كبيراً من مهر زينة.

ودع الشيخ الجميع ورحل إلى قرية جرجرة، و كانت تبعد ساعتين عن بيت المختار؛ وصل إلى بيت الشيخ كامل تصافحا وقبّلا يدي بعضهما البعض، واطمأن كل منهما عن صحة الآخر، سأله الشيخ كامل عن سبب مجيئه في هذا الوقت.

- أبغي مشاورتك

- بم؟

- أنت تعرف أني رجل وحيد وزواري كثر، وأحتاج إلى من يخدمني ويخدمهم. الحالة والوضع تغير الآن عن قبل ،و...

احمر وجه الشيخ خجلاً...

- إذاً عزمت على الزواج

- بإذن الله، وخطبت

- من؟

- ابنة اسماعيل بيك. طلب مهرها غالياً لمكانته الاجتماعية، وبعون الله تدبرت المهر، وحلّ الأمر تقريباً، ولم يبق إلا جزء قليل منه

- كنت تزوجت فتاة دون مهر

- ولكن؟!

- الفتاة جميلة وأعجبتك؟!

- بلى، وأبوها على خلق

- المهم هي من عائلة معروفة ليسوا شيوخاً، ولكنهم أولاد عائلة، وكيف تدبرت المبلغ؟

- ذهبت إلى المختار الذي حدثتك عنه

- من هو؟

- المختار الأزعر الذي يبست رقبته

- آه تذكرت

- وماذا تحتاج الآن؟!!

- رأيك.

- على بركة الله

- وبعض المجيديات الذهبية، وحضورك معي.

أحضر له المجيديات، وزكاه بها.

- أنا لا أريدها زكاة و إنما دين

- لا فرق بيني وبينك وحينما أحتاج أذهب وآخذ منك حاجتي. فنحن أخوة.

دخل سليمان تلميذ الشيخ سلّم عليه وقبّل يده، تمعن الشيخ في وجه الصبي، كان يشب ويكبر بسرعة عجيبة، فلم يعد ذلك الصبي. انفرد به وأعطاه المزيد من تعاليم الدين... وأهداه نسخة من كتاب القواعد الشرتوني، نادى الشيخ ابراهيم الأب وجلسا معاً، سأله الشيخ كامل:

- ما رأيك في إرسال الصبي ليأخذ الشهادة؟

- أين؟

- في مدارس المسيحيين. يقولون لديهم رهبان وراهبات يعلمون الحساب،

والألسنة الغربية، والقراءة والكتابة. قيل أنهم درسوا وتعلموا علوم الحساب واللغات في بلاد بعيدة وراء البحار.

ـ وهل المدارس قريبة من هنا؟

ـ لا.. أستأجر له بيتاً وأوصي به أحد المعارف هناك.

ـ اسمع يا أخي، سأبعث كتاباً مع سليمان إلى راهب أعرفه، يشرح لنا كيفية التعليم والسكن والمصاريف، وغير ذلك... أنا تجولت في قرى النصارى والقرى المختلطة، طلبوا مني أكثر من مرة تعليم اللغة العربية والشعر. الآن سأوافق على تعليم أبنائهم، اللغة والشعر في الصيف مقابل تعليم ابننا سليمان.

ـ شكراً لك يا أخي.

ـ إنه ابني كما هو ابنك.

مد الشيخ كامل فراش الصوف، جلسا فوقه، وتبسطا في الحديث:

ـ غداً نذهب إلى مركز المنطقة ونشتري الذهب، مهر العروس

ـ وهل حددتم موعد العرس؟

ـ لا.. ما رأيك في الرابع من نيسان؟ فهو يوم فضيل

ـ هذا صحيح، ومبارك أيضاً.

ـ نتوجه غداً صباحاً إلى سوق المنطقة.

ـ هناك مشوار نذهبه أنا وأنت إلى بيك هذه المنطقة هو لا يخاف الله، ولكن يخاف منك، فقد نحتاج إلى بعض القطع الذهبية وسيزكيك فور سماعه باسمك.

ـ ألم ينجب حتى الآن؟

ـ لا... قصاصٌ وعقاب من عند الله على ظلمه وجشعه وافترائه. إنه يعاقبه.

ـ هناك أغوات وبكوات، أكثر ظلماً وينجبون...

ـ بيدك حق، يبدو أن قصاصه في الدنيا، أما البقية فقصاصهم بعد الموت بالمسخ وغيره.

في الصباح الباكر توجها إلى مركز المنطقة، اشتريا المهر المقرر ولم ينجوا من الضحكات والكلمات الساخرة والهازئة بملابسهما، وطريقة كلامهما، قدرا أنهما تحولا إلى سخرية رغم أنهما لم يفهما أغلب الكلام الذي يقال.توجها إلى البيك، وكان في بلدة قريبة من مركز المنطقة، دخلا الصيوان، فقدم لهما الخادم القهوة المرة، وجاءهم البيك راكباً فرساً جميلة... وهو فارسٌ رجّال. رحب بهما، ثم أحضر لهما ديكاً روميًا، وطلب من الشيخ ابراهيم ذبحه، ففعل وأجلسهما في صدر الصيوان، وقعد بينهما، وقص عليهم حكايته:

أخوتي و أولاد عمي يريدون وراثتي وأنا على قيد الحياة، لأنني لم أنجب أولاداً.

تدخل الشيخ كامل.

- سمعت أنكم قتلتم بعضكم بعض مع أنكم أخوة وأولاد عموم.

– الطمع يا شيخ، يحسدونني على وضعي، وأنت تعرف أني ممثل الحكومة في هذه الديرة، وأخذتها بالقوة وبالدفاع عن النفس والآخرين، وبكوات المدينة لا يعترفون إلا بي، ولقد شكاني إخوتي وأولاد عمومتي إلى الحكومة، واتهموني بشتمها، وكما تعرف تاريخي ملطخ بالسواد عندهم، صدقوا ذلك، ولولا تدخل وجهاء وبكوات المنطقة والمدينة، لكنت أضحيت إما قتيلاً أو سجيناً، خافوا من جمعي لقطاع الطرق من جديد، وشن الهجمات عليهم، فتعود القلاقل إلى المنطقة، وأشق عليهم عصا الطاعة، لذا قبلوا وساطة بكوات المدينة.. واعتبروني رجلهم، ومنذ ذلك الحين والصراع جار بيني وبين إخوتي وأولاد عمومتي.

- أعطهم مما أعطاك الله

- وزعت عليهم ورثة أهلي

- الخلاف على قطعة أرضٍ لأهلك

– لا يا شيخ يريدون محاصصتي في قرية أخذتها عنوة من بكوات المدينة،وأخرى هدية من السرايا...

صمت الشيخان..

ـ الحياة علمته قراءة الوجوه والبواطن، أدرك أنهما لم يصدقاه، وبخبث ونظرات ذئبية.سألهما :

ـ ما بالكما..؟

ـ لاشيء

ـ تتساءلان عن الدرك الذي أتيت به، وطردت أهلي من القرية؟

ـ صحيح

ـ أكرهت وأجبرت على ذلك، صدقوني

أحضر الخادم الطعام والشراب... صمت البيك قليلاً، ثم سأل الشيخ ابراهيم:

ـ هل تدخل يا شيخ وسيطاً بيننا؟.

ـ أنا لا أعرف عن خلافكم الكثير، ولذلك ابحث عن شيخ يعرف المنطقة والخلافات، يتدخل بينكم، ولعل الله يسعفه بحل مناسب يجنبكم التقاتل من أجل قطعة أرضٍ فتصطلحوا، وهنا بيت القصيد، وهذا الأفضل والأكرم لكم.

قال البيك لنفسه الشيخ لا يريد التدخل.. إذا زكيته قطعاً ذهبية يوافق، وبهذا الشكل تعود ملكية القرية كاملة لي بشهادة الشيخ ابراهيم المهاجر، ولن يراجعه أحداً بما قضاه.

ـ أهلاً بكما شرفتم... البيت بيتكم. أهلاً بكما ثانية، صاح البيك للخادم وغمز بعينه، خرج الخادم، وأتى بوعاء فارغ، وضعه أمام الشيخ ابراهيم أولاً، وأبريقاً بيده. غسل الشيخ ابراهيم يديه، ثم انتقل الخادم إلى الشيخ كامل وغسل هو الآخر، زكاهما البيك وطلب منهما الدعاء له بالإنجاب والخلفة الصالحة. ودعا البيك الشيخ المهاجر إلى التفكير من جديد بضرورة وأهمية تدخله، وحل الخلاف.

ردَّ الشيخ إبراهيم ـ أفكر.

ودعّاه، وذهبا معاً.

تجول الشيخان في البلدة... اشتريا قماشاً للعروس، وفي الطريق سأل الشيخ إبراهيم عن سبب الخلاف بين البيك وإخوته.

ـ أكل أرض إخوته وأولاد عمومته، وجاء بالدرك فضربوهم وعذبوهم وأهانوهم وطردوهم... مع أنه كان قد واجه العثمانيين قبل أعوام وأحرق السرايا، وقتل من الدرك الكثير، استرضوه بلقب البيك، وهكذا تحول إلى بيك فعلاً، وزوجته ابنة عائلة غنية جداً ساعدته كثيراً في تبدله وتغيره.

ـ أكل حقهم وزكانا ..ويتوقع من الله الغفران؟

ـ الزكاة من أجل التدخل وحلّ الخلاف لصالحه. رجل ذكي وداهية ،لسانه ينقط عسلاً، ولدغته والسجن أو القبر.

توجها إلى قرية البيك اسماعيل

ـ وماذا تعرف عن البيك اسماعيل؟

ـ وماذا يساوي اسماعيل أمام وجهاء وبكوات المدينة وعاملي السرايا الكبار. ملكيته ليست كبيرة، وهو لا يتساوى مع البيك الذي كنا عنده، شتان بينهما ..

ـ وأخلاقه؟

ـ لا أعرف عنها الكثير، منطقته بعيدة عنا، لا يختلف كثيراً عن بقية البكوات، ومعاملته الطيبة لك مردها الخوف وحباً بالتقرب منك.

وصلا إلى بيت اسماعيل..

ـ انظر يا شيخ ابراهيم ،الفرق مابين بيت اسماعيل وبيت البيك الذي كنا عنده، منزل صاحبنا رغم كبره لا يقارن بمنزل البيك الكبير، ألم تر الخدم والحشم عنده، نساءً ورجالاً؟

ـ لا

ـ لأنه لعين لم يسمح لهم بالحضور والخدمة، واكتفى بخادم واحد فقط، كي يكسب سمعة طيبة عندك، فهو يعرف معادن الرجال من النظرة الأولى، اكتسب خبرة من عمله كقاطع طريق.

نكمل حديثنا لاحقاً.

دخلا إلى بيت البيك واستقبلتهم الخادمة، جاء البيك سلّم عليهم... وقدّم الشيخ المهر كاملاً، الأقراط، أسوارة الأرباع الذهبية، الناطور، وكذلك الأقمشة التي اشتراها. نادى البيك ابنته، دخلت تداري خجلها وخفرها وفرحتها.

نظراتها لم تذهب سدىً، أوقعت الشيخ التقي في حبها، أخذ البيك المهر وذهب إلى زوجته وسألها:

- ألا يكفي؟

- يكفي.

أقفل راجعاً إليهما... مبتسماً

- يكفينا يا شيخ أنك صهرنا، وهي ستكون خادمتك المطيعة... والله سبحانه وتعالى منحها منةً لم تعط لأخرى، وثواباً في الآخرة، رضى الله ساقك إلينا، أصبحت صهرنا .احمر وجه الفتاة خجلاً، أطرقت بعينيها في الأرض، ثم رفعتهما فجأة ونظرت إلى الشيخ بتلك العينين الواسعتين... ابتسم ابتسامة خفيفة.

- بقي تجهيز البيت والأثاث يا شيخ

- كل شيء جاهز ويمكنكم الذهاب معي لتتأكدوا إذا كان البيت يليق بك وبابنتك

- طالما أنت راضٍ عن الأثاث لن نراجعك به.

تدخل الشيخ كامل

- بقي معرفة لوازم زينة

لم ترد الفتاة وهرولت خجلة متعثرة إلى بيت المؤونة.

وبدأت تغني (نخ الجمل قومي ركابي يا زينة) بدلت نايفة في الأغنية باسمها .وراحت تتخيل الهودج الذي ستركبه، زينته،"خطمته". المسك الذي سترشه، والورد الذي ستتزين به، سمعت صوت أبيها... يناديها وأمها:

- ماذا تريدان الآن من الشيخ؟

- لاشيء

- ستركبين فرساً أصيلا يوم العرس ما رأيك؟

صمتت الفتاة على مضض، كانت تأمل في هودج.. ينقلها إلى بيت العريس.

- والموعد؟

- يوم الرابع من نيسان،اليوم المقدس والمناسب للزواج.

- نعم الرأي يا شيخ

غادر الشيخان البيت ونسي الشيخ ابراهيم زيارة المرأة العجوز للمرة الثانية. وهو يفكر بالعرس، ولوازمه. وعندما عاد إلى البيت تذكر العجوز حينما رأى طبق القش، لعن الشيطان وساعته.

جاء يوم الرابع من نيسان، يوم عرس الشيخ المهاجر، حمل الرجال الذبائح، أشعلوا مواقد النار ،ووضعوا القدور النحاسية، وجلست النساء بجوار القدور، تنتظر قدوم العروس، واستواء الطعام.

أتى الفلاحون" بألفيات" العرق، والنبيذ المشعشع، أبيض، وأحمر.

والنسوة ارتدين أجمل ما لديهن من الألوان الزاهية وتجمعن، يحركن الحظوظ بأحلامهن الوردية والقدور بالملاعق الخشبية الكبيرة، وينظرن إلى ثيابهن الزاهية... العرس عرس الشيخ، ومعه سبعة شبان وشابات، سيعقد قرانهم بهذا اليوم الفضيل...كان الشيخ قد قرر تحمل نفقات العرس للجميع.

وصلت العروس بثوبها الذي يلمع لمعان ضوء الشمس... مع شعر غار منه الخروب وخبا،وهو يرى الورود قد زينته،وأحاطت رأس زينة، ورأس حصانها. نينةٌ جميلة وألوان بديعة بهية تشيه بهاء وجهها. أدخلوها إلى زيارة القبة، قبل تربعها عرشها ، ليكون زواجاً مباركاً... وصلت إلى مكان العرس، مكان فسيح يزهو باللون الأخضر، شجراً وأرضاً... ورائحة تعبق في المكان، رائحة الصبايا المزدانة شعورهن بالحبق، والمنتور، ومناديل الحرير، وتلك الوريدات الصفراء والحمراء أعطت البهجة للحضور، ولوجوه الصبايا. في حين كانت مناديل

الحرير المفضضة تتراقص نغماً ساحراً مع تمايل شعر البنات وحركتهن الرشيقة.

وزعت الخمور في الكؤوس الفخارية، وبدأ الشباب والصبايا يتوافدون وفداً تلوا الآخر، يغنون، يشكلون الحلقات الدائرية للدبكة، وجنون الشرب يضرب في الرؤوس، تشتعل، تتحول إلى ضربات على الأرض،، توقظ الجان والإنس من النوم.

إنه عرس لا كل الأعراس، زواج الشيخ المبارك، وزواج الشباب السبعة، الذي أضفى على العرس الفرح والدبكة والغناء الصاخب والجميل.

أشعلت النار في الجبال.. وتحول المساء إلى صباح، والظلمة التي بدأت إلى ضياء يسحر الأبصار... وكل ساعة يُشعل الشباب المزيد من النار، ثم يتراكضون إلى حلقات الدبكة، تتشابك أيديهم بأيدي الصبايا، ويحتك القماش بالقماش، والجسد بالجسد الآدمي، ورائحة عرق الإبط يزيلها الفرح والنار، والحبق المندى، تشتعل النار في أجساد الصبايا والشباب تتحول الدبكة إلى حركة جنونية، حركة سريعة... ضرب للأرض، وتحليق، وطيران في الفضاء.

والعرق والنبيذ يدفئ الجسد، يوقظه يشعله، تفوح رائحة الأجساد المفروكة بالغار والرياحين. عرس لا كل الأعراس... وشراب لا يشبهه شراب آخر... روائح شواء لحم الخرفان والدجاج مع رائحة البطاطا المشوية... تتداخل في بعضها البعض، وتمتزج مع رائحة غار النسوة، وكؤوس الخمر تحول الجبل إلى جنة مجنونة، ويد شاب تمتد وتأخذ الخمرة، وبالأخرى يد صبية تنتظر موعد زفافها... وتحلم بليلة كهذه.

شعر أسود تطاير في المكان وآخر أشقر، يتشابك اللونان، ودخل عليهما بياض الشعر في حلقات الدبكة مع رنين المناديل المفضضة.

شعر حالك السواد يتوحد في عيون سود

وجسد ممشوق خفيف الحركة يسلب الأبصار، صاحبته صبية تدبك في الصف الأول، وكلما اقتربت من النار، قفزت الأخيرة على وجهها وشعرها، يغرق

الجميع في صور وخيالات مختلفة، وتشتعل رؤوس الرجال وأجسادهم من ذلك المنظر الخلاب، شلالٌ بديع من السواد يتطاير يتناثر مع كل حركة لجسد قوي، نحيف وممشوق، يتمايل الخصر، والشعر يغطي جزءاً من الوجه وعين من العيون المكحلة... والنار تبرز الوجه الصبوح الندي... الذي تحول إلى قطعة نار وجمر من العرق المتصبب فوق الخدود الموردة والمحمرة، والكل يسأل:

ـ من هذه الفتاة؟!! ومن أين أتت؟!!.

فجأة تنبه الشيخ للوجه الصبح المندى بقطرات فضة العرق، استغفر ربه وأطرق إلى الأرض رأسه، لم يستطع البقاء هكذا، رفعه ضربت عيناه بعيني الصبية ـ سبحان الخلاق، من أين أتت ؟ ومن هي؟. حركة جسدها... النار على الوجه والشعر، الشعر الذي رآه... ممتداً مابين السماء والأرض

ـ يا الله كم هي ساحرة!

منظر لم يألفه و ولم يره من قبل

صوت الطبل والزمر، والغناء مع ريحان وحبق تلك المرأة... جنن الشباب وخيال الشيخ أيضاً رغم محاولته كبحها... ولكن أ فلت منه أكثر من مرة وقبض عليه. العروس بجواره، لماذا يتطلع إليها؟... لقد رأى نساءً كثيرات، لأول مرة يحس هذا الإحساس الغريب، وهو صاح لا يقدر على منع عينيه... من النظر إليها:

ـ الله جميل و يحب الجمال.. عروسي أجمل.. ما هو هذا السحر فيها ..!!

اقترب العرسان السبعة منه، قبّلوا يده وشكروه، تبعتهم العرائس وقبّلن يده وشكرنه. ردّ عليهن بالمثل لكن عينيه عالقتان على سواد الشعر.

ـ اليوم عرسي وسأتخلص من حاجات جسدي.

ـ ما هو السحر في هذه الصبية؟!!.

زغاريد أم العروس تزيح خطوط الليل، تختلط بدم عذرية زينة.

المشهد الثالث

تزوج الشيخ المهاجر زينة

انحسرت تجليات الروح وإشراقات النفس، واختفى النور الذي كلل السماء والأرض والليالي، وغابت عرائس الديوان، القباب السبع، تجليات الأزمنة المختلفة. هربت صورته، صور أجياله طُمرت في مكان من الأرض، أو علقت في زاوية من زوايا السماء، أو رميت في موقع من الذاكرة الثاوية، وذلك السيف البتّار، سيفه المحمول في يمينه... سرق هو الآخر بينما كان ينقله إلى اليد اليسرى.

حياة يومية حافلة بالأكل والشرب، وتعليم الصغار ومعالجة المرضى، وتفسير الأحلام، الفدية وتقديم الأضحيات عن المزعج المخيف منها. واستقبال التلاميذ من الأقضية.

سنواته تمضي كشتاءات باردة ثلجية، لا تنتهي لرجل وحيد متقوقع على ذاته وفي ذاته.

عادات مكررة مملة وممضة، روح طاهرة نخرها الصقيع، تنتظر بزوغ النور الصغير، نور قرص الشمس لتنير دنياه، وتزينها بوجه طفل يحمل اسمه، ذاكرته، يرثه..

إغراق الروح بالتجليات النورانية تحول إلى غرق في سماع أحلام الناس التي لا تلبث وتُضحي أحلام لياليه مع تفاسيره، رغم هروبه من تفاصيل الرموز المزعجة المرسومة كل ليلة، وهكذا غابت الرؤى بغيوم الذاكرة، أفُلت إلى البعيد. وهو جالس ينتظر فرجة من الله عز وجل، يمسد ذقنه، يقرأ، يذكر ربه وعيناه خاشعتان نحو السماء لعلها تأتيه بالفرج القريب.

والصبية الحسناء تتعثر في حزنها، وكآبتها وعصبيتها. عيناها زائغتان

شاردتان في البعيد .صبية تركض في حقول القمح والذرة البيضاء والسمسم، شعرها يتطاير مع سنابل القمح هارباً من مناجل الحصادين وأيدي جامعي السمسم والذرة، والعيون الفزعة المعجبة. الشيخ ينظر إليها، عيناها تزدادان جمالاً ورقة، وهما دامعتان باكيتان بصمت كلما سألتها إحدى النسوة عن الحمل والولادة، تحرك إصبعها بعصبية يرتجف صوتها:

- وما حاجتي للأولاد؟

نبرة الصوت المتهدجة، المتكسرة تقول: أريد طفلاً، أتمناه ولكن كيف؟! البقر ينجب والماعز، وأنتن أيتها الفلاحات الشقيات؟!

حسرة مغلفة بأجوبة ساخرة، لاذعة، حسرة لا يدركها سوى الشيخ المهاجر يصبرها:

لا تقنطي من رحمة الله.

تبكي وتبكي، تنظر إليه صامتة، ستتزوج بعد عام، عامين؟ لا تلبث وتصرخ في وجهه:

- تزوج وأرحني من عذابي.

يتركها تشهق بدموعها التي تربض على صدره كحجر طاحونة... تقطع الأنفاس، يصل إلى الاختناق، والرغبة بتمزيق ثيابه، والركض عارياً كما ولدته أمه، أمه التي لا يذكرها، لا يعرف ملامحها، أو شكلها، من هي؟!

كل شيء في البيت يشي بالكآبة، امرأة عاقر، حيطان بيضاء اتشحت بسواد النار، رسمت خطوطاً، وامتدت إلى السقف سرقت إشراقا ته فيض روحه، حاصرته، ضغطت على أعصابه هي، وزوجته الذابلة.

قرر الهروب إلى بيت الشيخ كامل لزيارته ورؤية تلميذه. استقدم امرأتين واحدة عجوز، وأخرى شابة تقومان على مساعدة وتسلية زوجته فترة غيابه.

ودعها ورحل نحو أقداره قاطعاً أحراشاً خضراء تتعشق سمرة العشية على هدي ضياء النجوم والكواكب الزهر والنيازك.

تسلق الجبال، هبط المرتفعات، وصعد هضاباً تشبه سنام الجمال، ودخل

إلى حصن كأنه حرم، دار حوله، صورة أسد في كل زاوية من الزوايا الشمالية، وفي الشمال الغربي شجرة سرو محفورة في حجر كبير، عدّ الأبواب، أربعة وعليها كتابات لم يستطع تفسيرها، وفوق كل باب عقاب تكتنفه صورتان تحيران الناظر، مخالب العقاب وعصاً تلتف عليه أفعى.

اجتاز الحصن ومضى.

رأى قرية غريبة الشكل ومريبة، قرية قد تكون منسية من زمن هود وموسى، أو عيسى في حضن جبل كلسي. الله أعلم؟.

نزل نحوها:

قرية محاطة بالسماق والبلوط وبعض السنديان، وشوكيات تخز القادم من جهة الشرق، أمّا جهة الجنوب فتحيطها صخور صماء وتجاويف مغاور عميقة، مغاور حكايات قديمة سمع عنها، وربما سكنها ذات يوم.

تأمل الصخور، صخور تتلبس أردية مختلفة، رداء إنسان حيناً وأحيانا حيوان برزت أنيابه... مما يجعل القادم باتجاه القرية يرتجف خوفاً. تخيلها الشيخ في لجة الليل سيصاب بالذعر، أو الجنون من يراها، أو يمر بها من ضعفاء الإيمان والنفوس. ضيعة آلت على نفسها إلاّ أن تكون ضيعة العجائب.

اقترب من البيوت، صخور محفورة ومسكونة، بوابات خشبية غريبة الشكل، تبدو وكأنها أنزلت مع الصخور.

ـ هل هم سكان عاديون... فقراء...أم أبطال... ؟!

في الجهة الأخرى تتكوم بيوت طينية تعشش الشوكيات بجدرانها ومحيطها معاً. قرية تعرّف عن نفسها بهيكلها وبنائها، توحي بأنها عصية.

اقترب شبح منه:

ـ لا تنظر باستغراب، لقد حاول الدرك دخولها اقتحامها، فقتل العسكر خلف هذه الصخور والمغاور... مأوى قطاع الطرق والفارين والسارقين والمعتدين على الدرك، والبكوات ووجهاء المنطقة، كل من يسلب ويقتل، يفر يأوي إلى هذه المغاور فتبتلعهم، وتقذفهم خرطوشاً ومناجل قمح تضرب

الظلاّم من عثمانيين وغيرهم...

دخلها العسكر بالخدعة (والمسايسة)... انظر إلى مداخل المغاور، مغطاة بالعناكب دائماً، سر هذه القرية.

تطلع الشيخ حوله، أزهار بنفسج بين الصخور وكذلك أصابع العروس المحناة:

- قادر على كل شيء

شق صوت الشبح صمته من جديد:

- في الأزمان الغابرة هطلت الأمطار والثلوج، أحنت اللبِّن وكسرته. تشققت البيوت الصلبة، وهدّمت بيوت الطين. جاء السيل غمر القرية، ارتفعت الصخور عن الأرض، أضحت معلقة بين السماء والأرض، وفجأة لفّ الضباب السماء، تحول إلى غيم مغبّر، نزل وحلاً، وكأن الله أنزل غضبه دفعة واحدة. ما لبثت الصخور أن ضبأت بالأرض فحفرت أساساتها وجذورها من جديد، ثم انفجر شلال فضة، مياه عذبة باردة، قل الكوثر.

هرول سكان القرية إلى بيوتهم بعد عودتها إلى سابق عهدها، وجوههم مكمدة خائفة، فقد رأوا بأعينهم الموت الزؤام بين مستنقعات الطين والوحل والبرَد الذي نزل كحبات العنب، شق رؤوسهم وعلق على أشجار السنديان والبلوط.

كان يوماً عجيباً، مازال الناس يؤرخون الولادات والوفيات والزيجات به، يقال: قبل عام الوحل وصعود الصخور، وإذا كذبهم أحد، أخذوه إلى شلال الماء أو طلبوا التمعن في بيوتهم الصخرية، ومنذ ذلك الحين سميت القرية، قرية العجائب.

التفت الشيخ إلى جهة الصوت، اقترب الشبح البعيد، رجل يتمايل، يده تهتز ورقبته، تساءل الشيخ:

- أهو مجنون أم عابر سبيل مثلي؟!!

وصل إلى مشارف القرية. شق الصمت، صوت امرأة:

ـ سمّيت ابنتي ثلجه، ولدت يوم الثلج، وهي بيضاء ناصعة كالثلج.

أدار الشيخ وجهه إلى الوراء، الشبح يتبعه توقف قليلاً أصبح بمحاذاة الشيخ حدق فيه

ـ مابك..؟

ـ اسمع إذاً:

ـ صعدتُ إلى شعفة الجبل لأطال الغيم المتوحد في الذروة، كان جبلاً ثلجياً يا سيدنا. علوت وعلوت، مددت يدي لأمسك الغيم وكلما اقتربتُ هرب وهرب، كنت أتخيل كيف أمتطيه، أسوقه، أسوسه؟ والناس ينظرون إلي عجباً، أصعد، وأصعد ... تعبت، جلست، لففت التبغ، دخنت، تأملت السماء، كانت مربوطة بأمراس، قفزت من جديد، لأمسك حبال السماء... وهكذا أمضيت النهار، انقطع نفسي وأنا أقفز، والجبل يرتفع وأنا أتأرجح في مكاني والعرق يتقطر من جسدي.

ضحك الشيخ، وصلت قهقهته إلى أول بيت في القرية، قطعها غناء شجي وحزين من الشبح المهزوز، والممسوس الذي تبعه ورافقه، يقص عليه قصصاً وخرافات عجيبة، أنهاها بأقصوصة امرأة نجسة تَصدق أحلامها ورؤاها، والجميع يخشاها..فمن تراه في الحلم إما أن يسقط قتيلاً بيد الدرك أو يموت بخلع سن، أوضرس، أو تحدث له فضيحة؟... وآخر أحلامها، رأت رجلاً على كتفه نجوم عرفته وتكتمت على اسمه.

نهض الرجل(الشبح) وبدأ هلوسته، أغمض عينيه وصرخ:

ـ كانت تعرف أنه سيقتل أجل...يقتل...الأشلاء تتبعثر في السماء، قطرات الدم تتطاير وتنزل إلى الصخور، تلطخ البيوت بالبقع القانية. حط دم الرأس فوق حيطان بيت غير مسقوف، تجمع الدم في حجارته، وسُقف فجأة.

فتح (الشبح) عينيه وتوقف عن الكلام وشرد بعيداً، موجة جنون جاءته، ازداد اهتزازه ورجفانه، أرغى الزبد في فمه، صرخ:

ـ أشلاء... أشلاء حط دم الرأس الرؤوس على الجدران، سُقف البيت

المهجور، صار سكناً للجان والعفاريت، أصواتهم مسموعة، هواتفهم تعلو وتعلو، أصوات بكاء، ضحك، غناء، صوت امرأة شجي، تبكي وتضحك وتنوح أمواتاً وقتلى، لا أحد يعرف من تكون. حاول الناس اكتشاف الحقيقة، استرقوا السمع فأصابهم الطرش، تلطوا خلف جدران البيت، فاجأتهم قوة سحرية ضربتهم، ورطمتهم بالحجارة. وفي يوم ما ... طار رجل وحط فوق السطح، أغمي عليه وجن... إنه سر البيت المهجور...

- وهل كنت أحدهم؟

- ربما، من...

استعاد توازنه:

- ألم تسمع بقصة البيت المهجور؟ تناقلها المسافرون والركبان وعابرو السبيل، أمّ القرية أناس وأناس للنظر إلى البيت المسكون المهجور.حاول بعضهم كشف سره وما هو سره؟ !!!!.امرأة مشوهة، مخلوقات ممسوخة، جان... الله أعلم. هرب سكان البيوت القريبة، فقد شلت يد أحدهم، وفقد السمع آخر، فهربوا وعمروا بيوتاً طينية بعيدة.

كل ما يحيط بالبيت المهجور وقفٌ بوقف، تأمل تلك الأكواخ الترابية...قباب طينية اسمها بيوت تعج بالسكان المصابين بالرمد ... وقصر النظر.

كثر عدد القتلى من الدرك (وزلم) البكوات والأغوات وغيرهم، منذ أن سُكن البيت المهجور. ينتقمون لذلك المقتول...

- وأي مقتول؟

- قاطع طريق، رجل لا كل الرجال، اسمه سليم ألم تسمع به؟!!. عيناه عينا صقر، طول بعرض، وشارب يقف عليه النسر، وفي كفه الموت الزؤام لكل دركي يقترب منه. عنده زوجة: جميلة الجميلات وأخت الرجال.

كان يسطو على قمح وزيتون وزبيب ومواشي الأغوات، يوزعها على الفقراء والأرامل والأيتام. ومن المصادفة أو اللامصادفة ذُبح في نفس اليوم

الذي قطعوا فيه أشلاءه، ثلاثة درك وسرقت بيوت ملاكين، وأسلحة من رجالهم.

قرر الدرك اقتحام الدار المهجورة، فقد دركي النطق وتجمد آخر في أرضه يومين، ثلاثة، واختفى الثالث، ثم ظهر مقطوع الأذنين واللسان، وجن الرابع، وسلبت بواريدهم دفعة واحدة. حاولوا ثانية، ركبهم الذعر، جفلت أجسادهم، تسمّرت أقدامهم، وصاروا يصرخون بأسماء الدرك الذين سبقوهم. كأن مساً أصابهم أو حيوانات هاجمتهم فجأة، هرولوا جزعين وخائفين من الناس ونظراتهم الساخرة الشامتة. ركضوا لا يلوون على شيء إلا بقايا هيبتهم التي مرغت في التراب من قبل قاطع الطريق سليم؛ وأكملت عليهم أشباح البيت المهجور.

ودع الشبح المترنح الشيخ المهاجر، ومضى إلى سبيله.

رفع الشيخ المهاجر يده إلى ذقنه، فكر بما قاله الشبح، أهو صدق؟ كذب؟!! أوهام شبح يعيش مع وحوش البراري؟!!.

أقدام الشيخ قادته إلى القرية القريبة، أقداره ساقته مع هبوب ريح صرصرية إلى هذا المكان. وقف قليلاً، أيلج القرية الغريبة؟ أم يغادرها؟.

رفعته الريح، وقذفته عند شجرة زنزلخت سامقة، تغطي مدخل أحد البيوت،أشاح بوجهه. قرية منظرها شاذ وغريب، تلّوحها الريح:

- ناسها غرباء أيضاً!!

طرق الباب، فُتح ،عرّف عن اسمه، استقبله صاحب البيت استقبالاً باهتاً لم يعتده الشيخ، دخلت الريبة والشك إلى قلبه - قوم غرباء استوطنوا الضيعة! قد يقتلونه؟ يذبحونه؟ يسلخون جلده بعد أن عرفوا اسمه؟ قد ضل الطريق إذاً! التحية والاستقبال لا يليق به بعد ظهور علاماته وكراماته، الناس يتراكضون لتقبيل يده والتمسح بثيابه كلما نطق اسمه.

تماسك قليلاً، ابتلع ريقه تأمل نظرات الرجل الوقحة، ترك المكان. سمع صوت إغلاق الباب، اشتد قلقه، رأى رجلاً يسند ظهره إلى جذع شجرة.

ـ أأسأله بعض الأسئلة؟... إذا كانت القرية غريبة أتركها، قبل أن يمسكوا بي ويمزقوني إرباً، إرباً، الله سيحميني، بادر بإلقاء السلام على الرجل، وسأله:

ـ أين الدار المسحورة؟!

ـ اللعنة على الدار، حولتنا إلى فرجة للناس أغرقتنا في وبال وويلات لا نحتملها، لا تقتربْ منها، دار ملعونة في جوفها مسوخات تُشَوه كل من يقترب منها... اذهب من هنا.

تمتم الشيخ ببعض الجمل، ثم رفع صوته:

أرسلها الله... لأنكم تغضبونه.

ضحك الرجل:

ـ نغضبه... بماذا؟ بفقرنا، بجوعنا، بالسياط على ظهورنا، بذلنا، بأدعيتنا؟ البكوات، الباشوات يقدمون الأضحيات عن جلودنا وأرواحنا وأعمارنا المهجورة ونسائنا المسفوحات، نغضب الله ،وهم الحمام الوادع!! أم هم جمر الغضا؟!!!

اللهجة الساخرة للرجل أسكتت الشيخ وطمأنته على نفسه. فإشارات اللهجة والإيمان والرموز احتضنته بأمان وأمن!!الا تدعو إلى الالتباس في الإمام والرموز المشتركة.

ودّع الشيخ الرجل، قرر الرحيل، خاف الريح والعقاب، تفكر في البيت المهجور، سحره طلاسمه، رموزه، وهو يحلها. سأطرق هذا الباب:

صرخ ملء صوته:

ـ يا أهل الدار!

فتح الباب رجل عجوز تلوح الأزمان وتحفر أخاديد وتجاعيد على وجهه وقسماته المتعبة المتغضنة، عرّف عن اسمه، قبّل العجوز يده، اطمأن الشيخ أكثر، عاوده الوسواس ـ إنها حيلة لاستدراجي، وقتلي. استعاذ بالله من تلك الأوهام وسأل عن البيت المهجور؟ جوابه لم يأت بجديد عما سمعه من الرجل

المسوس ـ العاقل الذي مشى خلفه.

ودّع الشيخ العجوز، ومشى في طرقات القرية المتعرجة، يسأل المارة عن البيت المسحور. الإجابات متشابهة، تشابه الأكواخ الفقيرة بقشها المنثور وشجر الزنزلخت الذي يغطي البوابات إن وجدت.

نام الشيخ في العراء، رأى امرأة بشعر أسود، تناديه باسمه وتبكي، أفاق من نومه، استغفر ربه وجلس يغني، انبلج الصبح بخيوطه البيضاء بلون وجه المرأة التي نادته ليلاً. تدّرج وشجر الآس الزمردي يشع فرحاً. قرر جمع الناس واقتحام البيت المهجور عن طريق المختار. وهل يوجد مختار هنا؟!.استخبر عنه وتوجه نحوه. لم يكن بيت المختار أفضل من البيوت الأخرى أو أكثر عظمة أو فخامة، علائم الوسخ تدل على الساكن. ابتلع ريقه وقرفة، ألقى التحية والسلام، وعرّف عن نفسه، رحب به. أطلع المختار على فكرته، فوافق. جمع أهل القرية في الساحة، وقف الشيخ المهاجر:

بإذن الله تعالى نقتحم البيت المسحور وعليكم مرافقتي فأنا الشيخ المهاجر.

لفّ السكون الساحة، نور الشيخ، أنواره، تلتمع، تضيء الساحة، وأوراق الآس والزنزلخت، كراماته، إكراميات أجياله، أجداده، صوره. اتفق الحاضرون على اقتحام البيت المهجور في اليوم التالي، تفرق الناس خارج القرية، اقترب شاب من الشيخ، سأله عن سر اهتمامه بالبيت المهجور.

ـ إرادة الله وجهتني إلى هنا لأعرف سر البيت.

دعاه الشاب (علي) للإقامة في بيته الطيني، وافق الشيخ وذهبا معاً، سهرا حتى الصباح. توافد الناس وعيونهم حمر كالجمر، أجسادهم كنار موقدة ترمدت فجأة، داست عليها أقدام عمياء، كلٌ يروي حلمه التعب، شبحه الذي طارده ولاحقه، الخناجر التي وجهت إلى صدورهم، المدى التي تقطع أيديهم وأرجلهم، مدى هبطت من السماء. والشيخ يسمع الرؤى الغريبة المتدفقة، خاف لكنه أصرّ على اقتحام البيت دون إعلام الدرك. اجتمع

الأهلون، مشوا باتجاه البيت المسحور، وصلوا إلى مكان هلعين ، أمسكوا أذرع بعضهم. اختفى البيت المهجور، وبقي حجراً ضخماً على شكل بيت، ذهل الناس، ارتعدت فرائصهم، ركضوا إلى الشيخ ،وهم يرتجفون،يلهثون، تدافعوا إلى الدار، بصوت واحد وتأتأة:

- معجزة معجزة

- ماذا !؟

- اذهب، وسترى بعينك

خرج الشيخ راكضاً معهم فرأى بيتا ككل البيوت

صرخ الشاب

- أسجف البيت بالحجر

أردف:

- لننظر إلى السقف

صعد الشيخ، ومعه رجال جريئون إلى سطح البيت المجاور، أمعنوا النظر في البيت المهجور، إنه مسقوف بحجر كبير. عزموا على اقتحام البيت وطلبوا أن يتقدمهم الشيخ

- على بركة الله

صورٌ ممسوخات ترتسم، البعض تشعّا شعره والبعض الآخر أشوه ومتناثر الشعر، أيدٍ مشوهة هنا .. أظافر طويلة تخترق الطين تمزق الوجوه والعيون... أناس بلا أسنان أو بسن واحدة طويلة، سن ذئب، ضبع. فتح الشيخ عينيه وطلب من علي مرافقته... التّم الناس. همَّ الشيخ بالاقتراب من البيت، شاهد علي شيخاً قادماً صرخ

- تمهل أيها الشيخ... لقد وجدنا ضالتنا، الشيخ حسن صاحب البراهين، والكرامات، يكتب الحجب للنسوة العاقرات، يحملن، يشفي المريض والأبرص، يداوي العيون، والمرمدة يعميها! يكشف للدرك مخابئ الفلاحين وسلالهم، عجز فقط عن كشف مخبأ قاطع الطريق سليم وزوجته.

زور الشيخ حسن الشاب، لعنه في سره وشتم ساعة النحس، ساعة قدومه إلى القرية الملعونة. صب جام غضبه على خطواته الوعثة...وأشباح الذئاب الرابضة خلف الباب على شكل قوس، وشبح عقاب بمخالب وحشية ونَفخ كنافخ في الصور، وكان كغريق قُطِعَ حبال أمله مع النجاة، أطلق نظرات شرر شزراء لعلي. كتم غيظه وبراكينه الداخلية:

ـ أترى مناسباً لشيخ جليل مثلي دخول بيت الجان؟.

ابتسم علي ابتسامة ساخر:

ـ استغفر ربك

تدخل رجل ثانٍ:

ـ يا شيخ هبنا نهاب الدخول إليه، وأنت قدوتنا ومقدمنا، وفي هذا ثواب عند رب العالمين، واقتحامك الصعب يعزز مكانتك الدينية والدنيوية... بيمينك تهزم الجان، وبيسارك تقتل المسوخات.

قال الشيخ إبراهيم:

ـ ادخل وأنا معك.

رد علي على الفور:

ـ فيما بعد يا شيخ.

لاذ أهل القرية بالصمت الموشى والمشوب بالسخرية. جال الشيخ إبراهيم بصره بين علي ونظراته المليئة بالتربص والضحك، وبين الشيخ حسن وإرباكه وخوفه ووجله وعينيه اللتين تقدحان شرراً، اضطر للقبول.

ابتسم علي بخبث.

اتفق الأهلون على اقتحام المنزل صباح الغد، خاف علي من هرب الشيخ حسن، تأبط ذراعه، وقال:

ـ أنت ضيفي الليلة ستباركني مع الشيخ المهاجر!!.

شتمه في سره ولعنه. فقد عزم على الهرب، فكشفه هذا الشاب الخبيث وقبل مغادرة الساحة قال رجل طاعن في السن:

ـ علينا اقتحام المنزل ليلاً، الأصوات لا نسمعها نهاراً، والليل أستر.

وافق الجميع، وقرروا حمل المشاعل والقناديل والتجمع في الحادية عشرة ليلاً.

ذهب كلٌ إلى غايته أو منزله. بدأت الدغشة، ودغشة روح الشيخ حسن معها. ليل كالح السواد، أضيء بقناديل الأهالي. تقدم الشيخ المهاجر والشيخ حسن الجموع، انتشل علي الشيخ المهاجر من المقدمة، وسحبه إلى الخلف.

ـ انتظر هنا

تجمع السكان حول البيت، لم يجدوا باباً ومنفذاً للدخول إليه

قال الشيخ حسن:

ـ ماذا نفعل الآن؟

اقترب علي منه مشيراً:

ـ هذا هو الباب الذي كان باباً، تفضل واضربه ضربة خيبرية!!

قدما الشيخ لا تحملانه... جسده ارتجف، أسنانه اصطكت، بسمل، قرأ آيات بينات، سمع صوتاً عميقاً، صوت من مغارة العفاريت:

ـ اقترب أيها المأفون، حلت لعنتنا عليك

غاصت أقدامه في التراب، التفت حوله مذعوراً، كان وحيداً، ارتعدت فرائصه أكثر...غاصت أقدامه في الطين، أتته ضربة على رأسه، خرّ مغشياً عليه، وبقي حتى الصباح.

حاول الشيخ المهاجر النزول والاطمئنان عليه لكن علياً منعه:

ـ إذا حصل مكروه له سيبلغني أهل القرية.

اتفق الجمع بصمت على تركه وحيداً. ومع شروق الشمس المقدسة نهض الشيخ وعلي، وتوجها إلى البيت المهجور، وفي الطريق قال علي:

ـ يا شيخ نحن لا نريد اقتحام البيت، وإنما تلقين درس للشيخ حسن المنافق، والذي لا يرأف لحالنا. هذا درس لن ينساه أبداً وسيتذكره كلما قرر الوشاية بنا للدرك وللبكوات.

وجدا الشيخ حسن مقلوباً على قفاه، فاقداً الإدراك والحس. اقترب الشيخ المهاجر منه دلّك يديه ووجهه، وطلب ماءاً بارداً. أفاق الشيخ حسن دون ذاكرة.

استغفر الشيخ المهاجر ربه:

ـ هاأنا أحمل وزر الشيخ...

ـ لا تخف سيعود إلى حالته الطبيعية

أرسلوا في طلب المختار، جاء المختار وحمل الشيخ حسن إلى داره.

أمسك علي ذراع الشيخ المهاجر، أفلت يده، ودار حول البيت، لم يجد باباً، تجمع أهل القرية، وطلبوا تأجيل الاقتحام...

ـ.سنرسل وراءك عندما يحين الوقت لا تتعجل

ـ أي وقت ؟!!

زور الشاب طويلاً، تهرب من نظراته.

ـ أنت تعرف سر البيت!! ولا تريد البوح به. أهناك ما يكرهك، ويجبرك لتتكتم على البيت المسحور؟!!

تشاغل علي بانتقاء حبات العفيص:

ـ سيكون حبراً رائعاً.

ـ ألا تريد الكلام؟! ومن غيرك يعرف سر البيت؟

تجاهل علي السؤال:

اسمع ياشيخ هذه القصة قصة حقيقية ـ هناك قاطع طريق غريب الأطوار لم يره أو يعرفه أحد، وكل رسم صورته وشكله على هواه، وسماه كما يحب. قاطع طريق شجاع متهور، لا يخاف الدرك ولا الموت. تلطى وراء الصخور في البداية، وصنع (نقيفة) من خشب البلوط حجمها أكبر بثلاث مرات من حجم (نقيفة) الأطفال، ترصد الدرك، تصيدهم تصيد العصافير، وعوّر بعضهم، واقتلع أعين آخرين، وأسلم الدرك ومن ومعهم من (زلم) الباشوات والبكوات والمخاتير للرعب. حصل على سلاح، أهداه إلى قطاع طرق،

وبقـي يحـترف التصـيد "بالنقفيـة"، شـوه الكثيرين، لاحقـه العسـكر، هـاجموه، حاولوا صيده في الجبال وخلف الصخور، خسـر العثمانيون الكثير مـن الجنـد، سمي صاحب "النقيفة"، ومازالوا يبحثون عنـه، كمـن يفتش عـن سـراب، سمّـي السـراب. بعدها منع الأطفال مـن اللعـب "بالنقيفات"، وصيد العصافير. وبقـي يلاحق العسكر، يسـرق بواريدهم، يخبئها في المغاور... قيـل أنـه يخـرج ملثماً. يغير صوته مـن مكان لآخر، يقلد أصوات الحيوانات والعصافير، إنـه لغـز مـن ألغاز المنطقة، كالبيت المهجور.

نـبش الشـيخ ذاكرتـه، تشـكك في (الشـبح) أوالرجـل الـذي ادعـى الجنـون، وكـان يـركض ليطول الغيم، ويتعلق بأحبـال السـماء، كـان معـه قطعـة خشـبية كبيرة، لعلها النقيفة...!!

ـ مابك يا شيخ؟! عيناك شاخصتان، وبهما لمعة ظنون، وتشكك...

ـ الله أعلم كـأني التقيتـه عنـد قدومي إلى هنـا، لكـني لا أسـتطيع الجـزم بهذا، ولو كان أحدكم يعرفه لهان الأمر.

ـ ماذا قال لك؟

ـ ظننته مخبولاً... حديثه حديث مجانين، وحكمته حكمة عقّال... ساخر، مازح، جدي، هزلي، عاقل، مجنون، يصعب اكتشافه ومعرفته.

ـ كان عليك معرفته

ـ وما أدراني أنه قاطع طريق، أو عابر سبيل، أو متسول.

ـ هل تعبتِ من حكاية جدي؟

ـ لا أدخلتني أماكن وقصصاً لم أعد أعـرف أيـن أصـبح جـدك، وتجلياتـه منها؟ وفي أي مكان وقعت تلك القصص؟.

ـ ستعرفين يوما ما

ـ متى؟

ـ عندما يشاء الله

غادرهـا فجـأة، تـرك المكان، الزمـان، ورحـل هـو الآخـر بعيـداً إلى زمـان

ومكان ثان، ثم عاد إليها، عيناه تحدقان، تحملقان في نقطة ما. ناداها باسمها

- إذاً هو هنا!!

أسمعها أبياتاً من الشعر، وغرق في الضياع، وهي لا تعرف ماذا تفعل، خيوط كثيرة ربطتها، وتربطها بهذا الشاب الحالم، وبنفس الوقت لم تعد تحتمل رواياته وقصصه وما يحدث معه، وله... تائه، شارد، غائب، وهو بجانبها، وكل ما به يبعث على الدهشة والخوف، والتيه والضياع، وأحياناً إلى الهروب

رنت إليه، عيناه زائغتان... ملامح وجهه غريبة، صوته منخفض، كلماته مشوشة تتخبط الأحرف بالأسماء... بالشعر المغنى.

- أكمل قصة جدك

رحلة جدي... جد جدي... جده... هو... هناك في بقاع الأرض... يشم رائحة البخور، يتلو الآيات البينات بكل اللغات، يفسر، يؤول، يكتب الشعر بالقرطاس والقلم، يهاجر من مكان إلى آخر، ويموت، تتنقل روحه مع ذرات الهواء- النسيم الرطب - تهاجر هي الأخرى إلى عالم وأناس وبشر لا نعرفهم...

- أين وصل؟

نهرته من كتفه، أعادته إلى الجامعة من جديد... تماسك قليلاً، وتابع - رزب جدي في ضيعة العجائب. كان على موعد مع قدرٍ، مع أقدار غامضة تلوح في فؤاده وكيانه، ألف المكان والانتظار. خيوط سرية، حبال سرية نسجت وربطته في ذلك البيت، ليفتح صندوق العجائب في البيت المهجور والمسحور.

كان الوقت يمر سريعاً الأيام الشهور تنزلق كساعات أو دقائق، كومضة عين، وكلما قرر الرحيل شدّه أهل القرية لسماع ما لديهم من الحكايات والأقاصيص، يمضي الزمن...أم يتوقف أم هو راكض؟ والأمل يداعب جدي يحذوه. سيقتحم البيت المسحور!.

يسألهم عن اقتحام البيت المهجور ليُسقطَ عن كاهله وكاهلهم سؤاله، متى يرحل؟ ويبرر بقاءه.

ينسجون القصص والحكايات الجديدة من أخيلتهم كي لا يتركوا له فرصة اقتحام البيت، يؤمونه منذ الصباح الباكر وحتى آخر الليل... ينسونه البيت المسحور وألغازه.

وفي يوم من الأيام جاءته عجوز عمياء... أنسته البيت المسحور لزمن، شكت له حزنها على موت قريبها. سألها:

- وماذا أفعل لك؟

- ادع لي بالموت العاجل، لا أستطيع العيش بدونه...

- أهو زوجك؟

- أكثر من زوج!! وأغلى من أخ!!...هو قريبي!! شقيق روحي توأمي...

- ابتسم:

- الله يخفف عنك الأحزان.

- هزت العجوز الضريرة برأسها، شكرته وهي ممتعضة، ولم تمنحه الزكاة كما جرت العادة، ورجعت إلى قريتها، تتمتم بأدعية موتها....

استفسر الشيخ عن العمياء وحالتها العصبية، ورجفان يديها وجسدها وحركة فمها.

ضحك علي ملء فيه حتى كاد أن يقع على ظهره، استغرب الشيخ الضحك المفاجئ، وظهرت عليه علامات الاستغراب والاستنكار.

توقف الشاب عن الضحك:

- لن تدهش من ضحكي، عندما تعرف قصة العجوز وعصبيتها، نذهب معاً إلى قريبتها المتزوجة هنا، وبيتها قريب من بيتي، تعال معي.

ذهبا سوية إلى بيت المرأة، دقّ الشاب الباب، ارتفع صوت امرأة، دعتهم إلى الدخول، فدخلا معاً، سلمّا على المرأة المقعدة والجالسة فوق لباد ممزق. سألها علي:

- ما حال قريبتك العجوز العمياء؟.

ضحكت:

ـ تنازع حزنا على موت شقيق زوجها.

ـ قصي علينا حكاية حزنها، فالشيخ ابراهيم المهاجر جاء ليستمع إليها.

ـ أهلاً بك يا شيخ زارتنا البركة، كما ترى أنا مقعدة، ولا أستطيع القيام بأي شيء، عذراً منك وسامحني.

ـ لا بأس عليك نحن أتينا لنراك ونسمع قصة قريبتك.

ـ الرجل الذي تبكيه العمياء عاش مع ثلاث نسوة، زوجته، وأرملة أخيه، وطليقة أخيه هي العجوز الضريرة التي جاءت تشكوك حزنها، وكما رأيتما هي جميلة جداً، ونظيفة نظافة تصل إلى درجة الوسوسة...

زوجة المتوفى عاشت معهما حياة ملؤها الرعب والخوف منها... مع أنها ضريرة وعاقر، وهذا ما سبب طلاقها من زوجها... فأصرّ سلفها على إبقائها معه ومع زوجته بحجة ليس لديها أحد يعيلها...

زوجته كرهتها كثيراً وضايقتها، كانت تضع الحجارة والخشب في طريقها كي تتعثر المسكينة فتقع، وتنال مرادها منها! إلاّ أن بصيرة وقوة تلك المرأة أنقذتها من الأذى الذي تحيكه الزوجة، فكانت تحمل عصا بشكل دائم، تحركها أمامها وتزيح ما يقع في طريقها، إحساسها وشكها الدائم بأن شراً يتربص وينسج ضدها لأنها عمياء، دفعها لإبقاء العصا برفقتها أينما تحركت، كانت تتحسس بيدها الجدران والأرض والفراش والمخدة التي تنام عليها، تنام والعصا بجاب رأسها.

وهي من كان يقوم بتنظيف وترتيب البيت، ونقل الماء من العين، وملء الجرار و"الراوي"، عندما تعود تنال قسطها من الشتيمة و السباب واللعنات من الزوجة... وفيما بعد من ضرتها، وفي أحد الأيام غابت العمياء بعد أن فقدت صبرها وقدرتها على تحمل الزوجة، تركت البيت لأيام عديدة، تدهورت صحة الزوج،ووصل إلى حافة الموت، قطع الطعام والشراب، وبقي يجلس أمام الدار، ينتظرها، اضطرت زوجته للبحث عنها وإعادتها إلى البيت، واعتذرت لها أمام زوجها. بيته مؤلف من غرفة واحدة كبيرة!!. ماتت الزوجة العرجاء

قهراً وهي تشهق باسمها، وماتت زوجة أخيه الكسيحة، وبقيت العمياء مع الأرمل في البيت. تناسلت الإشاعات والأقاويل عنهما، ومع ذلك بقيا معاً. لم يعرف أحد سر العلاقة وطبيعتها، أكان يلمسها؟ يضاجعها؟ ينام بجوارها؟ أو أنها علاقة روحية فقط!!؟.

بعد وفاته يبست حياتها وفقدت نشاطها وحركتها، والرغبة في التنظيف وجلب الماء، والغسيل، وحتى الاستحمام لم تعد تطيق شيئاً... كأنه دافعها الوحيد للحياة.

ضحك الشيخ من القصة وعلق:

- الآن فهمت سبب ضحكك...

في اليوم التالي أرسلت المرأة التي روت حكاية العمياء في طلب الشيخ، وأخبرته أن العمياء ماتت بجانب قبر سلفها باكية تدعوه اصطحابها إليه.

رغم الموت ورهبته لم تستطع المرأة ردع نفسها من الابتسامة.

قرر الشيخ الذهاب إلى العزاء بالمرأة الضريرة والعودة إلى بيته وقريته، فقد طالت إقامته في قرية العجائب وانقطعت أخبار زوجته عنه.

ركب فرسه وفي الطريق إلى قرية العمياء سمع أحد عابري السبيل يسخر من قرية يأكل أهلها الصفوة والرماد.

سأله الشيخ عن اسمها والطريق المؤدي إليها .عرف الاسم من تلقائية الرجل وثرثرته.

دلهث الخطا نحوها.... قرية ساحرة محاطة بربى زمردية...مشهد لا أجمل ولا أبدع... إنه ملك الضياء ذلك الطير الميمون يحلق في الفضاء، يخترق السموات، ويرسل من نوره نوراً، يغمر السماء والأرض والجبال والقرى، ولله دره في هالات شروقه من ثنايا القبة الزرقاء... شلالات مياه عذبة تتوج القرية من جهاتها الأربعة... منة الله ذلك الجمال والألوان المختلفة الممتزجة مع الضياء والنور.

طرق أول بيت واجهه، عرّف بنفسه، استقبل بالترحاب وجلس يراقب

السقوف والجدران الموشاة بالسواد كدموع عذراء ذات عيون حوراء ندية. تبسط بالحديث معهم. عفويتهم دفعته إلى السؤال:

- أتأكلون الصفوة؟

ضحك صاحب الدار وزوجته وأولاده:

- يا شيخ كلام عار كشجر الخريف... نشوي البطاطا والبصل والبيض في مواقد النار... والأيام أيام جوع وفقر مرت وتمر علينا.... أتذكر الثلجة الكبرى... لم يبق لدينا حنطة أو ذرة شعير... فقترنا على أنفسنا وضيوفنا وعابري السبيل... إذا دخل علينا أحدهم نخبئ ما بأيدينا في الصفوة، لأننا لا نستطيع القيام بأود أنفسنا فما بالك بإطعام نفوس أخرى؟ نعيش عيشاً مشَفَّراً...

ضحك الشيخ ملء شدقيه وحملق في السقف، وسواده المتبرج بالحزن والفقر... وبياضه الساخر، الخجل...

- يا شيخ يضرب المثل بحيلنا، الصفوة هي حيلة لا أكثر... كما تعرف صعوبة الحياة وقسوتها، وشظفها دفعنا إلى سرقة الحمير والبغال من البلدة المجاورة، وكي لا يعرفها أصحابها صبغناها، وبعناهم حميرهم، وبغالهم من جديد ...كنا نرشها بالكلس والصفوة... يكتشفون الحيلة بعد ساعات قليلة.. يبحثون عنا كي يقصبونا، حين ذاك نكون قد غادرنا البلدة بسرعة قصوى... إننا مضطرون للضحك عليهم من أجل لقمة العيش!!

- وهل تقول لكل عابر سبيل هذه الحكايات؟

- لا يا شيخ، ولكننا سمعنا بك، ونعرفك منذ زمن، وننتظر رؤيتك وزيارتك. هذا الحديث لك وللمقربين منا... لسنا سارقين، إنما نحتال على الحياة كي نعيش، ولدينا من الشجاعة والجرأة والرجولة ما يكفي، اسأل عنا. عندما تُمس كرامتنا بأذى، نهب كفرسان شجعان، هبة أسود، لا نخاف الموت... قطعنا أيدي وأرجل ورقاب أهل البلدة عندما حاولوا الاعتداء على شيخ عجوز. وحياتك وبعد تلك الحادثة لم يجرؤ أحدهم على الاقتراب من

جماعتنا عندما ينزلون للشراء أو البيع والمقايضة، أُكرهنا على السلب والنهب ولولا ذلك لمتنا جوعاً نحن وأولادنا، جنابك يعرف الفقر هنا. والشجاعة بضاعة كاسدة هذه الأيام لا تشترى، أما الحيل؟!!.

ودعهم الشيخ ورحل إلى بيت المتوفاة، عزى بها وتابع سيره إلى قريته، وصل منتصف الليل، دق الباب لم يرد أحد، دخل البيت، كانت الغرف مغلقة، جلس في صحن الدار حتى الصباح.

نادى المرأة العجوز التي تركها مع زوجته واستفسر عن زوجته

- جاء أبوها وأخذها معه إلى بيته

حلبت له الماعز وقدمت له الحليب وقطع الخبز، تناولهم بسرعة، ركب فرسه ويمم وجهه صوب أهل زوجته.

وصل إلى منزل اسماعيل، استقبله بالترحاب وتقبيل يديه، وبادر إلى سؤاله:

- أين كنت يا شيخ؟ ابنتي خافت عليك، لذا أتيت بها إلى هنا، كي لا تبقى وحيدة بعد غيابك الطويل والغريب

- منذ متى هي هنا؟

- شهر تقريبا

- بعد غيابي بأسبوعين هجرت بيتها؟!!

خافت، صبية جميلة بمفردها لا يجوز بقاؤها وحدها، وهذا بيت أهلها!! لا فرق بين بيتك وبيتي كما أظن!!

- وهل يجرؤ أحد على الاقتراب منها؟ وهي زوجتي، والبيت بيتي، صحيح لا فرق بين بيتي وبيتك، ومع ذلك عليها انتظار عودتي... أو على الأقل تبقى زمناً عند ئذ أفهم أسبابها ...

- يا شيخ أنت على العين، والرأس، كما تعلم الزعران وقطاع الطرق يعرفون أنك مسافر،والبيت متطرف، ربما سولت لهم أنفسهم بالاقتراب منها ....

- لا تكمل... هل تظن الله يسمح بانتهاك عرضي، كل من يقترب منها أو مني يصاب بالأذى، إما أن تشل يده أو رجله أو يموت خنقاً، ماذا تظن أنت؟!!

- يا شيخ كراماتك فوق رأسي، ومع ذلك لن أترك ابنتي للخوف ولهبوب الريح...أو لزوابع تقتلع البنت واسمي واسمك معها.

- تركت عندها امرأتين تخدمانها وتسليانها..

- لا تأخذ الأمر بحساسية يا شيخ !!

- طيب والآن؟

- ماذا؟!

- ألا تريد العودة إلى بيتها؟

- إذا نويت الرجوع الآن ستكون على فرسك، وإن عزمت الرحيل في مهامك الدينية من الأفضل بقاؤها هنا مع أمها وإخوتها، إلى حين عودتك إلى البيت، تأتي وتأخذها معك، أو أنا أرسلها إلى بيتك.

- اسمع يا اسماعيل، أنت تعرف واجباتي الدينية التي أقوم بها، والتلاميذ المنتشرين في القرى، إذا اعتادت زينة ترك البيت كلما رحلت إلى قرية أو قمت بزيارة، فالبيت يبقى فارغاً، والناس يطرقون بابي، ويأتون إليّ من مختلف المناطق والأصقاع، أفراداً وجماعات ولا يجدون أحداً. ألا ترى معي ضرورة وجودها في البيت واستقبال الضيوف والترحيب بهم، ومعرفة ما يريدونه، ويحتاجونه فترة غيابي!!؟

- صحيح لكنها تخاف!!

- لتبق هنا، وأنا راحل في الصباح

فرش اسماعيل له وللشيخ في غرفة لوحدهما، وترك زينة تنام مع أمها. فكر الشيخ بسلوك إسماعيل، نومه معه في الغرفة، فصله عن زوجته... لم يجد تفسيراً لما يفعله إسماعيل سوى عقابه. في الصباح تناول الفطور معه ومع عائلته، وزينة صامتة طوال الوقت، وعيناها شاردتان. ودّعته ببرودة زوجة لا تريد رؤية زوجها ولا تشتاق إليه ولا ترغب به. ركب فرسه، وهو حزين

وممتعض، طوال الطريق يفكر بنظرات زينة وسلوكها الغريب معه، لم يحس نفسه إلاّ وهو يتجه إلى قرية العجائب، سرٌ ما ينتظره فيها!! سيكشفه. حالة استغراق من نوع جديد أخذته، لا تشبه سابقاتها... تخيل البيت المهجور أشكال الجان: شعثو الشعور، مشوهو البشرة... يرقصون، يغنون، حركاتهم غريبة، يمدون ألسنتهم... وكلمّا اقتربت أيديهم من أحد لطشته وشوهته. ثم تصورهم أناساً قدر الله وتركهم أزماناً منسيين، كأهل الكهف... قرر اقتحام البيت وحيداً وليحصل ما يحصل... ليسكنه الجان أو الإنس أو القرود... الله معه ولن يتركه.

تذكر المرأة العجوز التي زارها منذ سنوات وأهدته طبق القش، قَطعت استغراقاته، وفكر ملياً في العودة لزيارتها... ما لبث ورجع عن الفكرة، فقد يعلم إسماعيل بتلك الزيارة ولا داعي لذلك. عندما يرجع لأخذ زينة، يزورها...

مر بجوار قرية العجوز العمياء، عبر طرقها المتعرجة، ووقف بجوار بيتها هزّ برأسه، وابتسم ـ علاقة عجيبة حقاً، وملتبسة بشكل غريب، لم يعرف بشر حقيقتها.. الزوجة ماتت ولم تمسك أي دليل يشوه علاقتهما أو يدل على أنها غير شريفة، ولذا ظلت تلقي تهمها جزافاً وفي الهواء، هذا ما أكده الجميع، ولو أنها التقطت دليلاً واحداً عن سوء العلاقة لفضحتها وفضحته في القرية.... علاقة عصية على الفهم...

ابتسم الشيخ، امرأة عمياء والأخرى كسيحة وقبيحة، لذا لم تثر غيرة زوجته، والسؤال المحير لماذا سكن مع هؤلاء النسوة..؟!!

حملق في البيت، منزل غريب البناء يشبه حياة الرجل والعمياء والكسيحة والضميلة، الرجل وحده لم يكن صاحب عاهة.... زوجته ضميلة، وأرملة أخيه كسيحة، وطليقة أخيه عمياء... ربما كانت لديه عاهة لا يعرفها أحد سوى زوجته.

النفس البشرية غريبة سبحان خالقها، تختلف كل نفس عن غيرها كل

الاختلاف، للّه حكمته في خلقها وتنوعها، إننا نَملٌ في الكون الواسع.

مشى في السهول القريبة، نساء بعضهن متشحات بالسواد وبعضهن بالألوان الزاهية يلملمن الفطر والأعشاب، (وبشقابينهن) الأطفال الرضع يبكون جوعاً، يضحكون فرحاً وشبعاً. أيديهن تشققت من قطع الحطب وجمع الحشائش، ورقابهن ناءت والتوت من الأحمال الثقيلة، مسكينات. نحن مساكين!!!.

أصواتهن حزينة، باكية، جائعة، متهدجة، ومتعبة... هن غارقات في الحزن وانتظار الفرج بتلك الأصابع القابضة على الحشيش، والفرح الهارب منها، وهناك نسوة يلتفحن المناديل، يغطين رؤوسهن هرباً من شمس قاتلة، وأيد تجمع القمح، تنتظر حباته وسنابله بعد تعب مضنٍ... بيدها (تنك) وعصا - يا الله كتبتَ علينا الشقاء، وامتحانات صعبة.

كنا هناك نفترش القصور ونأكل اللحوم...مغنون وشعراء ومداحون... وها نحن الآن نفترش شعف الجبال والمروج، ونقتلع الصخر، ونزرع الزيتون والقمح والشعير، نحصد بهذه النوارج المهترئة، مواسم لا تكفي ربع الأفواه الجائعة، يا الله لقد امتحنتنا بما فيه الكفاية. كنا شموس وكواكب وهالات نور ثم نزلنا الأرض، هو امتحان، امتحان...

المشهد الرابع

غروب عسجدي، صباح نوراني، نور الطائر الميمون يرف ينبثق في الكواكب والنجوم. نور صهبي يشع في حفافي السماء والأرض... وأنا أغرق فيه.

ويمر الوقت، الوقت المطلق لله تعالى عز وجل، أما وقتي فهو يتسرب ويهرب كعذراء تسمع كلمات الغزل للمرة الأولى، تركض خفرة.

وهاأنا أرزب في هذا البيت، اخترته انتقيته لإحساس عميق بأن علياً يخفي أمراً ما ... سراً ما عن البيت المهجور

وما الوقت؟! الوقت المطلق لله تعالى، ووقتي البشري يمر سريعاً، نسيت زوجتي وقريتي، رقمت بانتظار المجهول وفك رموز وطلاسم البيت المهجور. حكايات غريبة غرابة القرية وجديدة. كل مساء نؤجل اقتحام البيت إلى صبح، أومساء لا يأتي، وأنا غارق في الحكايات، ومحتويات، وأشكال، وأشباح البيت المهجور.

الأيام تمر عجلة، وكلما سألت علياً عن البيت، لزم الصمت، عزف عن الكلام، وغيّر مجراه إلى الدين، أتلهى بالإجابة والرد، فينسل كطفل فاجؤوه وهو يلعب بالخبز أو الطين.هو شاب هادئ، رزين وكتوم وصريح لا تنقصه الجرأة والأخلاق. وهذا ينفث في روحي هجيع الطمأنينة والارتياح.

ظننت القرية خالية إلاّ من الوحوش الكاسرة، وإذا بها مكتظة بالسكان، لم ألحظهم، بيوتها تستر، تسدف البشر، والجدران الصخرية تمتصهم، وتقذفهم إلى العمل يتناسلون كالأرانب، ويموتون كنمل لا يجد مكاناً في التراب. طباعهم قاسية وحنونة وساخرة، متوقدو الذكاء، فطرتهم فطرة حسنة وطيبة رغم فقرهم.

مع كل بزوغ قرص شمس أرجواني هائم في السماء، أكتشف شيئاً جديداً لم أكن قد انتبهت إليه أو رأيته، سبحانه تعالى...

والآن تشفو الشمس شفواً جديداً، تختفي بين الغيم، ودغشة الليل. النور الصغير ينزاح محتفياً بالقمر المقدس، النور الكبير، هاهو يتشح بغلالة سوداء رمادية، يضيء قباب السماء والنجوم والشجر ووجوه وقلوب الناس بالإيمان، صورة الباري الأعظم سبحانه....

صاح علي:

- ألم تنته من الصلاة يا شيخ؟

- ها أنا قادم.

سهرا كعادتهما وخرجا يتمشيان في ليل خالي الوفاض.لا مارة، ولا أصوات أناس، ولا أضواء للسرج، لم يعد يُسمع سوى خوار البقر ومأمأة الماعز مخلوطين بعواء الذئاب، وبصيص عيون الضباع الملتمعة والتي تتلصص لاقتناص فريسة.

الهواء عليل، أنعش الشيخ وعلي. غنى الأول، ورد الثاني، وعزف حفيف الشجر الأنشودة معهما...

عادا إلى البيت تعبين، غطا في نوم عميق، أفاق الشيخ متوتراً:

- صراخ امرأة لربما كان حلماً...

صعد إلى السطح، سمع الصوت ثانية، صوت حقيقي.... وليس حلماً. ثمة تجمع بشري في ساحة القرية. ما الذي يجري هناك؟

نزل إلى البيت ارتدى قمبازه بسرعة ووضع الحطة والعقال على رأسه.أفاق علي، فتح عينيه:

- أسمعت صراخاً يا شيخنا، أم أني أحلم؟

- أجل... تأكدت من الصوت،، صوت امرأة...و بشر

- ألهذا لبست؟

- أجل

ـ انتظرني إذاً

ـ اتبعني. دحّا الشيخ الباب وهرزف الشيخ نحو الساحة.

قفز علي من الفراش، لبس كساءه فوق السروال... كان الشيخ قد فتح الباب وخرج راكضاً إلى الساحة، شق تجمعات البشر، وتحمل نعرات ونهرات الناس، فتح طريقه بين الجموع، ووصل إلى الصف الأمامي.صبية مليحة الوجه معفرة بالتراب، وجه جميل رآه من قبل أين ومتى؟ حكّ رأسه بيديه حدق بها- رأيتها، شعر شلال، سواد متماوج أمامه، حملق في عينيها، عينان واسعتان سوداوان باكيتان ضاحكتان، العينان، الشعر الأسود المتموج، الوجه الذي شق الصباح، فغار منه، أين متى رآها؟!

حك رأسه ثانية، هي الصبية التي دبكت يوم عرسه، الساحرة الصغيرة التي أشعلت النار والجبل والدبكة والأيدي بشعرها الأسود الطويل، هي من جنن الليل والحضور، أجل كانت الأعين تنقض عليها، تأكلها من رأسها إلى أخمص قدميها، والأيدي تمتد وتقترب، تلامس أصابعها في حلقات الدبكة لم يبق أحد لم يتغن بها، ويسأل عن الملكة القادمة من البحار أو من السهول أو الجبال، سواه..

أجل تذكرتها، وكيف أنساها؟ وجسدي انتفض عندما رأيتها على رأس الدبكة، وشعرها الطويل يتطاير في السماء كلما هبت نسمة هواء، أوشغبرة ريح تلسع الوجوه، تلفح وجهها ولب الرجال، هاهو الشعر الأسود الذي جن الليل به، والنسوة غَيّرة منه، ينسل بين أصابع الجند يمرغ بالتراب، وبأصابع العسكر المتسخة.

صوتها يعلو ويعلو تصرخ من أعماقها، صوت حزين فاجر وعاجز.

الجميع يحدق ببصره في المرأة، نظراتهم مشفقة وحزينة، لكنهم صامتون خائفون مكبلو الأيدي ومعقودو الألسن، دموع النسوة أغرقت التراب حولته إلى وحل، وهي تصرخ تستنهض الرجولة والشرف والكل يتبادل النظرات نظرات الذل والهوان والخوف.

صرخت وصرخت:

ـ يا الله بحق مقدساتك وكل شفيع لديك أنقذني منهم، كما أنقذت صفية من قبلي بالموت. ماتت صفية بأيدي الجند، وتحول جسدها قبرها إلى شجرة سنديان. يا الله بحق أنبيائك ورسلك أمتتي أو انتشلني من أيدي الأوغاد والقتلة. مالكم يا رجال هل ماتت النخوة بينكم والرجولة؟

صوت هامس:

ـ الخادمة مازال صوتها عالياً، خادمة البكوات في المدينة ترفع صوتها، عديمة الشرف، ألا يكفيها زواجها من قاطع طريق قبل سنوات؟ والذل الذي لحقها، مازالت ترفع صوتها، تشتمني، وتشتمك، وتسب البكوات، والعسكر.. لتضرب هذه المرأة الفاجرة والسافلة، ليقص لسانها قبل أن تكمل شتيمتنا، ساعدت قاطع الطريق الذي سرقنا ونهبنا أعواما وأعوام، ثم تحولت إلى قاطعة طريق وسارقة، هي لبوة، وهاهو صوتها مازال عالياً يجأر، ولها عين بنت الشر..!!

رد الرجل عليه:

ـ هذا صحيح، لكنها جميلة جميلة.

ـ اللعنة عليها وعلى جمالها إنها كالوردة الجميلة، كالدفلى جميلة وسامة، انظر إلى عينيها تقدحان شرراً كحجر صوان.

ـ مسكينة يا مختار ماتت أمها.

ـ اللعنة عليها وعلى أمها وأبيها وسلالتها وساعة ولادتها، لو لم تكن هكذا لتزوجتها

سمع الشيخ الحوار، سأل المختار:

ـ ومن أي قرية هي؟

ـ من قرية اسماعيل بيك.

المسكينة تنظر إلى أهل القرية ترجوهم نصرتها ومعونتها وعندما يئست شتمتهم، لعنتهم وعيناها تترقبان بريق أمل من السماء، من الأرض، ممن

حولها . عيناها ضائعتان في الذعر والرجاء، ولسانها يدعو الله إنقاذها ـ ليكن سيفاً من السماء يقطع أيديهم، قبعة إخفاء تخفيها، آية من السماء تنشلها .

انتظار محفوف بلحظات موت مؤجلة، والموت أهون من اغتصابها ، عيون تقرأ العجز فيها . وجوه تكتم الغيظ والغضب، السنة معقودة بدأت تهمس - تشبه الفرس الأصيل في عنفوانها ومقاومتها .

والجندرمة العثمانية يضربونها ويضربونها ، يسخرون منها وهم يرطنون بلغة غير مهمومة لكنها فهمت من خلال حركات العسكر، يبصقون عليها ، فترد عليهم ببصاق وسباب. لكن ريقها جف، لم تعد تستطيع البصاق، وأصواتهم تعدها بالموت العاجل.. فتضربهم وتضربهم. اجتمعوا عليها أمسكوا يديها ، ضربت بقدميها ، قيدوا قدميها ، ضربت بشعرها ، لفوا شلال السواد بأيديهم. استمرت بالسباب والشتائم صرخوا بالتركية ثم عاودوا الصراخ بعربية مكسرة وثقيلة:

ـ سنعمل ونترك بك هنا على الملأ .

صراخ، عويل ذئبة مجروحة لم يعد صوتها مسموعاً، صمتت، أغمي عليها .

لحق الشاب بالشيخ المهاجر فوجده في مقدمة الناس.

ـ ما الذي جرى لبديعة؟

ـ انظر

ـ فقدت الوعي من الضرب!!

ـ وربما لأنهم هددوها بالاغتصاب.

ـ وماذا نفعل؟.. أتينا إلى هنا لأجل الفرجة وذرف الدموع عليها؟!! وهؤلاء الناس خائفون لن يجرؤوا على الاقتراب منها أو تخليصها ، ماذا نفعل؟ المرأة مهددة بالموت والاغتصاب. أشر علينا يا شيخ؟.

ـ لا أعرف لماذا يضربونها حتى الآن؟!!

ـ هي زوجة قاطع الطريق الذائع الصيت سليم، لها منه ولد، قتل سليم أو

ربما لم يقتل!! رجل صنديد

- سمعت عنه وما دخلها هي؟

- زوجته.

- وإذا كانت زوجته؟

- بلّغ المختار الجند عنها.

- وماذا جرى حتى اقتيدت بهذا التوحش؟

- حملت السلاح لزوجها ولا تزال تنقله إلى قطاع الطرق إلى الآن، اتهمها المختار بقيادة عصابات قطاع الطرق وأنها الأخطر بينهم، وذلك بعد محاولاته التحرش بها ومضايقتها، كسرت يده ذات يوم، وكادت أن تقتله في محاولة ثانية بعد أن بصقت عليه وضربته، ولم يتوقف عن محاولاته الخبيثة للإيقاع بها، فهو يريدها بالحرام أو الحلال.

ذهل الشيخ من قصة المرأة، فقد كانت أغرب من حكاية الجنية التي التقاها في المغارة، وطلبت الدخان.

امرأة جميلة كصبح ندي تحمل سلاحاً وخرطوشاً لقطاع الطرق، امرأة تجتاح الروح والنفس، تقطر حسناً، تتزوج قاطع طريق وتعيش حياة قطاع طرق وعصابات في المغاور والأحراش. أي امرأة هي؟ ثم تصبح قاطعة طريق. من أي أرض خرجت؟ وأي ريح مجنونة قذفتها؟ ربما كانت هاربة من زبد شلال فضة انشق من بين الصخور، ووصل رذاذاً تجمع حسناً وألقاً ورشاقة، اسمها بديع كدبكتها يوم عرسي، حين هرب الجميع من الاستمرار في ضرب الأرض معها. الأيدي المدماة، الأنامل الساحرة التي توحي بأنها مخلوقة لأجل التلويح ورسم الأشكال البديعة من القش!

- يا شيخ يا شيخ!

تنبه الشيخ إلى الشاب:

- ماذا؟

- سيثلمون شرفها، بدؤوا بتمزيق ثيابها

صمت الشيخ، نظر حوله، قطب حاجبيه ومشى باتجاه الجندرمة، صرخ:

ـ من المسؤول هنا؟

فرد عليه أحدهم:

ـ أنا وماذا تبغي؟

ـ تعال لنتفاهم.

ـ وقتك؟!

ـ تعال لن تخسر شيئاً اسمع حديثي وقرر ما تشاء بعده.

اقترب رئيس الدرك، أمسك الشيخ من صدره وصرخ:

ـ ابتعد أيها الشيخ، أراك فيما بعد.

طلمس الشيخ حاجبيه، تعذمر

ـ اسمعني أولاً.

ـ ألا ترى هذه المرأة (الشموص)؟

تعذمر الشيخ:

ـ اسمعني

تنفط قائد الدرك، ركله، قوة خفية رفعت يد الشيخ، وامتدت إلى رقبة الدركي، وكاد أن ينتزع روحه. صوت من أعماقه من أعماق أعماقه:

ـ الدم في الطرقات والمساجد وفوق البوابات الخشبية، الدم في كل مكان... ولن أسمح بإباحتة ثانية. صرخ:

ـ لو مددت يدك، أو رفعت إصبعك في وجهي، أقسم بالمنتقم الجبار، لأجعلنك عبرة.. تمشي وتحدث نفسك في البراري... أو أجعلنك ضميلاً، كسيحاً أفهمت؟!! لا تلم إلا نفسك، أكلمك كالبشر أجبني كالبشر. ضغط بأصابعه من جديد. وكأن الأصابع قد أحاطت رقبته، وامتدت إلى رقاب الجند. حاول أحدهم التملص من تلك الأصابع الممدودة وخرطش البارودة أتته ضربة من ظفر الشيخ أحس الدركي أن يده شلت، تزيّغ الدركي:

ـ من أنت؟

- أنا من يشعل الأرض تحت أقدامكم ويحرقكم، وينزل غضب الله عليكم، أنا من أدعو عليه لن ينجب بعد اليوم، أنا من أضاء الله طريقه، ونور خطاه ووجهه. صور أسماء تتلاحق، وجه ،صور، سيف بيده، دم يتطاير، دمه، دم من معه، بهذه الأيدي قتل... عندما دخلوا هذه الديار. استشاط غضباً، صرخ: - سيأتيكم الموت من حيث لا تدرون... تلك الصخور ستنقلب فوق رؤوسكم، ستتحول إلى خناجر تصوب عليكم، وسيوف الله تجز رقابكم... أين تفرون؟!! صرخ الشيخ صوتاً اهتزت الصخور والبيوت معه، أجفل الدرك والناس ومعهم الخيول، جمد الدم في العروق، وكأنها قيام الساعة.

تمالك دركي نفسه، مد يده إلى رئيس الدرك لكشه محذراً .والناس غائرو البصر، ذاهلو النظر من الشيخ الهادئ الرزين التقي، الذي ارتجف غضباً، وهذى:

- أيديكم ملطخة بدمائنا المسفوكة، جثثنا طفت فوق ماء النهر، واختلط الدم بالماء، لوّن المدينة. جثثنا هناك في القلاع... ستُنبت رؤوساً شابة..تُميد الأرض من تحتكم.. ستنتشر حولكم كالفطر، وتتحول إلى نباتات سامة تقتلكم.

رطن رئيس الدرك بالتركي ، لم يفهم الشيخ ما قاله ، وكان ذلك ظاهراً على ملامح الشيخ، كانت اللغة بينهما مفقودة ، طلب الشيخ من رئيس الدرك الكلام باللغة العربية ، فأعاد رئيس الدرك الجمل بلغة فصحى بالكاد تفهم:

- أرجوك أيها الشيخ فك رقبتي.... لنتفاهم. نظر إلى المختار ليتوسط له، لكن المختار أدار وجهه خوفاً من الشيخ.

اندفع علي بين الجموع:

- يا شيخنا لا تمسه فأنت أرفع مقاماً

أفلت الشيخ يده عن رقابهم. تنفس رئيس الدرك ومن معه الصعداء. همس رئيس الدرك بإذن دركي قريب منه:

- كأني سمعت بالقصة التي رواها الشيخ. شرد قائد الدرك ثوانٍ

ـ من الشيخ؟

ـ ابراهيم المهاجر. لا تمسه أتوسل إليك، لن يحصل طيب، وسأخبرك قصته فيما بعد. شرد قائد الدرك لثوانٍ ـ عرفته عرفته رقبتي لا تتحرك

صرخ الشيخ في وجه المختار:

ـ أنت تقف كأبله وهم يريدون ضربي واغتصاب المرأة.

صرخ أهل القرية:

ـ إذا اقتربت يد منك سنكسرها

حرك الشيخ يده وصرخ

ـ ماذا قلت يا قائد الدرك؟!

اقترب علي من رئيس الدرك، فصرخ الثاني به أن يبتعد، رد عليه علي:

ـ لو رفعت يدك، ومددتها نحو الشيخ، لن تخرج حياً أنت ومن معك، ولن يدخل بعد اليوم دركي إلى هنا.

رطس قائد الدرك الشاب: ـ اصمت أيها الوغد.

ـ لن اسكت، واحد مثلك بلا دين ولا إيمان لا يفرق الحق عن الباطل، ولا يفقه من يكون الشيخ ابراهيم المهاجر

تذكر قائد الدرك ما سمعه من قبل عن ظهور رجل، شيخ يخشاه الناس، وليٍّ، يقال عاش أجيالاً وأجيال، ظهر فجأة من مئات السنوات. ولكنه لم يسمع من قبل بأن أحدا عاش أجيالاً. إنها هرطقة، ورقبته؟أصابعه؟ التي امتدت وكادت أن تخنقه.

نظر إلى الدركي الذي أمسك يده فجأة، كان الأخير يرتعد خوفاً، ناداه قائد الدرك

ـ أتعرف الشيخ؟

ـ أجل يا سيدي يقال من أهل الخطوة وله كرامات كثيرة.

ـ ومثل هؤلاء لديهم كرامات؟

ـ لا يخلى البشر. سمعت العجب عنه، أتوسل إليك لا تمد يدك عليه.

صفن قائد الدرك وهل أجرؤ على الاقتراب منه؟ مع أنني قتلت رجالاً شجعاناً بشوارب وأسلحة، وسجنت رجال دين، ولم أواجه بحياتي برَجل كهذا الرجل،وجهه مضيء يشع نوراً، صوته قوي خاشع وساحر.لأجل هذا خرست!!.. لم أرد عليه.. ماذا أعمل الآن؟! ربما كان من المقربين إلى الله يبتليني بعاهة لدي ولأولادي... علي الحذر والتصرف بحكمة.

سمع صوت الشيخ من جديد:

- ستميد الأرض من تحتكم

حدق قائد الدرك في وجه الشيخ.. أجفله الخوف، وسرى الوجل في عروقه.

- ماذا تريد أيها الشيخ؟

قال جملته بالعربية ولكن نطقها بصعوبة كبيرة.

- إلي أين ستقتادون هذه المرأة المسكينة؟

ـ أيها الشيخ الجليل هي فاجرة وشيطانه، قاطعة طريق سارقة وسنقودها إلى السرايا.

- وهل رأيتها تسرق، أو تقطع الطريق بعينك؟!!

- لا

- إذاً لماذا تقتادها؟!

- وصلتنا إخباريات عنها..

- وشايات وافتراءات. لن اسمح باقتيادها أو محاسبتها على ذنب اقترفه زوجها، ذنبه وليس ذنبها، هو القاتل وقاطع الطري.

- وهي هرّبت الخرطوش، وما تزال تهربه إلى قطاع الطرق.

- لم ترها بعينك!! فهذا يعني إخبارية كاذبة ملفقة، وربما كانت انتقاماً منها أو من زوجها، أو لعله طامع بها.. هي جميلة وصغيرة كما ترى!!.

نظر المختار إلى الشيخ، ثم اقترب من قائد الدرك:

- ماالذي تقوله يا شيخ؟!

ـ الذي سمعته.. وشايات.. ادعاءات..

ـ لا

ـ أأنت الواشي؟

ـ أبداً.

ـ إذاً اخرس.

فوجئ المختار برد الشيخ الصارم، وكأنه إيذان بالكشف عنه. رجع إلى الوراء واختفى بين الرؤوس الأعناق المشرئبة نظرات الشيخ الثابتة أخافته، ولن يجرؤ على النظر إليه ثانية.

توجه الشيخ إلى قائد الدرك التركي:

ـ سمعت المختار؟

خاف الدركي:

ـ أُقسم هو من فسد عليها

ـ رجل مخادع وكاذب. والآن ابحث عن طريق تُنجي به المرأة المسكينة، وسأدعو لك، أتكفل بطلباتك.

ساور المختار القلق، اقترب باتجاه قائد الدرك، ووقف خلف الشيخ ليسمع الحديث الدائر بينهما، أخفض الشيخ صوته وكذلك قائد الدرك:

ـ لا أستطيع أيها الشيخ معي درك.

ـ أعطيك ما لدي من الذهب.

ضحكت أسارير قائد الدرك، ولكنه احتج بتعفف:

ـ أيها الشيخ سيسجنونني بدلاً عنها.

ـ هكذا إذاً.. نادى الشيخ بأعلى صوته:

ـ أيها الناس! هذه المرأة زوجتي على سنة الله ورسوله، وإذا مسها سوء أو اقترب منها أحد، فإنني سأقطع يده وأقتله، وأرفع شكوى إلى المركز والسلطات العليا .اسمع يا قائد الدرك إن مسستها أنت أو أحد جنودك، سأدفع المنطقة إلى العصيان. وقف الشيخ ومد يده ـ إذا اقترب أحدكم منها سأقتله

صرخ من جديد:

- أتسمحون للدرك المساس بعرضي؟!!

صرخ الجميع:

- على جثثنا يا شيخ

صمت الشيخ فرفع علي صوته يستنهض الهمم ويبث روح النخوة والشجاعة الثاوية، يوقظها من نوم عميق عمره عمر أجيال، قتلى وأموات...

- هي زوجتي، وأنتم تعتدون عليها

صرخ أهل القرية:

- نحن شهود

التفت الشيخ إلى قائد الدرك:

- ارفع تقريرك إلى المركز، الأخبار كاذبة، والمرأة زوجتي وأنا أتكفل بالباقي

مد الشيخ يده إلى جيب قمبازه، وأخرج القطع الذهبية، فطلب قائد الدرك إبعاد الناس عنهما كي يقبض المجيدات الذهبية، طلطلّه الشيخ:

- ما تقول للسرايا؟

- أخبار كاذبة

اقترب الدركي الذي حذر قائد الدرك من المساس بالشيخ: هي امرأة أولاً وأخيراً، لماذا نشعل الحرائق والنيران تحت أقدامنا وفي وجوهنا؟ ونحن أول من سيحرق بها! خذ المجيديات، واطلب من الشيخ أن يتكفل بها و يكفلها كي لا تعود ثانية إلى قطاع الطرق... سأتحدث معه.

وزع المجيديات الذهبية، ثم أسرَ قائد الدرك للشيخ:

- أرجو إبقاء الأمر بيننا، والمرأة تبقى معك زمنا، قد يرسل المركز دورية أخرى لتتأكد من التقرير الذي سأرفعه، أتوسل إليك امنعها من العودة إلى قطاع الطرق.

- ومن سيقول لهم؟

ـ المختار

ـ لا تخف اذهب أنت وجندك. هذه الأكتاف تحمل أثقال السنين وطعنات السيوف والخناجر، لو رأيت جسدي... وخزات الخناجر والسيوف مغطاة بقشرة من أوراق الجوز والعنب والتين. هذه الجلدة والقشرة تخفي أسراراً، و ذرات أرواح ذرتها الريح، ريح من الله، علقت هنا ورسمت وشم أزمان وأجيال.

قامت بديعة نفضت الغبار عن ثيابها الممزقة ومعه قلق الجسد من العري والاغتصاب، تناولت منديلها، نفضته ولفت رقبتها وجسدها البض الذي أضاء الثياب والغبار، غطته بالمنديل

عيناها غائرتان في مجهول لا تعرف كنهه، وذلك القدر العصي عن الرؤية، ماذا يخبئ لها؟ والشيخ الجليل الذي ستر عرضها ..؟.أم قدر أهوج يقتلعها من هنا، ويرميها في بقعة ترابية أو مائية؟. كم تمنت أن تتحول إلى عصفورة في السماء يطاردها الصيادون... تلاعبهم، فهي الآن أعجز من نملة، ليتها كانت نملة لحفرت الأرض، واختفت في ذرات التراب.

أقدارها الغامضة تقودها من مكان إلى آخر، ومن حزن لحزن، ومن هروب إلى هروب، لم يبق عملٌ إلا وقامت به، صنعت أطباق القش وسلال التين، وعجنت التراب الأحمر حولته إلى جرار والقماش إلى لُعب. ونامت كذئبة في البرية، أكلت الأعشاب الضارة والنافعة، وقبل قليل فقط امتهنها الجند، لحظات وعرضها سيهتك ويثلم.جمالها نعمة أم نقمة؟ قيد أم حرية؟وربما نقمة ونعمى، قيد وحرية!!

اقتربت بديعة من الشيخ، استجمعت قواها، قبلت يده وانحنت لتقبل قدميه، أمسكها الشيخ من يدها، ورفعها برفق:

ـ أستغفر الله

ـ أنقذت عرضي يا شيخ، وسأخدمك إلى آخر العمر.

ـ لا تشكريني.. الله قادني إلى هنا لحكمة عنده، اتبعيني

سار الشيخ وهو صامت، تبعه علي ثم بديعة، اجتمع حوله أهل القرية،

أثنوا عليه وشكروه وقبلوا ثيابه، ويديه.

- هو الواجب.

مشى بسرعة، ترك أهل القرية في لغطهم، ودورانهم حول أنفسهم. طلب من علي بيتاً مؤقتاً للسكن، وشيخاً يعقد عقاده، ويعلن زواجه على رؤوس الأشهاد.

تدبر الشاب أمر البيت والشيخ، وبعد الانتهاء من عقد العقاد، نادى الشيخ بديعة إلى الغرفة الثانية بعد أن اعتذر من علي

- لن أمسك، أو ألمسك قبل معرفة زوجتي،ومعرفة أخلاقك، وموافقتك على زواجي، وأنت راضية مقتنعة

لابدا فع الواجب ورد الجميل.

- يا شيخ أنا خادمتك، أغسل قدميك مدى الحياة دون زواج.. فكيف وأنت شرفتني، وطهرتني بهذا العقد الزوجي؟

- سمعتك من سمعتي، أتفهمين!!؟

نظرت إليه ذرفت الدمع الحارق:

- يحق لك يا شيخ،أن تظن بي الظنون، قل ما تشاء، فأنا خادمة وزوجة قاطع طريق وزوجتك ابنة اسماعيل بيك.

- لا أظن بك سوءا. من باب التأكد والتأكيد على الاتفاق في أول الطريق، زوجتي وأبوها لا علاقة لهم بالأمر، بيت القصيد ليس هنا كما تعتقدين.

- ماذا قالوا عني؟.

ابتسم:زوج قاطع طريق،وقاطعة طريق،أخت الرجال وساحرة في جمالها ولفتاتها ودبكتها. اعتني بقروحك وجروحك سنكمل فيما بعد.

تركها في الغرفة تردد ما قاله الشيخ عنها، وفرحة غامضة دخلت في متاهات حزنها وخوفها.

جلس الشيخ وعلي، سهرا معاً، طلب الشيخ من بديعة النوم في الغرفة الثانية.

في الصباح الباكر لبس الشيخ وذهب إلى البرية أحضر أوراق شجر العسبق، وبعض الأعشاب دقها طحنها، وأتى بقطعة قماش نظيفة وضعهما بها ، نادى بديعة لف بعض القروح وأعطاها بعض الأعشاب لتضعها فوق القروح الداخلية

أتى بفرسه، وساعدها في امتطائها، ودع علي وانتقلا إلى البيت الجديد، وصلاه متأخرين.بيت لا يختلف عن بقية البيوت الترابية، وكم تمنى أن يكون بيتاً صخرياً مجوفًا من الداخل بأخاديد، اسمها نوافذ وأبوابه خشبية ليعرف كيف ركبت، وتداخلت مع الصخر

البيت غرفتان كبيرتان، آثار النار على الجدران رسمت أشكالاً يصعب تفسيرها وحلها، نوافذه صغيرة وعالية.

تفقد محتويات البيت فرشتان من الصوف، بساط متواضع، وسادتان، قدرا نحاس ،جرتا فخار، صحنان نحاسيان، وأربع صحون فخارية، ملاعق خشب.

ناداها :

نامي وارتاحي، وأنا ذاهب إلى بيت علي لأسهر مع رجال القرية.

توافد الجميع إلى بيت علي، وكلٌ لديه سؤال للشيخ يريد أن يسبق غيره ويتلكأ به، والشيخ يتفرسهم ويداورهم، نطق الأول بسؤال متلجلج:

- لماذا تزوجت بامرأة لا تليق بك؟

وآخر:

- أنت لا تعرف عنها شيئاً

والجميع في قلبه حسرة تلك المرأة، أخذتها الريح إلى الشيخ بجمالها وعنفوانها وصوتها الجميل، وأصابعها التي تغزل ذهباً وفضة ومواويل عتابا .

- الظرف وإرادة الله شاءت أن أتزوجها ، لن أسمح بالاعتداء عليها وثلم شرفها أو سجنها . نحن بشر مؤمنون. عار ووزر نحمله أن نترك امرأة بين هؤلاء الأنجاس يقتصون منها ومنا ، وعيوننا تراقب ما يجري، وآذاننا مسدودة

عن صراخها، نقف نتفرج عاجزين عن الدفاع عنها، أو مساعدتها هذا حرام، ولا يجوز لا بالدين ولا بالدنيا، لم يكن من حل آخر، الله سبحانه أرشدني إلى الحل وهو العالم بالسرائر والقلوب.ما رأيكم أن يقال: ـ بحضور الشيخ المهاجر اغتصبت، ثُلِمَ عرض امرأة، وهو واقف يتفرج!!؟

فردوا جميعاً:

ـ الحق معك

ـ لن أمسها قبل معرفة زوجتي والتعرف عليها والتأكد من أخلاقها، لن أُدخلها إلى بيتي، وأسميها امرأتي إذا لم اقتنع بأخلاقها، وتوافق على الزواج بإرادتها، لن أُكرهها على شيء، والله على ما أقول شهيد.

فكرتُ بإيداعها عند أحدكم، تراجعت عن الفكرة، سأراقب سلوكها، وقد وعدت صاحب الدرك أن أعاملها كزوجة شكلياً لأنه يخاف إرسال دورية تتقصى الحقيقة، وإقامتي معها لا تعني أني ألمسها، فإذا عجزت عن كبح رغبات جسدي، فأنا لا أستحق أن أكون الشيخ المهاجر.

والآن أنتم هنا وهي غائبة هل سمع أحدكم عن سوء أخلاقها؟

أجاب الجميع:

ـ لا يشهد الله

ـ إذاً لا يوجد عيب فيها

قال أحدهم:

ـ كانت خادمة

ـ أبوها من أخذها إلى الخدمة

ـ صحيح

أردف آخر:

ـ كانت صغيرة عندما خدمت في بيت أحد الذوات الأتراك بالمدينة، وقد قبض والدها ثمن خدمتها

ـ لا علاقة لها بقدرها الأحمق، ثم استغفر به

ـ تقول الحقيقة

ـ وهل سمعتم عن سوء أخلاقها فترة خدمتها؟

ـ لم نسمع شيئاً ـ المدينة بعيدة، أبوابها موصدة،ما يحصل في تلك البيوت يبقى رهينها، مطموراً، لا يعلمه سوى أصحابها، ومن يخدم عندهم، ولا أحد منا يجرؤ على الاقتراب.

من يقترب منهم يضرب، يجلد، أو يسخرون منه، ينظرون إلينا كحيوانات تأكل وتشرب، وتحصد في السهول، وتخدم في البيوت، ولولا تحريم أكلنا لضحوا بنا في الأعياد، حَذرون منا، وحذرون منهم، خائفون منهم، وهم يمتطوننا كخيولهم.

أخرج الشيخ ساعته الدائرية من جيب قمبازه الداخلي، نظر إلى الساعة إنها تقترب من الواحدة، والسهارى بدؤوا بالانسحاب، ودع الشيخ ما تبقى منهم، وتوجه إلى بيته الجديد، وسؤال ملح يعشش في رأسه، هل فعلتُ حقاً ما يرضي الله؟!! أم أن شيطاناً أوعز لي بذلك؟!! استغفر ربه: المرأة مسكينة فقيرة وحيدة لا عون لها ولا سند إلا الله، والله سبحانه رماني في دربها كي أنقذها من السَّجن وهتك عرضها، وإذا كانت إيماءات شيطانية!!؟

لا لايمكن، قدرٌ ساقني إلى هذه القرية وسمّر قدمي وجسدي، لأطيل إقامتي، إنها إيحاءات رحما نية، وماذا يقول الناس عني؟ تزوج من زوجة قاطع طريق!!؟ أنقذها من الموت ،خلصها من براثن الأشرار، وبعد حين..تزوجها لأنها جميلة أعجبته، وتنتقي الذاكرة ما يروق لها، وتلقي في مكان وزاوية ما من رؤوسهم وأرواحهم، جبنهم وخوفهم، رغبة الناس بالتخلص من ذاكرة ذليلة.. تقذفها إلى أقرب خربة. الناس تتكلم، وستتكلم والله هو العليم بالقلوب.

وصل الشيخ إلى البيت، وهو يكلم نفسه، دفع الباب وولج الدار، رأى المرأة مبرثطة فوق حجر كبير تراقب الباب، وعيناها شاردتان. ابتسم:

ـ مساء الخير، ادخلي ونامي، أنت مرهقة مريضة، وتحتاجين إلى الراحة، وضعت الدواء على القروح؟

- أجل يا شيخ.

- أتحسين بألم؟

- وجع خفيف، وهاأنا أشفى منه الآن.

ابتسم من جديد:

- بإذن الله ستشفين خلال يومين أو ثلاثة

- نسيت اسمي يا شيخ.

- اسمك بديعة

- انقطعت أنفاسي خوفاً من نسيانك اسمي

- لماذا لم تنامي إلى الآن؟!

- قلقت، جافى النوم عيوني

- من الألم أم هناك أشياء أخرى؟

- الألم محمول، كنت أفكر بما جرى معي، أي نحس يطاردني وحظ أحمق أحمله، أتعثر به؟

- اطردي هذه الأفكار من رأسك، فيما بعد نرى إن كان النحس يلاحقك أم تختارينه وتلحقينه.

- وهل الإنسان يختار حياته؟

- لا، الإله سبحانه يسبب الأسباب، ويترك لنا مفارق طرق ونحن نختار، كل يتعامل مع الأسباب، والسبل بشكل يختلف عن الآخر.ارتاحي ونامي. كانت الأيام الماضية صعبة ومتعبة وقاسية.

دخل الشيخ إلى غرفة التراب الكبيرة، نور السراج شاحب، بصيصه بصيص زيت شارف على النضوب، والغرفة تئن عتمة وكآبة، كآبة روح لا تحتمل هذا الأسى والوجع، دوائر النوافذ تخفي نجوم السماء ونورها، والحيطان السوداء تبعث ظلمة في المكان والروح والجسد، وبؤساً لا يدركه إلا هو الجالس في لجة المكان والزمان المقهور والظالم. دخلت بديعة وراء الشيخ مدت له الفراش، ثم خرجت إلى صحن الدار أتت بالماء، ووعاء نحاسي وضعته

قرب الفراش، وكأن نوراً يقودها في هذه الظلمة تمشي دون أن تتعثر أو تقع.

- اغسل قدميك يا شيخ

رانها، كانت تعض شفتيها ألماً- تتوجعين أيتها المرأة بصمت غريب، صمت امرأة مؤمنة وصابرة، تعضين شفتيك، وتبتلعين وجعك وصراخك. رفع صوته:

- إذاً تتوجعين؟

- قليلاً

- انهضي...واهجعي إلى النوم

- اغسل قدميك أولاً

- لا

أصرت بديعة، ودنت من قدميه، وانحنت ووضعتهما في الوعاء النحاسي غسلتهما، وقامت بصعوبة مشت لاحظ العرج الخفيف أدار رأسه متذمراً

- ما بها قدمك لماذا تعرجين؟

- لاشيء صدقني، لاشيء، العرج من البرثطة. حَملت قطعة قماش نظيفة، ناولتها للشيخ

- من أين أتيت بها؟ البيت يمور بالوسخ..ويتماوج بالفوضى...

ـ تدبرت أمري غسلت قطعة قماش ونشرتها، ثم نشفتها على النار غسلت ثيابك أيضاً. غداً تبدل ملابسك لأغسلها.

- لا تتعبي نفسك، أنت مريضة وجروحك ما تزال طرية، وجسدك متعب ومنهك.

- اعتدت التعب، فالراحة لمثلي تعب، ولدت وولد معي الشقاء

- ما حصل كان قاسياً جداً، خفت عليك.

- وخفت عليك.. كلمة الخوف قليلة، مت خوفا وهلعاً أن يمسسك أذى، أي أذى، يضربوك يشتموك... هم لا يخافون الله.. ولن أسامح نفسي لو تسببت لك بالتقريع والبهدلة أو أن تمس كرامتك وتهان، مكانتك رفيعة سامية يا شيخ، مقامك عال في السماء. لن تتعرض للإهانة من العسكر بسببي.

- كيف تحملت الضرب والجرجرة والسحل؟

- اعتدت... تدحرجت فوق الصخور التي تشهد علي هي وثيابي الممزقة وهذه الحجارة التي أدمت قدميّ وجسدي، لن اكذب عليك، تألمت كثيراً أحسست أنه آخر يوم بعمري وكنت مستعدة للموت على الخازوق أو بأي شيء آخر إلاّ استباحة وهتك عرضي في الساحة.. عار يلاحقني ويلاحق ابني، آه يا شيخ بدني تحول إلى قطعة ثلج ثم نار، جف حلقي، لم يعد فيه ريق ابتلعه.

- لذلك بقيت تصرخين حتى وقعت مغشياً عليك.

- الصراخ دفاع عن النفس من النفس، من الناس الذين يتفرجون، لعلي أبعث النخوة في أرواحهم الميتة، قد يدافعون عني، وقبل ذلك تقيأت وتقيأت، أنت لا تعرف معنى السفاح، ولحظات ما قبل الاغتصاب، الخوف التقزز انكماش الجلد والنفس، الاندفاع إلى الإغماء هروب من الحياة إلى الموت، انتزاع الروح بيدي.. قد أنقذ.. لكني كدت أموت فعلاً قبل صراخك. صرخت وصرخت، عيناه جسده المتقوس السمين، عضوه الصغير المنتصب. أغمضتْ عينيها حكّت وجهها بعصبية، وصرخت شدت ثيابها تريد تمزيقها، أمسك الشيخ يديها، شُده من منظرها وانتابه الخوف، ما الذي يجري لهذه المرأة جنت؟.. ربت على كتفيها، ناولها الماء، صمت قليلاً:

- بديعة بديعة اهدئي

هدأ صراخها شيئاً فشيئاً، تلاحقت أنفاسها، ارتجف جسدها، شربت الماء غباً، سكتت برهة:

تكلمت بصوت مذعور قادم من البعيد:

- عفوك يا شيخ، سامحني لم يكن الأمر بيدي

حدق الشيخ بها وضع يده على جبينه فركه، أسئلة كثيرة جالت فكره ما الذي جرى، ويجري لهذه المرأة؟ وبماذا شعرت حتى تتحول إلى امرأة شبه مجنونة؟!! أي خطب فظيع تعرضت له، وتذكرته الآن؟

قطع تساؤلاته الضمنية بالالتفات إليها، لعله يفهم شيئاً

ـ هل ارتحت الآن؟

ـ قليلاً .

ـ أتستطيعين الكلام؟

ـ أظن ذلك.

ـ كيف تزوجت قاطع طريق؟

ـ قصة طويلة، سليم شاب شجاع جريء، رجل رجل

ـ أكان قاطع طريق عندما تزوجته؟

ـ نعم كان يقتل الدرك، ولم تخب ضربة من ضرباته، يضرب بلمح البصر، يضرب ضربته ويتوارى، قدرة خفية لديه، يظهر ويختفي، لم أر في حياتي رجلاً خفيف الحركة ورشيقاً مثله، كان يسابق الريح تسبقه حيناً و يسبقها أحيانا، يعتلي الخيل بومضة عين.

ـ كيف قبضوا عليه؟

ـ غدراً وخيانة من أقرب المقربين خاله.. في يوم سأحكي لك الحكاية فهناك أمور غامضة لا أعرفها وسأعرفها، وأعتقد لأهل زوجتك علاقة وخيط بها .

ـ كيف؟!

ـ لا أعرف عندما تحل الخيوط الغامضة التي حيكت لقتله وتثكلي، أقول لك

ـ ننتظر خيوطك..!! أخبريني متى ماتت أمك؟

ـ منذ زمن قصير. أتعرفها!؟

مررت ذات يوم إلى قريتكم ودخلت بيت أمك، أهدتني طبق قش لم تر عيني أجمل منه، لا يزال معلقاً في بيتي، ثم رأيتك

ـ في عرسك!!

ـ دبكت، رقصت، وغنيت

ـ كان ذلك منذ دهر، دهور عندما كانت بقايا الحياة والفرح تنبض في

صمتت وكذلك فعل الشيخ، رفع بصره إليها، عيناها مليئتان بالدمع مسحتهما وتاهت في شرودها، فكر الشيخ: أحدثها وأقطع صمتها استغراقها؟ عم أكلمها: عن زوجتي؟ حديث مضحك، وفجأة بدأ بالكلام وراح ينتقل من حديث لآخر دونما انسجام، وكأن لحظات الصمت أصبحت عبئاً يرهقه:

- كيف جروحك الآن؟

- أفضل

- غداً أمضي وأجلب لك المزيد من أوراق العسبق والأعشاب التي تساعد على التئام الجروح، وتداوي القروح، وتهدئ الوجع، كأنك تتألمين كثيراً وتكابرين؟

- اعتدت على الألم والوجع يا شيخ، ألم اقل لك؟

- اصبري إنشاء الله في الصباح الباكر أحضر الأعشاب..إلى خدرك

قام، وحمل الفراش واللحاف..

- إلى أين؟

- الغرفة الثانية.

أقسمت الأيمان بأن يبقى مكانه وينام فوق الفراش الذي مدته له حاولت انتزاع الفراش منه رفض، حمله إلى الغرفة الثانية، لحقت به

- أقسمتُ ألا تنام هنا.

- هذه الفرشة واللحاف لكِ، سأنام هناك.

بكت ونظرت إليه نظرات حب، إعجاب، دهشة، الله أعلم.اختلطت عليها:

- أنت تمد الفراش، هذا كرم لا أستحقه

- تستحقينه لا تبخسي نفسك حقها

تركته بديعة... الغرفة فارغة إلا من الجدران الترابية المتشققة، والهواء البارد الذي ينخر عظامه، عادت بديعة و أحضرت بساطاً ممزقاً مدته، حمل الفراش، ووضعه فوقه، وهو ينظر إليها نظرة تعجب

ـ فتشت البيت فوجدت هذا البساط

ـ فكري بما نحتاج تصبحين على خير.

أقفلت بديعة عائدة إلى مخدعها الجديد.

تمدد الشيخ فوق فراشه بعد أن تركته بديعة، تأمل الجدران والسقف والنوافذ المرتفعة، وأسئلة تقلقه يعلقها فوق الشبابيك، من هي بديعة المسكينة؟ وماذا حصل ويحصل معها؟ كل ساعة بحال باكية ضاحكة، متألمة فرحة، لعلها تنتزع الفرح والضحكات من مكان آخر وعالم ثان كي لا ترهقني، من هي هذه المرأة؟ وأي آثام أو خير تحمله في بواطنها؟ وذلك الشعر الأسود المتناثر فوق وجنتيها ووجهها أين يتوجه؟!! قبل مدة كان بيد الجند يلفونه على أيديهم وأصابعهم القذرة المتسخة، ويرطسون الوجه الصبوح

وجهها صبوح كندى الفجر كشق الصباح بعد ليل دامس حركته السريعة، لم يقدر تعفيره بالتراب وغردقته به على الغض من ألقه.

المسكينة جسدها ممدد والجند يسحلونه يمسحون الأرض والحصى به، فأرسل الله الغبار كي يغردق جسدها فلا يراه أو يلمسه أحد.

تقلب الشيخ في فراشه صورتها لا تفارقه، تخيل أناملها تغسل سنابل القمح (القش) تصبغه، تغرز المخرز في القش في فؤادي، وترحل بعيداً مع سنابل قمحها الملون، ترسم أمواج البحر تتذكر رحيل والدها أو تبل القشة بالماء وبريقها، وتلفها فوق بعضها البعض،أجمة أشجار يتعمشق عليها الورد الذي زين رأسها وشعرها يوم عرسه. سبحانه أعطى هذه المرأة الجمال في الوجه واليد، كل ما تقربه يتبدل يغتني يَفتن، هناك حكمة إلهية من تعثري بها، تعثرها بي. هل داعبها النعاس وغفت الآن؟!! أم أنها تتقلب وجعاً وحسرة؟!! أم غطت في كوابيس المغاور التي تلاحقها؟ نهض ليطمئن عليها، تراجع وعاد إلى فراشه من جديد ماذا تظن بي!!؟.

ـ كم بقي من الوقت ليبزغ الفجر، ها أنا أتقلب يميناً وشمالاً والوجع ينتقل من قدمي إلى ركبتيّ إلى جسدي، أنام على وجهي يؤلمني بطني وصدري،

ألمٌ يشبه تقطيع الجسد بالسكاكين، أقلب على ظهري أسمع طقطقة عظامي ووخز إبر فيها .. والأفكار تطير، تحملني بعيداً وتعيدني إلى هنا، الشيخ تزوجني لينقذني: زواج شكلي، ومن أنا خادمة عند بكوات المدينة، أتحول إلى خادمة لابنة اسماعيل بيك، كيف أقارن بسليلة الحسب والنسب؟ لن أكون سوى خادمة لها، ليكن من أجل الشيخ، كيف لي خدمة الوغد اسماعيل؟ تعودت الخدمة، خدمة ذلك الكلب الأجرب في المدينة!! خدمة النذل. أشرح شكوكي وهواجسي للشيخ و دور اسماعيل بيك في مقتل سليم، سيفهمني ولا يرغمني على السكن مع ابنته.

إنها شكوك فقط، هي حقيقة ،هو من وشى بزوجي!! ماهو دليلي وحججي وبراهيني؟! بعض الأقاويل وإحساسي، لأصمت وأسكت، قد يأتي يوم وأجد الدليل الدامغ ضده، عندئذ أكشف للشيخ من يكون عمه!! ياالله كيف لي خدمة ابنة قاتل زوجي والمدبر قتله؟ هو من رسم المكيدة مع خاله، سلمّاه للموت عمداً. الشيخ أنقذني وستر عرضي، ماذا أفعل؟ يا الله ساعدني بلبلة في أفكاري وأحاسيسي، شكوك هواجس أغرق بها، بئر بلا قرار.. بدأ الفجر ينبثق من ظلمة الليل، وصوت العصافير يؤذن ببداية يوم جديد، يا الله لا تجعله يوماً كسيحاً أجرب كباقي أيامي.

لم ينم أحد منهما، قامت بديعة من فراشها رغم الآلام المبرحة، فتحت الباب وتوجهت لله بالدعاء: بحق الخضر الأخضر استرها معي،واجعل أيامي أحلى. أشعلت النار في الحطب، سخنت الماء كي يغسل الشيخ وجهه ويديه، ثم غلت الحليب الذي حمله الشيخ ليل البارحة.

طرقت الباب الخشبي المثقب لغرفة الشيخ وسنت الباب بيد ،وبيدها الأخرى الحليب

الفراش فارغ خرجت إلى الدار تتعثر بخطاها المتعبة، المترهلة، رفعت رأسها إلى السطح وأطالت النظر، لمحت الشيخ يذكر ربه.

أحضرت الماء، وضعت الفطور في صينية قش قديمة، نزل الشيخ فوجد

الماء الساخن، غسل يديه ووجهه، حملت الفطور إليه، ناداها لتأكل معه امتنعت، أقسم، جلست قبالته تناولا الطعام معاً، وجهها مخضب بحمرة الخجل، مما جعل الشيخ يطرق في الأرض.

رفعت رأسها تطلعت إلى الشيخ أحس بها

ـ لا تقارني بين طبق القش هذا، وأطباقك الملونة الجميلة

ابتسمت خجلة من إطراء الشيخ، حملت قطعة قماش وماء ساخن وناولتهما للشيخ، مسح يديه وفمه، وشكرها

ـ يا شيخ لا تجبرني ثانية على الأكل معك

ـ لماذا؟

ـ لا يجوز جلوس امرأة مثلي على طبق معك

ـ من قال ذلك؟

ـ يا شيخ أنت أكبر مقاماً من الناس جميعاً، فكيف مع امرأة مثلي؟

ـ نحن بشر يا بديعة نأكل مع بعضنا البعض ونتحادث ونتسامر، هذا لا ينتقص من قيمة أحد. إذا أكلتِ معي تفتحين شهيتي. صمت قليلاً: ألهذا لم تأكلي جيداً؟

ـ أكلت.

ـ آخر مرة تأكلين بهذه الطريقة، أنت تحتاجين للغذاء الجيد كي تشفى جروحك، لتعودي كالغزالة، كالرشا في خطوتها ومشيتها وركضها .ضحك: كي تعودي إلى قطاع الطرق

ـ لن أعود يا شيخ

ـ أتكرهين ما فعلته؟

ـ أجبرت على العيش عيشة كلاب وذئاب، عيشة مشردين

ـ من أين تعلمت هذه النظافة وهذا الترتيب؟

ـ خدمت في قصور المدينة، تعلمت الطبخ والترتيب والنظافة وتقديم الطعام والموائد العامرة للرجال، وكذلك موائد استقبالات النساء، كما تعلمت

تزيين النساء وحياكة الصوف، كنت صغيرة عندما بدأت العمل

- أين هو ولدك ؟

- ربما كان في بيت شقيق زوجي..

- كم عمره الآن؟

- ثلاث سنوات.

- أليس صغيراً على حرمان الأم والأب معاً؟

- الظروف يا شيخ

- عندما نعود إلى بيتي، تأتين به ليعيش معنا، أعلمه القراءة والكتابة، وأحفظه القرآن.

- هذا كثير يا شيخ

- الله وضعني في طريقك لأعينك وأساعدك، لم آتِ إلى هنا ضيق صدرٍ... وإنما أقمت زمناً وكلما قررت الرحيل استجد شيء أبقاني، لله حكمته في ذلك، ووضعك في طريقي.. زرت أمك بالصدفة، قدر. وأهدتني طبق القش، وحضرتِ عرسي، قدركِ وقدري مربوط بحبل سرة غامض وخفي

نهض الشيخ

- سأذهب إلى البرية لإحضار أعشاب جديدة..

- بدل ملابسك لأغسلها

- ستتسخ، انتظري عودتي

- أغسلها لك

- عليك الراحة وألا تتعبي نفسك

- خدمتك سعادة، عدسي لك يهّرب الوجع والألم، أشعر بالحياة تسري في عروقي ثانية

ابتسم لها :

- كلامك جميل

ودعها، هزرفت نحو الباب الخشبي، ناولته الثياب:
- بدلها وإلا لن أسمح لك بالخروج، أنا عنيدة
ضحك الشيخ
- اخرجي الآن، سأبدل ثيابيـ أي امرأة أنت رحيق أزهار، طيف من أطياف السماء، أم عصفورة تأخذني، تحملني على جناحيها الصغيرين لتحلق بي في سماء وغيم، أم أنها سترميني. في قاع بلا قرار؟
بدل الشيخ ثيابه، ومضى
أوقدت بديعة النار ووضعت الماء لتغسل ثياب الشيخ، طرق الباب
وقفت قلقة:
- من؟
سمعت صوت علي:
- أين الشيخ؟
- ذهب قبل قليل، هل تريده بأمر مهم ؟
- لا، متى يعود؟
- لا أدري
- قولي له أن يأتي إلى بيت سلوم
غسلت بديعة الثياب نشفتها فوق أكوام الحطب، فتحت الباب الخشبي رأت الجرن
- سأدق قمحاً وسماقاً.
بدلت ثيابها، ولبست سروالاً وفستاناً، ورمت على رأسها منديلاً
عاد الشيخ ومعه الأعشاب وحجر أبيض غسلهما ووضع العشبة في قطعة قماش نظيفة، دقها بالحجر، هذا مسكن للألم عليك أن تشفي بسرعة كي نعود إلى قريتي
- وعليك الذهاب إلى بيت سلوم
- أتحتاجين شيئاً قبل ذهابي؟

- كل أولاً
- سأذهب
- طبخت من أجلك
سارعت خطاها وصبت الطعام، نادته وجلست أمام طبق القش القديم
- تعالي وكلي معي
- لا
- اتفقنا البارحة
- كل أنت أولاً
- تعالي وإذا لم تجلسي، لن أذوق لقمة واحدة
جلست قبالته ناولته ملعقة خشبية، وتناولت الأخرى.
تمطق الطعام:
سأشتري لك ثياباً عليك أن تلبسي كنساء الشيوخ، سروالاً وأردية قصيرة مفتوحة الجانبين، وطربوشاً أحمر صغير مع هدّابة، إما سوداء، أو زرقاء تفرقينها إلى ثلاث ذؤابات تُسبل على الكتف الأيمن والأيسر والثالثة ترسل إلى الظهر
- ما رأيك بطعامي؟
- أكلك طيب، الأكل نفس ونفسك زكي، أنت امرأة غريبة عن هذه الأرض، أينما حللت نشرت الجمال والسحر بيدك بوجهك بنظراتك بحديثك، امرأة غامضة وفيها سحر، وأنت ساحرة، وربما كنت نجمة هوت وشقت البيت المسحور ولب أناس كثر.
ارتعشت: أعرفَ شيئاً عن إقامتها في البيت المسحور، أطرقت.
ظنه الخجل:
- ما هذا الخفر !!
"خفر، خوف، فزع"
ناولته قطعة قماش مبللة بالصابون والماء، قماش حائر حيرتها، مبلل

بالدمع والماء مثلها،غارق في الفزع، فزع الجفاف. ابتسم الشيخ

ـ سأعتاد على ذلك

ـ اعتد لطالما أنا حية سأعتني بك

ودعها، ونهض، سألته

ـ أهناك حدث ما حتى أرسلوا في طلبك؟

ـ لا أعلم

أغلق الشيخ الباب خلفه ومشى في زواريب القريبة متعثراً بالحصى، وبجدران المنازل والأشجار، يستغفر ربه، يتنهد يتأمل أشجار الزنزلخت، والأطفال العراة وهم يلعبون بالحجارة والتراب.

وصل إلى بيت سلوم رمى السلام وجلس، رجل لجوج لحوح فقد صبره:

ـ كيف حال المرأة؟

ـ ما تزال متعبة وجروحها تؤلمها، لقد عالجتها ببعض الأعشاب وأوراق العسبق، وإن شاء الله ستشفى. ساد الصمت برهة من الزمن أسئلة تدور في رأسه ورأس غيره، استشف ذلك من نظراتهم المتشككة، والتحف الصمت

ـ إذا كان النوم في البيت يزعجك تفضل إلى بيتي تحل علينا بركتك

لم يجب الشيخ فهناك تتمة للكلام.. أكمل الرجل

ـ بقاؤك مع تلك المرأة غير مناسب،وأنت لا تقربها ..

ـ من أي ناحية؟

ـ لا أعرف

ـ المرأة خلوقة طيبة وكل منا ينام في غرفة، ولن أمكث طويلاً، أريد الرحيل فقد آن أوان العودة ،واشتاقت البلاد لأهلها

طلب من علي السفر إلى قرية اسماعيل بيك، لإخباره وابنته بما جرى،و زواجه من بديعة قبل أن يصل الخبر متناسلاً مع خيال الناس

ـ كما تشاء غداً صباحاً أرحل مع أني لا أحبه، ولا أحب رؤيته، سيطردني

ابتسم الشيخ:

ـ لن يطردك لأنك رسولي، واسماعيل رجل طيب

ـ طيب معك أنت، فأنت الشيخ المهاجر وزوج ابنته، أما مع البقية!!؟ هل تعرف أنه تسبب في مقتل زوج بديعة؟

صمت الشيخ ولم يرد، ثم قال

ـ أمتأكد أنت؟

ـ العلم اليقين بيد الله

لم يكرر الشيخ السؤال خوفاً من الجواب، وارتيابا!!

ودعهم وعاد إلى البيت، دخل البيت، فرأى وجه بديعة ـ إذاً تنتظرني في الدار!!

كانت جالسة فوق الحجر ذاته، عيناها ترقبان الباب

ـ مساء الخير أما زلت ساهرة إلى الآن.

ـ لن أغفو قبل الاطمئنان عليك

ـ الخوف عليك على صحتك وجروحك

ـ الأمان وأنت في البيت

ابتسم برقة

ـ أنت لا تعرف معنى الأمان!! طفولتي شبابي البكر، أمضيتهما في خدمة بيوت المدينة، كانت حياة وجل وخوف، وعندما عدت إلى القرية عدت خائفة، تزوجت سليم وانتقلت للعيش معه في المغاور، أياماً وليالي طويلة لم أذق طعم النوم، أصوات الذئاب والضباع تتخلل سدول الليل وسواده وعتمته وقتامة الليالي الخالية من النجوم والإنس والمارة. حياة خوف ورعب، والأمان تائه وضائع خلف الصخور وأصوات الحيوانات المفترسة، وأقدام ابن آوى التي تقترب وتبعد مع ربطة المنديل والبسملة. خوف على زوجي ورفاقه، فزع وخوف من الموت المحدق والذي يحيط بنا. شردت عيناها بعيداً، اغرورقتا، ماذا أقول؟ أو أتذكر؟ خيال أب رحل، وأودعني خدمة البيوت، وأم تذرف الدموع علي وعلى زوج هرب منها. رحلت إلى المدينة، واعتدت على مراقبة الباب والخوف من

فتحه ليلاً والعراك مع السيد، لا أظن ليلة مرت منذ وداعي طفولتي وأمي، عشت فيها بلا خوف. فقد عشش القلق ورعشاته في حياتي كلها، يتقطر كالعرق المحموم في ليلة باردة وثلجية وليس كتقطير العرق يا سيدي، أتعرف تقطر عرق الجسد والعرق؟

- بلى

كان جسدي هكذا

- أسمعك وأتفهم ما تقولينه.هذه المرة الأولى تتكلم بديعة معه هكذا. كياني وعقلي وإحساسي معك، توقف عن الكلام، وفكر بالعالم الغريب لهذه المرأة النجمة، حرام.. وهل تعيش النجمة الرعب والخوف من انبثاق الفجر، وغيابها في طبقات وأطياف السماء واختفائها لمدار يوم؟.. أتخشى ألا تظهر وتضيء ثانية؟

- أيتها المرأة أي حياة قاسية عشتها؟

- كأن الله نذرني للعذاب والشقاء.

- قولي امتحان

- امتحان ولماذا أنا وليس غيري؟ ألا يكفي امتحان واحد؟.. وأنا حياتي كلها امتحانات، نظرت بديعة إلى الشيخ أحست بمحاولته الفرار والإفلات منها، سريان الحب المشوب بالخوف نظراتها تكشفه، تمزق أرديته وأغلفته. أول مرة يكشفه أحد بهذه السرعة، ويؤثر عليه كهذه المرأة، قرر الولوج إلى عالمها، ليعرف تفاصيل حياتها، في حين كانت غائبة عن الوعي. نظرات عينها جامدة حيناً، وأحياناً فزعة، حركات يديها عصبية، ترفع واحدة إلى وجنتها، وتغطي بالأخرى عينيها، وكأنها تبعد شيئاً ما، أشباحاً تحوم حولها.. تعيد الحركة ذاتها باليد الأخرى على الخد الثاني، أو لعلها تهرب من ذاكرة موجعة متقرحة متشققة.جسدها يتحرك يهتز دون وعي، حملق محتاراً، كيف تتزوج امرأة جميلة قاطع طريق روحه على كفه؟ لابد وأن لها أسبابها، وضع يده فوق كتفها مسد شعرها الليلي

- اهدئي قليلاً وأكملي
- أشواك في حلقي يا شيخ
- الكلام يخفف الهموم ويريح النفس، يخفف أثقالها
- من أين أبدأ طفولتي شبابي؟
- من حيث تشائين

كنت صغيرة ألعب بالعرائس القماشية، أركض وبنات القرية حين يظهر قوس السماء، نحاول اللحاق به والمرور من تحته لنقلب صبياناً ، هكذا قيل لرفيقتي في القرية، لكنا لم نستطع اللحاق به كلما أسرعنا في الركض كلما هرب منا وكأنه قرر مشاكستنا وعدم الرضوخ إلى رغبتنا، ووقوفه إلى جانب أقدارنا المكتوبة فوق جبيننا . كنت طفلة سعيدة وحيدة، أبي يحبني يحملني يقذفني في الهواء لأعود إلى حضنه، ألعب بذقنه وشاربيه، أتعلق بكتفيه، وأركب فوق أكتافه، وأقبّل عينيه الشاردتين، كان يهرب بعيداً، وهو يصف البحر جماله زرقته سفنه أشرعته موانئه.

ضحكت وضحكت عنياها وكأن والدها قد حضر للتو كان يقول ـ البحر عميق وجميل بمدنه وبنائه وموانئه. ـ ثم يبتسم ـ ونساؤه أجمل من أمك بكثير، أهله يرطمون بلغات لا نفهمها، وعادات لم نألفها، مدن مضاءة ومضيئة بالأنوار، مليئة بالذهب والفضة، وهنا في هذه الجبال الوعرة دموع وفاقة وظلم وقهر وقلوب قاسية قسوة هذه الجبال، قسوة الصخر لا تعرف الرحمة. ويسبح بخياله، تنتقل العدوى إليَّ أتخيل البحر ينبوع ماء كبير، لم أكن أفهم كلامه، يكفيه أني استمع إليه بشغف حتى أنام بين ذراعيه، وأنا أحلم بالثياب الجديدة التي طالما وعدني بها:

سآتي لك بالحرير والصوف والمخمل أسكنك بيتاً واسعاً نظيفاً، سآخذك معي في البحر، أركبك السفن، وتكونين أول طفلة ترحل في البحر من هذه الجبال.

ترد عليه والدتي بسخرية

ـ سافر أنت أولاً

ينقلب صوته الرقيق الحنون إلى زئير

ـ سأسافر ولو لم يبق بعمري إلا يوم السفر

أذكر بكاء أمي، يا لذلك المشهد، ظل يلاحقني في أحلامي كجزء من حكاية أبي، عندما كبرت فهمت الجدال بينهما وسبب بكاء والدتي، علاقات أبي الكثيرة مع أرامل القرية والصبايا، وتلك الدموع الغزيرة نتيجة التعليقات والهمس واللمز كلما ذهبت أمي إلى العين لملء جرار الماء، تمتلئ عيونها بالدمع وتتكسر الجرار، وعندما تعود يصرخ في وجهها..

ـ أين الجرة؟

ـ كُسرت

ـ يكسر أضلاعك

تبكي المسكينة وتتشردق بدمعها:

ـ أنت السبب، ألا تخجل من نفسك؟

ـ أخجل؟

ـ كل يوم علاقة جديدة

ـ اخرسي واصمتي وإلا طلقتك ألا يكفي أني ابتليت بك

شجار لا ينتهي إلى أن جاءنا زائر مسائي، قريب أبي خائف مرعوب طلب من أبي إخفاءه عن الأعين، وعندما سأله عن السبب:

ـ قتلت رجلاً تركياً مهماً في المدينة وفررت إلى هنا

أقام الرجل أشهراً ووالدي يروح ويغدو من وإلى المدينة التي قَتل قريبنا رجلاً منها، وفوجئت أمي بأنهما قررا السفر معاً، ولذلك كان أبي يذهب دائماً إلى المدينة سراً، ويحمل معه ما تبقى من أثاث المنزل ويبيعه، ثم أخذ أقراط أمي أساورها، وباعها هي الأخرى، واتفق مع أحد أغنياء المدينة على أخذي لأخدم في بيته، وقبض ثمن بقائي عنده ثلاث سنوات، ثم رهن ما تبقى من أرضنا وأعطى المال لقريبه. والدي لم يكن يحب العمل ولا الجلوس الطويل، كان دائم

الحركة والتنقل على فرسه الجميل الذي باعه أيضاً، مثلما باع معظم أرضه وصرفها على النساء.

أمسك يدي، أركبني حماراً، وبقينا ليالي في الطرقات حتى وصلنا إلى المدينة، ودخلت البيت أو القصر الكبير المبني من الحجارة البيضاء المحاط ببستان كبير. فُتحت البوابة الخشبية الكبيرة، ودلفنا إلى القصر، ليوانٌ مغطى بالسجاد، صحون زجاجية في الحائط لم أر في حياتي أجمل منها، كراسٍ مصدفة فضة، ذهب.. لا أعرف، سقوف عالية مرتفعة الجدارن مزخرفة بالرسوم الملونة بماء الذهب، فرحت كثيراً ظننت أنه البيت النظيف والكبير الذي وعدني به أبي وكلمني عنه في الحكاية، لم تكن حكاية أو أكذوبة كما ادعت أمي.. البيت الذي حدثني عنه ذات مساء، كنت مبهورة بكل محتويات البيت ومظاهره، اللمعان، الألوان، الجدران، السجاد، الأضواء، وتهت في بيت الحكاية، والحلم أضحى واقعاً، وجاءت الضربة، الضربة الواهية والقاتلة للحلم، عندما سمعت صوت رجل يقول بعربية ركيكة ، عرفت فيما بعد بان العائلة جاءت من البعيد،وسكنت هنا . تتكلم التركية ولغو لم افهمها يوماً :

- ادخلي إلى غرفة الخدم

قالها بركاكة كبيرة ومع ذلك تنبهت لكلمة الخدم والتي لم تكن تعني لي شيئاً وأنا في الثانية عشرة من العمر،ولم أكن أفهم مكانة الخدم في سلالم الحياة والمجتمع بعد!

صرخ بصوت أعلى:

- ألم تسمعي ادخلي إلى غرفة الخدم؟

- ظننته الرجل الشرير في حكاية والدي، والآن جاء دور والدي ليصرخ به، ويضربه.. وأجلس فوق الكرسي الجميل، رفعت ناظري إلى وجه أبي، وجهٌ حزين، عينان دامعتان، لأول مرة أراه ضعيفاً، بكيت وبكيت بحرقة، حركت رأسي ورفعت صوتي:

- لماذا لا تصرخ في وجهه؟لا تنهره؟

نزلت دموع حبيسة في مقلتيه وأخرج صوتاً متلجلجاً خافتاً، بالكاد يُسمع:

- اسمعي كلام البيك، واذهبي.

قال إلى غرفة الخدم ،سأعود وآخذك عندما أجني المال وأشتري لك ثياباً وبيتاً وكل ما تريدينه

لم أستوعب سوى كلمة البيك فقد سمعتها من قبل - خدم وماذا يعني خدم؟ نظرت إليه أستفهم، ضاعت نظراتي في نظراته الدامعة، أطرق في الأرض، ربت على كتفي:

- ادخلي يا ابنتي، ادخلي سينفطر قلبي عليك

كان صوته بعيداً ذليلاً.

رفع صاحب البيت حاجبيه ورماه بنظرات اشمئزاز وقرف، وابتسم ابتسامة فهمتها فيما بعد، ابتسامة خبيثة لئيمة.

- اطمئن على ابنتك واتكل، فقد انتهى اللقاء، أسلمت الأمانة وقبضت الثمن.أسلمني البيك لخادمة، أشرفت عليّ وهي من قرية مجاورة لضيعتنا، أمضتْ زمناً في الخدمة، اعتادت عاداتهم ومطاليبهم، واكتشفت أسرارهم، وأصبحت تفهم كل إشارة يد أو فم أو رأس..أخذتني إلى الحمام، ونظفت شعري، وفتشته خصلة خصلة لعل القمل والصئبان مختبئان في مكان ما من جلدة الرأس أو تحت الإبط، ثم بدأت تعطيني دروساً في الخدمة، الطبخ، التنظيف، إعداد الولائم العامة، والخاصة للرجال فقط، وفي تلك الولائم نرتدي أجمل الثياب لنقدم الطعام والشراب للبكوات.

وخلال فترة قصيرة تعلمت جلي الطناجر النحاسية الكبيرة، وملاعق الفضة التي أدهشتني عندما رأيتها لأول مرة، وهذا ما تكرر معي كلما رأيت شيئاً جديداً، أدهش، أتعثر ،أقع، أو أكسر كأساً أو صحناً. وحينما يؤازرني الحظ يقع الصحن من يدي ويبقى سالماً، فأسمع كلاماً لاذعاً، وأُضرب، وأشتم، وأهرب إلى أبي أحلم بعودته، وبيده الحلوى والزجاج والفضة يقبض على يدي ويأخذني إلى بيت كبير كهذا البيت. تدربت على الخدمة وخضعت للمراقبة ليتأكدوا من

أمانتي، وكنت أكبر يوماً بعد يوم وظهرت معالم البلوغ على جسدي الذي كان طفلاً إلى حين، وفي هذه الفترة تعلمت بعض الجمل التركية وأصبحت أفهم الكثير من كلامهم الذي يتكرر على مسامعي كل يوم.

تمزق جلد الطفلة ووجهها، ونما بدن صبية شاردة العينين، وصاحب البيت يراقبني كل مساء وصباح ويقذفني،يرشقني بنظرات غريبة، خفت منها أول الأمر ثم ظننتها نظرات إعجاب بخدمتي ،وطبخي وترتيبي لاسيما بعد زياراته المتكررة إلى المطبخ. ذات يوم أهداني ثوباً جميلاً قياساً بثيابي العتيقة وطلب مني ارتداءه، ارتديته وولجت غرفة الجلوس، نظرت زوجته إلي بقرف، وانتقلت النظرات إلى بناته، وتحولت الزوجة فجأة إلى امرأة عصبية وقاسية جداً معي، ففي البداية كانت تكتفي بشتمي بالتركي، وإبعادي عنها كلما اقتربت لأعطيها شيئاً ما .. وأصبحت تبعدني بالضرب، واللكث، والنهر، تتفنن بأذيتي.. كلما كلمتها صرخت:

ـ لا تقتربي.. تنجسيني، العمى حيوانة.. حيوانة

أبكي وأفر، تصرخ ثانية:

ـ تعالي أتحسين بالإهانة أيتها الخادمة..القذرة.أعاود البكاء ورأسي في الأرض، صامتة..ادعو، أشكوها إلى الله. لو رددت في وجهها لزادت ضربي، وإهانتي، أو ربطتني إلى جذع شجرة.

طلب البيك نقلي إلى غرفة في الحديقة، قريبة من مرابط خيوله، فرحت بها ..أمضيت الليل بطوله، أفتح الباب وأخرج إلى الحديقة أتنفس الهواء العليل المبلل بالماء، أرقب النجوم والكواكب، وأتغنى بضوء القمر، هكذا كنت أقضي الليالي، وانتظر عودة والدي، صاحب الصورة الضبابية، والمنقذ الوحيد، يأتي طائراً محلقاً فوق البيت، ومهدهداً أجنحته، يراني أنتظره، يقبلني، يحملني، أغادر البيت الذي أكرهه، أمقته، أحسه زريبة حيوانات، وأطير معه، وأرفرف فوق أسيجَته أشتم السيدة، وأطيرٌ. والقصر المنيف، قصر الأحلام والحكايات، أضحى بيت سحرة أشرار..أهرب من جو البيت المأفون إلى الليل وسحره.أصيخ

السمع لهسهسة الليل لعل أبي يشق دلهمه، والباب هو الأمل الوحيد بعودته ومعه اختلاج الفؤاد ..أمضيت ليالي حالمة فرحة..أشم رائحة أبي..أسترد طفولتي..أتجول في الحديقة أركض أقفز، أشم رائحة الورد والنهر والنجوم والغيم والحر.وفي إحدى الليالي وبعد اللعب والجري وتأمل القمر والليل والورد والتحليق والهروب خارج الأسوار، ولجت غرفتي، تثلمطت، أغمضت عيوني أحلم بالضيعة، أجمع وجه والدتي، فُتح الباب بقوة، اقتحم الردهة شبح، صرختُ، كمّ فاهي وجاءني صوت البيك همساً:أنا لا تخافي.

حضنني بقوة، ابتعد، رفع ضوء القنديل:

- جميلة أنت، جميلة جداً وصغيرة، انتظرت طويلاً حتى نضجت، وطاب قطافك، كز أسنانه:وهذا الجمال يثيرني، أريده لي، تخفين أنوثة تستفز رجولتي. اقترب أكثر، والخوف أضحى فزعاً ينخر أوصالي، احتضنني بسرعة وبقوة بغل، سمعت ارتطام عظامي، وطقطقة أضلاعي، اقتربت أنفاسه القبيحة من أنفي، والوجه الذي كنت أنتظر إطراءه بات وحشاً ينقض علي، دفعته عني هربت من أنفاسه احتواني بين ذراعيه قبلني، عضني، خلع ملابسه، عويت وعويت..وهو يزداد شراسة في رطوي أنزل جسده السمين فوقي ورطمني دفعة واحدة..وقبلها بلحظات حاول خنقي بعد صراخي الفجائعي،وهو يحاول رطمي خلفاً كل ذلك تم خلال دقائق معدودات، كأنها عمر جيل، أجيال دهور استباح وهتك عرضي، وهو يضحك ضحكاً مجنوناً، تلك الدقائق الدهرية الممتدة امتداد ذلك الدم الذي غطى السرير(الفخ)وسال ألماً وخيبة.

اقترب أحد الحراس، وصاح:

- لماذا تصرخين؟

نهره البيك:

اخرس يا وغد..يا ابن الحرام

لحظات مفزعة مريعة، مقززة، مقرفة، مجنونة..رهيبة..لا أدري كيف أصفها أو أنقلها؟..أنهى البيك مهمته اليَسيرة، وتركني أسبح بدمي، وأنا في حالة

إقياء، ودوار..وعيناي تتأمل مشهد الدم، وتقذفه نحو الذاكرة مع الآلام، الدموع المتساقطة كالنهر القريب الذي يُسمع صوت خريره..نهضت وعيوني الصافية تتحول إلى عيون عكرة منكسرة..خلعت نزعت غطاء الفراش، مزقته، وخبأته بين ثيابي..نظفت الغرفة من الدم الذي اختلط بالإقياء، بالألم...بموت مؤجل قريب. لم أنم ليلتها..فقدت شيئاً باهظ الثمن، قاتلاً، والبكاء والعويل لن يعيد بكارتي المسفوحة في الصباح، طرقت الخادمة الباب، فتحته لم أشعربها، وقفت بجوار السرير، قربي...وأنا ممددة شاخصة العينين..هزتني، هزتني بعنف، صحوت من غيابي وموتي:

- مابك؟

رفعت عيني، وانهرت في البكاء والعويل، بكت معي، كانت تعرف كل شيء، حينما هدأت، نظرت إليها، عيناها مليئتان بالحزن والفرح معاً تتهدت، وقالت:

- لا تخافي، ما حصل معك عادي قليل من كثير، البيك نبهني ألاّ أوقظك لأنك مريضة، لم أصدق كلامه، والآن صدقت، وجهك وجه أموات.

حدقت بها من جديد:

- لا أصدق ما حدث

- صدقي هو صعب في المرة الأولى ثم تعتادين عليه

- سأموت نفسي

- ضحكت ساخرة:

- لو فعلت كل خادمة هذا لما بقيت واحدة حية في هذه البيوت العثمانية العامرة، قومي الآن واغتسلي.

تكررت زيارته، و اقتسامه غرفتي وسريري، وكلما رأيته واقتربت أنفاسه مني تتلبسني حالة الإقياء والدوار، وعندما يتعرى من سرواله، وثيابه الداخلية أحس بالقرف من منظره العاري، ولحمه السمين المتهدل كالخنزير، وجسده المتقوس كالخروف، حاولت التلميح لزوجته، أخرستني بجملة، لا تزال تزن في أذني:

ـ لو كان لدى أهلك شرف لما أرسلوك إلى الخدمة

بكيت بحرقة فطردتني وصاحت:

ـ اغربي عن وجهي أيتها القحـ

لم تكملها لأنها ابنة أصول!!

ومنذ ذلك الحين امتنعتُ عن التلميح أمامها، رغم تأكدي أنها تعرف كل شيء، وتتجاهل، ولكن ما الفائدة؟ كلامها مر مرارة العلقم.

أحياناً كنت أحاول لملمة شجاعتي لأصرخ في وجهها:

ـ وأنت عندك شرف؟ وتقبلين زوجك الذي يسفح عرض الخادمات وتصمتين، ويسهر ويغني ويرقص ويشرب، وتخشين أنت وهو الله !!؟

الفقر من سرق شرفنا، المغامرة سرقت شرفي لوحدي، أحلام أبي المجنونة هرّبت معها طفولتي، بكارتي، أما البقية، فالفقر والفاقة.

أُكملُ حواري الصامت في غرفتي، والعديد من المرات كدت أن أصرخ في وجهها أضربها أنزع الملاءة السوداء عن رأسها حينما تبغي الخروج من المنزل، تلك السدافة التي تخبئ الرياء... ثم أنادي أبي، أشتمه، أسبه، وذلك الحب تحول إلى قرف واشمئزاز من وجهه واسمه. في الوقت الذي اعتدت مضاجعة البيك ولم أعد أشعر بالإقياء والدوار والقرف، أو حتى الاغتصاب، وفي بعض الأحيان كنت أشتاقه أتصدق؟!!

أكلمك بمنتهى الصدق، آليت على نفسي ألا اكذب عليك بحرف واحد .تركني، هجرني زمناً طويلاً، وعاد إليّ وهو سكران قائلاً:

ـ جربت نساء أخريات رائحتهن مقرفة، ضحك وهو يخلع ثيابه ـ رائحتك راحة ريحان، غار وأكثر، من أين لك رائحة هذا الجسد الرائع؟ زوجتي تتعطر، تتمسك تستحم بأوراق الغار ومع ذلك رائحتك الأجمل، رائحة الصبا والقرنفل والياسمين، سررت بإطرائه المفاجئ وشعرت أني أرغب في مضاجعته.

انتهت السنوات الثلاث لخدمتي... مددها:

ـ ابقي سنة أو سنتين وخذي أجرتك ثم عودي إلى القرية، وهذا أفضل لك

أنا، أشتاقك..وهكذا قضيت سنتين ونيف مابين شأز البيك، وصراخ زوجته، ها، واتهاماتها المبطنة والمعلنة.كان يسخر منها دائماً ويطنفها ـ غبية، كلما ،، خف عقلها، وفقدت صوابها، هي تغار منك لذا ترغب في رحيلك اليوم الغد .

قبضتُ أجري، وعدت أدراجي إلى الضيعة، كانت والدتي قد كبرت عشرين أ ونيف، شاخت بسبب غيابي وفقدان أبي، لم أعرفها للوهلة الأولى تأملتها، دما بكت وبكت بدموع حرة غزيرة، وضمتني، بكيت، لم يكن بكاء وإنما جاً مراً، عويلاً، عاودني الإحساس بأني اغتصبت ثانية، ورجعت صورة ك الذي مزق ثيابي لأول مرة وثلم شرفي، سيطر شبحه علي تماماً شعرت لة الإقياء والدوار من جديد، ووالدتي ترشقني بنظرات ريبة وشك كأنها لني بكارتي، تلك السهام تتهمني، تذكرت لحظات الاغتصاب، هتكي، رطمي، ،.. أهرب من نظراتها القلقة والخائفة، إجابة تتمنى الموت قبلها . تمزق اف الصمت تمزق عذريتي، بكارتي. صرخت وارتمت في الأرض كانت رب وجهها، تنتف شعرها الثلجي، (تبحت) في التراب تحمله، وتضعه على ها ووجهها وثيابها، غُرد قت بالتراب، كان منظراً فظيعاً، دجاجة مذبوحة ن عن بقايا روحها؛ ارتميت بجانبها قلدتها بكل حركاتها وبقينا ساعات على الحالة، لكثتني، شدت شعري، بصقت علي، ضمتني، وجأرت من جديد، ت..عوت:

ـ الله لايوفق أباك، هو السبب

تجرأت وسألتها عنه سؤالاً أحسته حاقداً:

ـ أظنه مات الله لا يرحمه..

صمتت قليلاً:

ـ لا خبر ولا جواب إذا عاد سأقتله،سأشق رأسه بالمنجل..

ـ لا يا أمي

ـ رجل سافل يستحق الموت دفع ابنته إلى الخدمة و...

. تكمل الجملة تركتها معلقة في الهواء مجدولة في أذني:

ـسأقتله

هو لا يعرف شيئاً

كان يعرف ويتجاهل، أغلق أذنيه أصمهما كي لا يسمع أخبار البكوات
ير وما يفعلونه بالخادمات وغيرهن،والله انتقم منه بك يا مسكينة..ما
ما ذنبك؟

ت ووالدتي ليلتها متعانقتين باكيتين وكل منا توهم الأخرى بأنها نائمة
قلق. في الصباح سألتها ثانية عن أبي

لم أسمع عنه خبراً منذ سفره.

اودت البكاء ثانية وكأنها لم تكن تريد قتله في اليوم الفائت، فزاد حقدي
له.هدأت تماسكت، تمالكت نفسها قليلاً: وسألتني

ماذا ستفعلين؟

لا أدري

أمر انقضى وانتهى يا ابنتي،ما بيدنا شيء.. لديك بعض المال والذهب،
ي الشباب بالزواج منك

ـرخت في وجهها:

صمتي اصمتي، لن أفعل

ـكتت، لاكت جملها وابتلعتها، الكلام لن يجدي معي الآن..

ـبحت حديث القرية: جميلة جداً نظيفة مرتبة لسانها لطيف، زد على
ديها بعض المال، فاندفع الشباب لخطبتي رفضتهم جميعاً، وكنت قبل
ع إلى النوم أفتح قطعة القماش أرنأ إلى دمي البكر، وأبكي حظي العاثر،
العريس، أحست والدتي بأن الوقت قد حان:

ألا تريدين الزواج؟

لا

ـ لماذا؟

ـ تتجاهلين السبب!!

ـ يا ابنتي الذهب يعمي العيون والقلوب أيضاً، لا تتعجلي الرفض، وتحايلي على الرجل الذي تريدينه

ـ لن أقبل

ـ الذنب ذنب أبيك، ذنب جنونه وأحلامه، وهتكه لأعراض النسوة

ـ لن يفهم أحد هذا،أبي استباح امرأة؟!

ـــ لا لكنه كان دائم الحديث عن معاشرته للنسوة، ولا يخجل يذكر أسماءهن.

إلى أن جاء سليم وخطبني، رفضته أول مرة عاد وخطبني ثانية وثالثة، ثم طلب موعداً على انفراد قبل إعلان موقفي سواء بالقبول أو الرفض، تواعدنا على اللقاء والتقينا، رماني بسهام اخترقت أعماقي، كشف سري، تلكأ، ثم سألني

ـ لماذا ترفضين الزواج مني أهناك ما يعيبني؟

لذت بالسكوت، اقترب مني، ابتعدت قليلاً، انقشع الضباب عن روحي، فهم صمتي، بادرت:

ـ العيب بي!!

ـ ليس ذنبك إنما هو ذنب أبيك الوغد الذي ألقاك في ذلك الجبّ، من يلومك وأنت طفلة صغيرة جُرتِّ من يدها، وهي برعمة برية جميلة، ورميت في تربة غريبة، تفتحت هناك في بيت البكوات وقطفها صاحب البيت وهي وحيدة وضعيفة..؟ذبلت!! أنا أحبك وأريدك زوجة، ليشهد الله علي لن أفتح فمي بكلمة، ولن أنبس بحرف، لم يكمل آخر الجملة..ظلت غائمة بعد سنين هجست بأن كلامه ذاك كان مصيدة

ـ لا تخافي،ولا تقلقي

بكيت وتحول البكاء إلى عويل وصراخ، نشف دمعي رشقني بنظرات حب ووله. هدأت قليلاً، وأحسست أني أحبه وأهواه فعلاً، كان يتكلم وعيناه دامعتان،

رجل يقف كالنسر بقامته الطويلة ومنكبيه العريضين، وشاربيه اللذين يقف عليهما الصقر، يبكي، قبلت، اتفقنا على الزواج، رفض تحديد موعد العرس قبل الثأر لي ولشرفي، أخذ قطعة من الدم اليابس والداكن، وقرر قتل البيك. غادر القرية، وغاب شهرين ثم عاد. جاءني صوت غنائه وقفت في الدار أراقب فرحته التي تقفز من رقصه ودبكته، تكاد تشق السطح القريب،ظن أني لم أسمعه،نزل وهرول إلى باب دارنا ،صاح بأعلى صوته:

ـ قتلته قتلته

فتحتُ الباب، أعطاني قطعة القماش، وقد اختلط دمي البكر بدم البيك:

ـ حددي موعد الزفاف

طارده العسكر قبل العرس، عقدنا العقاد ليلاً، وتزوجنا في مغارة بالجبل، وفي تلك الليلة عاودني الإحساس بالاغتصاب البيك، سليم، تشابه الوجهان للحظات، عويت بحرقة وسليم مشدوه مكروب من فقداني لعذريتي ومن بكائي. صمتت تلملم قواها وذاكرتها. تابعت

ـ وهكذا تحول إلى قاطع طريق، يركض، أركض وراءه ومعه من مغارة إلى أخرى، أحمل الخرطوش والبواريد والطحين والخبيزة، والأخبار من وإلى رفاقه حبلت، أنجبت ولداً، ولدته تحت شجرة سنديان وقطعت سرته بيدي، دفنتها تحت شجرة سماق، أسماه سليم نمر، وأصبح الطفل الوليد مطارداً هو الآخر..وسليم تحول إلى رجل قاسي القلب والفؤاد، ينهرني، يضربني، يعايرني، يلومني:

من أجلكِ أمسيت طريداً، شريداً، يعفكُ عفكاً شديداً، ويضأزني عنوة، ساعتئذ تنفرج أساريره، يلكزني ممازحةً، وينتقم بقتل الدرك، وتشليحهم المال والبواريد وأنا أساعده.قتل سليم وأقسمت على الأخذ بالثأر والانتقام له. أودعت ابني عند أمي ليلاً، وبدأت أشلح، وأسرق البواريد من الجندرمة، أرقب الطرق والمسالك، وكلما استراح الجند ،هجمت عليهم وأنا ملثمة، وصامتة، وسرقت البارود والخرطوش، وأعطيتهم لأصدقاء زوجي، والبقية تعرفها.

رفعت بديعة رأسها إلى الشيخ كانت عيناه تتطلعان إليها، عينان
حزينتان وربما عاشقتان في آن معاً، عسجرالشيخ، لمعة ومضة، شرارة مر
خافت منهما، وارتبكت.

ـ أنت امرأة بديعة يا بديعة، لأبيك حسنة واحدة وهي إنجابك وت
بهذا الاسم، وما حكاية المختار، أهو يريدك أيضاً؟!

تحرش بي فصددته أكثر من مرة، وطلب الزواج مني، رفضته، أرسل
رجاله يراقبونني يترصدون خطواتي. وبعد زواجي حول القرية والقرى
إلى عيون تلاحقني وسليم. و قُتل زوجي من هنا، وأخذ يتغزل بي،
العودة إلى القرية ليتدبر أمري، وفشلت مساعيه فأرسل الكتب، و
بالسرقة، وأمسكوني. كان يريد التشفي بي، ومن ثم يتشفع لي
مضاجعتي. تركها الشيخ، وخرج إلى الدار، جلس فوق الحجر الذي
بديعة القعود عليه وانتظاره، ثفته وجلست بجواره طلب عودتها إلى
انصاعت كعادتها إلى أوامره. عسجر في الليل والسكون من حوله، ليل بدي
منعش، غاف الشجر غيفاناً وغنى حفيفاً.. كل شيء يوحي بالانسياب
والجمال والسكينة، سكينة الروح والنفس، دخل إلى غرفته صب كأ
وعاد إلى الدار والحجر ثانية، غب الكأس سكاً، دفعة واحدة، رفع ع
السماء أبرقت النجوم، أضاءت الليل، والليل شعر أسود منسدل فو
أبيض، والعشب اغدودن من حوله، انتشى قليلاً، ناداها، كانت تتل
الباب، تنتظر صوته بحسها الأنثوي، فتحت الباب هزرفت، ركضت، و
الطويل يتماوج فوق كتفيها وظهرها ويهرب مع هبوب الهواء وشعبر
جلست بجواره تأملها طويلاً مع نجوم الليل المتعانقة والتي تتراشق النظر
إلى رأسها تتغرز في خصلات الليل، تموج نحو جبينها تقترب تبتعد
الكون والوجه المضيء أصلاً، أرجعت بديعة رأسها للخلف، نثرت
أغمضت عينيها، عادت النجوم لتتسلل في خصلات الشعر، وترمي ضياء
الوجه، تظهر تقاطيعه من زاوية الفم إلى الجبين، تزيده جمالاً وضيا

هطل الغيث فوق الشعر والوجه الذي تندى نجوماً وماء وفرحاً، هام ال
قليلاً: وجهك كالعرق المصفى

ضحك ثغرها وعيناها

ـ صفيحة فضة ناصعة

انثنى الشيخ، وانتشى أكثر مد يده لمس شعرها ووجهها، لمّلم قطرات بين يديه رفعها إلى فمه رشفها كما يرشف العرق.

ـ إنك تغويني ،اخلدي إلى النوم

قهقهت:

ـ أغويك؟ لأدخل إذاً!!

نامت ملء العين والجفن لم تقلق تلك الليلة، وسهدت عينا الشيخ، إلى مناجاة الليل والكلام معه:

أيها الليل أتحمل لي غواية اسمها بديعة أم هدية من السماء؟!!

أيتها المطرة أأرسلت لتغسلي وجهاً بريئاً؟! أنت المقدسة قداسة مر وباعثك، لا يمكن أن تغويني يا منة لله، ها أنت توقفت عندما غابت عنك بد يا نجوم السماء المقدسة كحلتني بمرأى بديعة، واختفيت خلف الغيم و انجليت لتجلي وجهها أمامي فغرقت وتهت واحترت بينكما .

تمدد في فراشه حاول النوم، وجه بديعة، عيناها تلفان المكان وهواء ال وروحه، سمع حركة خفيفة دعس أقدام، أقدام تمشي على رؤوس أصا خرج إلى الدار كان محاطاً بالسكون، عجب مما سمعه، أيكون وهماً؟! قليلاً سمع خطوات من جديد، فتح باب الدار رأى ظلالاً تتحرك، تركة الزواريب تختبئ بجذوع الشجر وجدران البيوت، لم يميز الظلال، استعا الشيطان مرة ثانية، وعاد إلى فراشه.

في الصباح أفاقت بديعة، دفعت الباب الخشبي، وولجت معردلة، عينيه الذابلتين نعاساً وقلقاً ابتسمت

ـ رأيت جسدي مغطى بالنجوم.

ابتسم الشيخ لها ... قام لبس قمبازه، وذهب إلى بيت المختار مستفسراً

- أهناك لصوص؟

رد المختار ضاحكاً:

- بعد زواجك من بديعة، انقطعوا

- ليست لصة

- أمازحك يا شيخ

قص الشيخ عليه الدعسات التي سمعها والظلال التي رآها استمع إليه المختار

- سأعرف ما الأمر

بعث رجاله يتقصون سر الأخيلة والأقدام التي كانت تحوم قرب بيت الشيخ، وعندما عاد رجاله:

ـ رجال من القرية يراقبون بيتك، ليتأكدوا إن كنت تنام لوحدك أم مع بديعة؟ ـ عادة التلصص،لا تتعدى ذلك، تتم عبر الأسطحة القريبة وجداران المنزل.

استغفر الشيخ ربه، طمأنه المختار بأن عددهم قل الآن، ولم يبق إلا الزعران، عاد الشيخ، وأخبر بديعة بما سمع، وعندما دخل الليل أدخلها إلى مخدعها، وبقي ساهراً في الدار، صعد إلى السطح، يراقب المنزل، يدقق النظر في الأسطحة القريبة لم يكن هناك أي فضولي، نزل إلى الدار، فتح الباب، ووقف زمناً يرقب الزواريب، تأكد من خلو المكان، وكأن أحداً كفلهم، فلم يجيئوا تلك الليلة.

في الصباح سألته بديعة عن علي الرسول المبعوث إلى بيت البيك، فأجابها: لم يعد، وأنا قلق عليه، سأرسل سلوم يسأل عنه، ننتظر الرسول الثاني لنطمئن عليه ونرحل إلى قريتي.

المشهد الخامس

وصل الشيخ المهاجر راكباً فرسه ووراءه بديعة إلى التشريفة. التمَّ أهل القرية أمام بيته، تعالت الزغاريد والتهليل احتفاءً بعودته.

فتحت زينة الباب، استقبلته بابتسامة غامضة، ورمت حلقات الناس بنظرات ازدراء. صرخت إحدى النسوة: نريد الاحتفال بهذا الزواج الميمون!! قالت جملتها انتقاماً وتشفياً من زينة. رفع رأسه:

- تعرفون قصة زواجي.

ردت المرأة الشامتة:

- إنشاء الله تنجب لك الخلفة الصالحة!!.

وجه الشيخ التعب، ردوده، جمله المختزلة فرقت الناس، دخل إلى البيت، واستراح في مكانه المعتاد، مد قدميه ثم تثلمط، وتلمظ

أخيراً حلّ الليل الراعش، الليلة الأولى للمرأتين معاً. طلب الشيخ من زينة إحضار فراش، ولحاف ومخدة إلى الغرفة البعيدة عن مخدعهما، تذمرت، قام الشيخ، وحمل الفراش بنفسه، وأعطاه لبديعة، دون أن ينبس ببنت شفة. تركها تدور في الغرفة، وعيناها باكيتان. عاد إلى مخدعه، خلع جبّته وحطة رأسه وعقاله، وعيناه تراقبان عيني زينة الحزينتين الكابيتين، تثاءبت فجأة، و أطرقت في الأرض كي لا يكشف ضعفها:

- ما حال العروس، أعجبتك!! وما حالك معها؟.

رماها بنظرة غاضبة:

- لم أقربها، وقد أقسمت ألا أمسّها قبل معرفتك.

صمتت.

- ألا تصدقينني؟

- أصدق، مثلك لا يلمس امرأة ربسة.

هبّ في وجهها كشعلة نار فاجأتها نسمة هواء.

- لا تكملي.

صُعقت من رده، أدارت رأسها، وابتسمت ابتسامة ملغزة:

- ضايقتك، لن أتكلم بعد الآن!!

- لنغير الحديث، ما أخبارك، وأحوال أهلك؟

- هزني الحبور، وغمرني الفرح!! زوجي تزوج!!

لم أصدق الخبر في البداية، وصول رسولك أقنعنا جميعاً بصدق الرواية. ماذا يهمك إذا اشتعلت النار في جسدي أو كدت أجن أو..؟!

سألني أبي عن موقفي من زواجك، فضلت الصمت وعدم الإجابـ أراك، وأسمع ما حدث!! وبعدها !! هـ هـ..

انكشف سداف الكره والبغض الذي يكنّه الناس لي حينما اجـ وسألوني بشماتة عن زواجك، لم أجب، خفت غضبهم، هم يحبونك، يجـ وسيقولون: أنت عاقر، ولهذا السبب تزوج، أظهرت تقديري واحترامي لإ المرأة المسكينة، فأنا أعرفك.. لن تتزوج امرأة ربسة، ووضيعة الأصل، و لولا اضطرارك!!.

صرخ الشيخ: لا تتكلمي عنها هكذا.

- تصرخ في وجهي من أجل امرأة عا.. وتقول إنك لا تقربها!!

- وماذا تعرفين عنها!!؟ الغيرة أعمت قلبك، ذهبت بعقلك وصـ نهشت روحك؛ شككت بكلامي وأخلاق المرأة، أعوذ بالله!!.

- لا أقصد اتهامك، وإنما..

نهض، صرخت: اذهب إليها..

- اسكتي وإلاّ ضربتك، اخرسي!!.

فرش فراشاً ثانياً في الطرف الآخر للغرفة تمدد واستغفر ربه، قامـ جواره، مدت يدها إلى رأسه العاري.

- لا أقصد الإهانة، سامحني.

أدار وجهه عنها، داعبت وجهه وجبينه، تذكر:

- ما أخبار علي؟!

- لا شيء.

- لم يعد إلى قريته؟

- حبسه أبي في الزريبة، كان يساعد قطاع الطرق ويشتم أبي.

نهض من الفراش.

- إلى أين؟

- إلى أبيك، يأسر الرجل وهو رسولي!!.

- تركه.

- متأكدة؟!

- نعم. دعنا منه؟ أنا مشتاقة لك وأغار عليك.

لاذ بهدوء وصمت، كأنه لم يسمع كلامها، تمدد في الفراش، أغ عينيه، رأسه صاحٍ يقظ. فشلت مداعباتها وغنجها و دلالها. رأسه، ج قطعة ثلج في يوم صقيعي. تركته وعادت إلى فراشها..

القلق ينهش نومه، يهرب إلى استحضار أطياف ملائكة، مذهبة،أحرف إعجاز، تزيح قلقه وتشوشّه، وتدعه للنوم.

انبلج الفجر وعيناه مغمضتان نصف إغماضه، وهو يردد، هبق، هلال، بدر، قمر، رمق، رمق. نهض ليصلي، فتح الباب، النار موقدة وا الوعاء النحاسي، وبديعة تجلس بجوارها بيدها عود تحرك الحطب. لم بالباب يفتح؛ هائمة ترقب النار، نثرات الحطب المتطايرة في السماء، ء تنهّلان بالدمع الصامت فوق الماء الساخن، رمقها، غائبة عن المكان، شاردة؛ المسكينة خائفة من زوجتي ووالدها، ومن الدرك والناس والوجود

رأسه يضج بالصور، ولسانه يتمتم بمالا يُسمع؛ دمعك أسخن من الم الماء أشد حرارة منه!!. دمع يبرد النار، يطفئ الجمر المتقد، ويشعل ة

أيتها الملاك.. أين وصلت رفرفة أجنحتك؟ وأين ينأى رأسك، عيناك؟! كل ما بك خارج هذا المكان. في أي أرض تسبحين الآن؟ وماذا يبكي هاتين العينين الساحرتين؟ أتبكين زمنك المتوحش؟ أم الخوف القادم؟

صدقي أو لا تصدقي أنت فرحي وحزني، وربما كنت سعادتي وبلائي، أيتها المسكينة الثكلى المظلومة، إبكي. أي بلاء يبكيك؟ الجثث التي ارتمت بوجهك؟ دماء زوجك العالقة بين أصابعك؟ وفي صخور المغاور والكهوف وجدران البيوت أم صوته الذي انطفأ وغادر مع جلده الآدمي؟ ترك الدنيا الفانية وهو يصرخ النخوة من أولي النخوة فلا مجيب.أم عينا طفل تبكيان دمعاً يقطر هذا الماء ويفطره؟ أو يداً صغيرة تداعب وجنتيك مع هواء الصباح، وتبحثين عنها فلا تجدين سوى بخار الماء، نثرات الحطب أم أنك تتذكرين ذلك المشرد والقابع في بلاد لا يعرفها إلاّ الله، اسمه أبوك، أو موت أمك؟. ماذا يبكيك؟ ويعصر قلبك أكثر؟ قلبك قلب عصفورة، يمامة صادوها، نتفوا ريشها وتركوها في البراري وحيدة.

نفخ الهواء النار، شبّت، أضاءت الوجه الصبوح، تبدى فضة مضفرة بالذهب.

دمع عينيك أصفى من الماء الزلال، دمع عينيك يتلألأ كالخندريس.. اقترب منها ربت على كتفيها، رفعت وجهها، حاولت كفكفة الدمع بسرعة كي لا يراها ضعيفة.

سقطت دمعتان من عينيه، أدار وجهه هرباً من نظراتها، وقال:

- مثلك لم تخلق للبكاء إنما للفرح، هاتان العينان الجميلتان خلقتا للضحك، مثلك خلقت لتغني، تدبك، تنشر المسك، والعنبر، والضحكات. وتزرع بأناملها الطويلة النحيلة الليلك والحبق، وتغرز أطباق القش الرائعة. يا زهرة برية ندية، أخاف أشواكها.

- كلامك بلسم، وأسا لجروحي، تطلب مني الفرح، ومن أين لي؟ دروب حياتي مليئة بالأفاعي والأشواك القاتلة.

قال بغصة:

- أنت عندي. لا تخافي.

- أخاف عليك ألسنة الناس اللاذعة، وأخاف زوجتك، وأباها . إن كان عليّ اعتدت القهر، والظلم، والبهدلة، أما أنت لا! وسمعتي قاطعة طريق زوج الشيخ المرغوس.

- الناس تتكلم على كل حال، إنهم يعيشون ليتكلموا .. ويغتابوا . إنهم يملؤون وقتهم الضائع ومساءا تهم العارية الخالية من كل شيء فيسّلون أنفسهم بالنميمة مع أن استغابة البشر حرام.

- أعرف هذا، لكني لا أريد الأذية لك!!

ـ لا تهتمي لأقوال البشر، دعيهم يتقولون.المهم انك امرأة رائعة، حنونة... وتسخنين الماء هنا؟

أطلق كلماته بحرقة ونهدة

ـ لتغتسل وتصلي الصبح.

- ادخلي واهجعي، لا داعي للماء. سأغسل وجهي ويدي فقط!!.

جست الماء وجدته ساخناً، أضافت القليل من الماء البارد، غرفت بالطاس النحاسي منه وجاءت بقطعة قماش نظيفة، صبت الماء فوق يديه. وناولته القماش الناشف.

ربت فوق كتفيها من جديد وكأنه يثني عليها ويأمرها:

- ادخلي ونامي.

ارتقى الشيخ الحجارة إلى السطح، ارتطمت قدماه، تعثر كاد أن يهوي أكثر من مرة، عناية الله ساندته وسندتهـ أصبحنا وأصبح الملك لله، وسبح الملك لله، حسنٌ توفيقي بالله وطريقي لله، وأحسنٌ سمعي واستماعي، يا وهاب يا أزلي يا تواب يا" داحي" الباب، ساعدني على اتباع الطريق القويم والفعل الصحيح، يا إلهي أنت الأدرى والأعلم بما يجري. أنا عبدك المطيع أناديك أتوسل إليك يا عالم الأسرار والغيوب، أبعدني عن الضلالة وفعل

ء. أسألك بالخمسة المصطفية والستة التجلية وبالسبعة الكواكب الدرية
مانية حمالة العرش القوية.
مسّد ذقنه، قرأ الفاتحة، أحس بثقل، وهنَ جسده وتعب من التفكير ـ
يت أياماً عصيبة زادتها دموع بديعة المنهالة، كانت تنفطر وكأن السماء
ع، تصب ما تبقى من دموعها .النجوم تنزاح وتأفل، تفسح الفضاء لخيوط
ر الفضية، استغفر الله.
جلس على حافة السطح، فاجأه وجه بديعة الصبوح، قامتها المنتصبة
ر الحور، زفر من قلب مجروح:
ـ تختلط الصورة صورتها مع صورة الفجر، أحبها.
نزل إلى الدار ببطء سجينٍ محكومٍ ظلماً، قدماه تلتصقان بتراب السطح،
ضان النزول، مخدع نومه يرتسم أمامه، تتسمر قدماه، جاهد نفسه، نزل.
زوجته وطيف نظراتها تريدانه.
وجه بديعة يطل من أحلامه المتقطعة المتشققة كأقدام حافية داست فوق
جار والصخور.
أفاقت زوجته وكأنها لم تنم. أو نامت نوماً قلقاً غائصاً في الكوابيس،
ت من الفراش، زوجها نائم ومبتسم.
خرجت إلى الدار فوجئت بالقدر النحاسي، اقتربت منه جسّت ماءه،
ل فاتراً، صرخت: من الذي أشعل الموقد، وأخرج القدر؟
قامت بديعة فزعة، هزرفت إلى الدار:
– أنا..
– ومن سمح لك..؟
– لا أحد.. الشيخ صلى الفجر، سخنت له الماء.
– لا تفعليها ثانية. ولا تمدي يدك على شيء قبل استئذاني.
رفعت بديعة رأسها وأحست بشياطين تتلبسها أو تضربها، اصطكت
نها كظمت غيظها وبكت ـ كنت في الجبل حرة كالعصافير والريح. أعيش

اور، لا أخاف الليل والوحوش، أواجه الدرك بقلب جلمودي، وها أنا
لا أجرؤ على الرد .. تفوه على هذه الدنيا .. قيدتني من جديد باحترام
خ وإلا لضربتها، شددتها من شعرها، رميتها على الأرض، ودست
ي عليها. أنتقم من ازدرائها ووحشية أبيها لكن الشيخ يغضب، وغضب
، شردت قليلاً. هو منقذي من الاغتصاب والموت، اللعنة على ظروف
ي على الصمت وتحمّل إهانة ابنة الوغد اسماعيل.

دأت أعصابها قليلاً، تمسكنت:

. كما تشائين.

فاق الشيخ على صراخ زينة ـ لماذا الصوت العالي، والصراخ؟..

لا شيء.

صوتك قفع أذني، تعنفين تقرعين بديعة!!. اتركيها وشأنها. وإذا أردت
و حاجة منها، قولي لي، لا تتداخلي معها.

ورته:

أخذت عقلك أيها الشيخ الوقور.

حس الشيخ باستهزائها. صرخ في وجهها:

- اصمتي، أفضل لك. والله..

فعت صوتها في وجهه:

أصمت. لا تدع عليّ.

- ادخلي إلى غرفتك.

- أدخل وأخرس، البيت بيت بديعة!!.

- قلت اصمتي..

لتفتَ إلى بديعة- وأنت هلمي إلى غرفتك.

جلس الشيخ في الصيوان، تثلمط فوق اللباد، أغمض عينيه، استغفر ربه،
رأسه وجبينه: ـ وقعت في ورطة، امرأتان، كل تكره الأخرى، وتعتبرها
ا، أكان علي أن أتزوج؟! يا الله أعطني طول البال، وسعة الصدر، ماذا

افعل لقد دخلت معمعة النساء ومشاكلهن وبئرهن العكر؟.. هن سبب كل بلاء، ولكن بديعة.. سأحميها،هي وحيدة لا سند لها ولا عون.. زينة لن تتقبلها في البيت.. سأتوزع وأتمزق بينهما.. هل أستعيض عن حل مشاكل الناس بمشاكلي؟!. هذا الزواج مربك ومتعب، لم يكن هناك خيار آخر.. والمرأة لم تفعل شيئاً، سأقترح على بديعة تربية دود القز.. وغزل الحرير لتنشغل به..

قام الشيخ وزينة إلى مخدعهما..

- هدئي من عصبيتك..
- خارج إرادتي.. فهي وضيعة وحقيرة.
- لا تقترب منكِ ولا تسيء إليكِ!
- لا أحبها
- ولا تبغضيها..

تشاغلت بديعة بإعادة ترتيب الصيوان ليرى الشيخ مهارتها، تفننت بتوزيع الأثاث ولم تكتف بهذا بل نزعت أغطية «الدشكات» ولمت «اللبابيد» وكنست الأرض.

وفي اليوم التالي غسلت الغسيل وشمست اللبابيد والسجادة، ثم أعادتها إلى أماكنها الجديدة.

نادتهم.. كان الصيوان يلمع وكأن كل ما فيه جديد، رائحة النظافة تفوح من «اللبابيد» والسجاد والجدران، كل شيء ينضح بالنظافة.

يوماً بعد يوم أصبحت بديعة تطبخ وتكنس وتنظف، وتهتم بالزوار والضيوف، وزينة تعتبرها خادمة تقوم بما تقوم به مقابل الطعام والشراب والملبس والسكن.

بعد زمن سأل الشيخ زينة:

- أ لا تساعدين بديعة في أعمال البيت؟
- هي خادمة.
- إنها زوجتي أمام الناس ولا أرضى إعادة هذه الكلمة مرة ثانية.

ردت بامتعاض:

- سأفعل ما تراه مناسباً.

ورددت بينها وبين نفسها ـ قل ما تشاء لن أفعل إلاّ ما أريد .. وستبقى خادمة وحقيرة سواء كانت زوجتك أو لم تكن. سميّتها خادمة أولم تسمّها .. لن أدخل معك في مشاجرة وسأبقى صامتة، ولكني سأفعل ما أراه مناسباً وما تستحقه تلك الربسة.. سأعمل على ترحيلها من هنا.

غداً سأغسل لك بعض الثياب.

ازداد اهتمام زينة بالشيخ، بدأت تضع له بعض الوجبات. لكنها لم تلبث وتنازلت لبديعة عن كل ما يتعلق بأعمال المنزل والزوار والمعارف وهكذا أقنعت نفسها بأن بديعة ليست سوى خادمة فقط.. لها وللشيخ.

والبيت أصبح دائم النظافة والترتيب ـ ذا ملامح مدنية ـ وحفاوة الضيوف، ومليئاً أيضاً بالترقب والقلق. أما زينة فلا تجيد أي عملٍ عدا زينتها واهتمامها الزائد بذاتها خوفاً من بديعة وإنجاب بديعة. ستحاربها بأصلها وماضيها مستعينة بقوة والدها. والشيخ يردد يومياً:

ـ ماذا أفعل؟ أنا حائر، أُطلق بديعة!! إنها تعاملني معاملة حسنة، تجلني، تخدمني، ترعاني أصبحت مبعث طمأنينتي وهدوئي وراحة قلبي وبالي، نعمَ المرأة أكافئها وأرميها ككلبة برية؟!! ظلم.. والله لا يرضى الظلم ومن أجل زينة، وأصلها؟ أو أني خائف من ألسنة وأنياب الناس التي ستنهش زواجي بها، وماضيها، وجمالها؟ هم لا يعرفون حقيقة تضحيتها، تسهر الليالي، تعاف النوم من أجل راحتي، في حين ابنة الأصل لا تهتم إلاّ بنفسها، امرأة أنانية، ظننتها هبة الله وإذ بها نقمة.. لذا وضع الله في طريقي بديعة، امرأة مخلصة، ركَضت وراء زوجها و تحملت الويلات والخوف ونوم البراري والأحراش والمغاور والوحوش، لم تتركه لحظة واحدة، والموت يهددها ولم تكتف بذلك، إنما انتقمت لقتله. امرأة تستحق أن تكون زوجتي.

دخلت زينة عليه ـ ما بك؟

لم يسمع أعادت السؤال بصوتٍ عالٍ، رفع رأسه ـ ماذا تريدين؟
- الاطمئنان عليك.

- اسمعي يا ابنة الناس واعقلي أقوالي، المرأة مسكينة، لا تتدخل بأي شيء ولا تقربك، أو تؤذيك، اتركيها وشأنها، لديها عذابات وهموم تئن عن حملها الجبال. جار الزمان عليها وحطت نوائب الدهر أحمالها وأثقالها فوق كاهلها، كوني رؤوفة عطوفة معها، أشفقي عليها، زوجها قتل. وأبوها غاب، شَرَد. وابنها ضاع، يكفيها ما رأته، إنه يشيّب شعر الطفل الرضيع، أيامها مرّة مرارة العلقم والدفلى.. لقد تَعبتْ وناخت أكثر من ناقة، أقدامها دميت وتشققت، وهي تجوب البراري والوديان، اتركيها ترتاح، تَطمئن. وإذا بدر منها ما يزعجك أو يؤذيك، سأرد عليها بقسوة وشدة.

- لماذا تسرد قصة حياتها، أعرفها، امرأة مارقة.

- خافي الله..

- ألا يكفي هربت إلى الجبل.

- تبعت زوجها..

- لو كانت صالحة لبقيت في البيت تربي ابنها أو بحثت عن زوج من طينتها، يحل مكان قاطع الطريق.أي رجل محترم لن يقبل بامرأة كهذه؟!... اعتادت الخدمة في البيوت والذل وو..اكمل ماتشاء

- ويحك ماذا تعنين!!

- عفواً يا شيخ، لا أقصد. فعلتَ ما فعلت من أجل تخليصها وستر عرضها وإنقاذها،ورغم هذا...كان عليك تزويجها من أي رجل مقامه من مقامها، فهي لا تليق بك. وتسيء لسمعتك وسمعتي وسمعة أهلي. طلّقها أمام الملأ وتبقى خادمة هنا أو أرسل إلى أبي، يزوجها من فلاح أو مرابع عنده. تنتهي القصة وتعود إلى مكانها الطبيعي.

ران الشيخ زينة طويلاً، هزّ برأسه يمنة ويسرة، وتمتم ـ مقامها أعلى من مقامك ومقام أبيك، وأنت من يستحق الطلاق، صبرت طويلاً عليك، عططت

يا امرأة، فشلت أن تكوني أماً كأي امرأة خلقها الله من أجل الإنجاب واستمرار النسل والذرية، ومع ذلك تودين طردها و الخلاص منها بأي طريقة وذريعة.

أكملت زوجته حديثها غير آبهة بشروده وهمهمته ـ سأطلب من أبي أن يبحث عن ابنها ويزوجها. أو لتعمل في بيت أهلي؟!! فتنتهي حكايتها.

- بديعة ليست حكاية هي آدمية، إنسانة تخاف الله، فخافي الله بها، تريدين تطليقها، تزويجها.. وكأنك مسؤولة عنها.. أُهديت لك كفراش أهلك!!..

لم تنتبه إلى لهجة الشيخ الساخرة ـ إذاً قلت هناك رجل ملائم لها؟ـ جبر..

- ومن هو..؟

- أجير عند أبي سيجبره والدي على الزواج منها..

- أيضاً يتأفف ويتعفف.

- امرأة عاقة وحقيرة خادمة، أخلاقها أخلاق خدم، من يقبل بها سوى المجنون؟!!

- ويحك، يا امرأة.. أتهينينني؟ امرأة ملعونة أنت.

- عفوك يا شيخ.. إني أتلعثم بالكلام ولا أقصده.. سامحني أتوسل إليك، أريد ترحيلها فقط.

- اسمعي. أنا أريد سترتها وحمايتها فما رأيك!!

ـ ترغب في بقائها هنا؟.. ألم تشبع منه؟! .. هي الحقيقة، كفاك ادعاء ـ أريد ستر عرضها. أتحبها.. تحبها ولذا تتمسك بها؟.. ولا تريد طلاقها. ما الذي فعلته لك؟ كتبت حجاب محبة؟!.. أنتَ من يكتب الحجب، ما الذي حصل بينكما..؟

غذمرالشيخ:

- اخرسي، اخرجي من هنا..

- لن أخرج.

- أدعو عليك.

- ادعُ لا يهمني، ها أنت تكشف النقاب عن وجهك.. أصبحت مفضوحاً عارياً.. أحببتها، شأزتها شأزتك. أعجبتك فتزوجتها ،وأتيت بها ضرة لي، الحقيرة الربسة، ضرة ابنة اسماعيل بيك، زوج الشيخ المهاجر، ألا ترى سخرية الأقدار!!!..أعرف منذ البداية أنك تحبها، ولن تستغني عنها، تولهت بها.. وبجسدها، آه... امرأة مرغوسة؟

أرغف إليها شظايا نار تتطاير من حدقتيه:

- اخرسي يا امرأة. غضب الله عليك.

- غضب الله؟ وتدعو علي أيضاً!! وأي غضب!! لن يستجيب لك.

اجتاحه العذمر، ارتجف، نهض بسرعة، هجم عليها، هربت من وجهه..

دقت بديعة الباب.. دخلت، نظراتها وادعة أخذها الشده، أدهشه وجه الشيخ وزينة. استُفزت زينة من جديد، هجمت تريد ضربها، عضها، تمزيقها، صرخت بديعة ـ أريد تحضير الفطور.

ـ اذهبي إلى الجحيم، افعلي ما تشائين، البيت بيتك والشيخ الوقور زوجك!!.

تركتهما بديعة و أقفلت الباب وراءها.. أدار كل منهما وجهه للآخر.. حضّرت بديعة الفطور، وحملت الفطور بصينية القش التي صنعتها بيديها، طرقت الباب وطرقته بقوة.. فتح الشيخ، رفعت زينة صوتها:

- ماذا تريدين؟

خفضت بديعة صوتها ـ أحضرت الفطور للشيخ!.

صرخ الشيخ ـ لا أريد السمّ.

تمسكنت:

ـ أي سمّ يا شيخ.

طلمس قدحت عيناه شرراً

ـ أقصد الطعام.. اذهبي الآن.

غادرت الصيوان بسرعة ، وضعت طبق الطعام على الأرض،ارتجفت يداها،اندلق الزيت، اجتاحتها نوبة عويل، صراخ الشيخ في وجهها أيقظ جنازة زوجها . جنازة؟ أي جنازة؟ قطعوا جسده، رموه للكلاب وصقور البراري، رموه متسربلاً بدمه، مدت كفيها، فاضتا بالدم. ركضت في طرقات القرية حافية، جابتها طولاً وعرضاً وهي تنتف شعرها . تدحرجت، دمغت الأبواب والجدران بالدم، دم سليم، مزقت ثيابها .. وكأنه قتل للتو ومثّل بجسده اللحظة ..و هي تصرخ وتصرخ، تنادي مقامات، أنبياء، رسلاً ولا مجيب.. تندب حظاً عاثراً ودماً فائراً وسائلاً ممزوجاً بالماء. أضاعت المكان، الزمان، اليوم، الزوج والشيخ.. وبقي الدم، وابتسامة سليم الغائمة والضائعة بين نهنهات وندهات رفاقه أصدقائه ومكاغاة ابنه. قفز الشيخ وأرنف إلى غرفتها وخلفه زينة. كانت بديعة تجلس القرفصاء كخشبة مبللة بالماء.. أو الدم، مرضكة العينين ـ قتلوه، قتلوه، قطعوه. نظرت حولها .. كأنها تبحث عن شيء ضائع، ثمين، وأرغفت النظر إلى السقف، أبي.. أبي.

توسدت الأرض تلطم وجهها، تشد شعرها- ماذا فعلت يا أبي، يا سليم، يا الله، أخذت أمي رميتموني جميعاً .. تركتموني وحيدة شاردة بلا مأوى.. ولا أهل.. أصبحت وأضحيت كحيوان ضال.

أمسكها الشيخ لم تشعر به، قبض على يدها صرخ - بديعة.. بديعة.

فزعت زينة: جنت..لقد جنت.

– اصمتي، ألا ترين شكلها، هيئتها .. منظرها فظيع. لم أر مثله من قبل، ربما فقدت صوابها .. أخاف عليها الجنون.

صرخ ـ بديعة.. بديعة، ما بك؟

– أفزعني منظرها ..

هزها الشيخ بعنف، صرخت زينة- جنت.. جنت.. جاءتها الساعة.

تنبهت بديعة.. بدأ صوت عويلها بالانخفاض شيئاً فشيئاً، رنّعت رأسها :

– ويلي ماذا فعلت..؟

شدُه الشيخ وكذلك زينة:

- يا الله ماذا فعلت لتعاقبني هذا العقاب وتنتقم مني!!.

حاولت زينة التدخل وإبداء الرأي. التفت الشيخ إليها منذراً:

- اصمتي حتى تهدأ. ربما نفهم شيئاً إذا استطاعت الكلام.وإلا ..؟!!

انفجرت بديعة ـ كله منك، منك وحدك.. أين عدلك؟.. رحمتك؟.. رأفتك؟!!.

- اهدئي يا بديعة.. اهدئي..

ناولها ماءً: مابك، أرأيت كابوس يقظة.. أو نوم!؟.

- لا تسألني.. لا أعرفَ ما الذي انتابني.

- اتركها وشأنها، أتظن لديها جرأة على الكلام.

- اتركيني وشأني.. إني راحلة.

اجتاحت الشيخ موجة غضب ـ ماذا تقولين؟

- سأرحل

- إلى أين؟!

- بلاد الله واسعة.. المهم ترك هذا المنزل.

- بيتك.

- لا تخطىء يا شيخ.. هذا بيت زينة ابنة اسماعيل البيك، وأنا دخيلة خادمة.

- اتركها ترحل، لم تعتد عيشة الأشراف.

رانتها بديعة كأفعى جريحة وقامت لتضربها ،أحس الشيخ بحقدها سبقها وأمسك بيدها : ابقي، هنا بيتك وأنت زوجتي.

- اتركها .

- اصمتي.

- معها الحق، اتركني وشأني، اعتدت عيشة الطيور المغردة المحلقة في السماء. ولم أعش مكبلة بقيود وأغلال ابنة اسماعيل بيك. إلى هذا الحد

ويكفي. سأخرب بيتك وأجلب لك كلام الناس ووجع الرأس.. وستداس كرامتي وأهان هنا، عليّ العودة إلى الجبال والمغاور التي تحفظ كرامتي وأكون حرة نفسي.

- نتكلم غداً، بعد غد..

- اتركها تذهب.

- ليس لديها مكان.. أمها ماتت.. وأبوها أخذ بابور البحر وهرب، وزوجها قتل.

- لن أبحث عن بيت يؤويني، وإنما عن مغارة تحميني أرتاح وترتاح زوجك مني.

- أنت هنا معززة مكرمة.

ابتسمت زينة ابتسامتها الساخرة:

- معززة مكرمة محترمة!!.

- كفا يا زينة.. وأنت يا بديعة، إنه شجار يحصل في كل البيوت والمنازل.

- عادي.. بالنسبة لي، من أنا لأتحسس كلام ابنة البيك، إنها تنعم علي بالشتيمة، تزينني بالسباب.. معها حق.. أنا خادمة.. وشتيمة البكوات للخدم مدح وإنعام عليهم!!

- ألهذا بكيت كل هذا البكاء؟.

- ما قالته لا يستحق البكاء؟ وصراخك في وجهي لا يستحق العويل؟.. إنما أبكي نفسي التي هانت علي.. صحيح لماذا تبكي امرأة مثلي.. أو تنوح؟ أنهار وبحار الدنيا لو بكت معي لن تكفيني. قَتل زوجي.. تمزيق جسده، رميه للوحوش والضواري أمام ناظري وأبي الذي ضاع وأضاعني معه، أصبحت كجرباء يتهرب الناس منها.. وأمي ماتت ولم أحضر جنازتها.. وابني لا أعرف أين هو؟.. ولمَ أبكي؟.. وأنت انتشلتني من بين الكلاب الضالة المفترسة.. معفرة بالتراب.. ومغسولة بالشتيمة ومزينة بالتهديد بانتهاك العرض والعار.. السياط لازالت ترسم خطوطها على ظهري.. والحصى حفرت في جلدي

الأخاديد .. لماذا أبكي؟.. وهل كلامكم موجع ومبك كحياتي؟.. هات قدمك أقبلها لنجدتي وإغاثتك لهفتي. لماذا أبكي؟ وهل كلامكم موجع كخدمتي في البيوت؟.. البكاء يخطف الجنون، وأنا أريده، أسعى إليه.. بيدك حق يا ابنة البيك.. أنا مارقة وأبي لم يكن بيكاً، آغا .. كان صاحب كيف وعاشق مغامرات ونساء، ضاع وضيعني وأمي معه، وانتقم للنسوة بي..

كلامكم بلسم لامرأة مثلي.. ترثي لحالها الجبال والوديان والسهول والحجارة و القفار.

بحّ صوتها .. لم يعد يسمع، صوتها الآتي من مسافات بعيدة من البحر، البَرَد والهواء الذي قصّف نغماته وأخفاه.

قتلوه، رموه، كان يضحك، يضحك لي.. يسخر من الحياة ومن أعمارنا .. وجلدنا البالي.؟ كان ينظر إليّ ودمعه يتقطر.. بل ينزف دماً .. ويبتسم ويطلب مني ابتسامة خرقاء.. عربون إنقاذي.. أصبح طريداً قاتلاً لأجلي،.. ومع ذلك كان يبتسم ويسخر من الدنيا وعشاقها الذين طمروا في الوحل والطين.. بينما هو وحده كالصقر شامخ،بل نسر لا يعيش إلاّ في ذرا الجبال.. بينما أبوكِ البيك وطواط، نعامة.. نعامة.. وطواط.. وأكملي ما تشائين.

كان نسراً رماه نذل جبان.. قوّضه بقوس أهوج مشدود، أفشى سره ولاحقه.. أتعرفين النذل الجبان، إنه أبوك اسماعيل بيك.. تفوه رجل خسيس.

وبدأت نواحها- واحسرتاه على شباب سليم وشبابي.. جزؤوه، بعثروه في التراب، واحسرتي ضاع سليم.. رحل كأنه لم يولد ويشب ويدب على هذه الأرض.

صرخت زينة- ويلك ماذا تقولين أيتها العاهرة؟.

- أبوكِ العاهر.. يا ابنة النذل والجبان.. زيدي ما تشائين من الأوصاف، أبوك تسلحف على نفسه وانقلب على قفاه.. وأظهر صفاته، ونذالته.

التفتت بديعة إلى الشيخ وأكملت - تحملتُ من أجلك رؤية هذه الآفة، ولماذا آفة؟ ابنة آفة وجيفة ودودة، وأفعى تلدغ لدغتها والقبر.. أبوكَ هو النعثل..؟ وماذا يفيد الكلام الآن؟.. ويلي وويلي على شبابه وعلى ابني نمر

تيتم باكراً.. لو لمت بصراخي الإنس والجان وكل المخلوقات لما أطفئت نيران جسدي. ولو ولولت جيلي وأجيالاً ثانية لما وفيت سليم حقه، ليت عناكب الدنيا تعشش في روحي وناظري كي لا أرى قتله وأتحسس دماءه.

تطلع الشيخ إلى زينة، همست في أذنه:

- المرأة جنت. ماذا تقول؟! وتهذي؟!. كيف تتهم أبي؟ أكرهاً به؟.

- الله أعلم.

- أتصدقها؟

- حالتها يرثى لها. لا تدري ما تقول.. ولن نحاسبها عما تفعل وتقول، فيما بعد ينجلي الأمر..

- موت زوجها لحس عقلها وأنت ما بك اصفّر وجهك وشحب لونك!!..

- ألا ترين حال المرأة تقطع قلب الكافر؟

- مجنونة.. مأواها البراري.

- المهم أن تهدأ.

كانت تقاسيم بديعة قاسية.. لم ير الشيخ امرأة على هذه الشاكلة، ملامح توحشت، جحظت عيناها المنتفختان من البكاء وتدلت شفتاها اللتان تعبتا من الاصطكاك والرجفان. صمتت، لم تعد تنطق حرفاً واحداً.

- اغسلي وجهك يابديعة..

نهضت، تحركت حركة منومة توجهت إلى الدار، غسلت وجهها، قعدت فوق الحجر الكبير بجوار التنور، تنهدت وزفرت بعمق، لحقها الشيخ.

- لم أرك من قبل ضعيفة هكذا.

- آه يا شيخ.. أنت وزوجتك رششتما فوق الجرح المتقيح ملحاً، كنت أكتم مشاعري، توجساتي، لا أريد البوح، سامحني.. منذ زمن وأنا أهرب من جثة ودم وصورة زوجي.. رأيته ليلة الأمس في الحلم.. كان نمر يداعب وجهي" يكاغي" وسليم يبتسم له.. واليوم شجارك مع زوجتك. نحا نحوي، تحول باتجاهي، فتح مواجعي دفعة واحدة، كلامها كالضرب، كالقتل وأقسى

أحسست بالظلم والقهر.. منها .. ومن حياتي، انهارت قواي وتفجر دمعي، وكأني أرى المنام الكابوس!!.

- إنه منام.. لا خير ولا شر به انظري إلى الشهر، والهلال لا تخافي، والحلم سببه قلقك على ابنك و التفكير به.

- آه يا شيخ. النوم يجافيني.. أخاف كوابيسه التي تلاحقني، تطاردني، تجثم على صدري، تخنقني، أفيق مرعوبة، لا أعرف ماذا أفعل؟ منذ مجيئي إلى هنا والكوابيس تزداد وطأتها علي.. دماء زوجي ووجه ابني غارق في الدم، يبصق عليّ، يلطمني، انصحني ماذا أفعل؟ كيف أهرب من هذه الأحلام؟ وكلما تشوذت الشمس أتكور على نفسي خائفة الليل والظلمة والنوم.

- استغفري ربك.. هذا حرام.

- أمضى اشوذاذ الشمس يعني اقتراب الليل والنوم والأحلام.

- لم تقولي هذا من قبل.

- لا أريد رمي أحمالي وأثقالي عليك، يكفي، نجدتني وأنقذتني من فضيحة الاغتصاب و عاره.الموت أهون علي منه، سيحمل ابني العار طوال عمره، أمه اغتصبت ثانية... الأولى لا أحد يعلم عنها شيئا".

- كان عليك الشكوى من أحلامك.. سأكتب لك حجاباً ضعيه تحت رأسك أو في ثيابك تبعد عنك الأحلام المزعجة، (سأقطع لك التابعة)، وابنك سأرسل من يبحث عنه ويأتيك به.

كانت زينة تصيخ السمع وهي تتفجر غيظاً مكتوماً، خوفاً من تعرض المرأة لنوبة ثانية، لن يسامحها الشيخ ـ علي السكوت زمناً، أرتب طردها وأجعلها تسوح في البراري والقفار، تكلم نفسها ... سترى تلك الحقيرة (القحبة) آخرتها، لن تبقى في هذا البيت ولو باست قدمي.. لتنتظر، لن أقبلها خادمة، فالخدمة اعتادت عليها ولن تكون إهانة لها . سترى العجب العجاب. الخادمة أصبحت زوجة زوجي.. أيصدق عقل أن تكون ضرتي عاهرة.. ضرة ابنة اسماعيل بيك؟! الشيخ نوى إحضار ابنها، ذلك الجرو ابن اللص وقاطع

الطريق. (خلّف الكلب جرو طلع ألعن من أبيه) قد يتبناه الشيخ ويكسب ثوابه. وهو يرغب في ولد يرثه.. يربيه ويعلمه، يريد ولداً من صلبه.. وليس كهذا القرد الصغير.. وإذا فعلها.. لن أحتمل وجوده هنا.. يركض أمامي.. يداعب أمه.. وأنا أتحسر.. وإذا حبلت؟ يقول أنه لم يقربها إلى الآن، وما أدراني؟!!.. إنه لا يكذب، لكن سيرطوها في الأيام المقبلة وينجب أطفالاً...ما يمنعه من نكحها وهي زوجته شرعاً، حلاله، وقد تزوجها على الملأ. ربما ترك مضاجعتها لفترة زمنية يعتاد الناس عليها في بيته وينسون قصتها، عندئذ يجهر بمعاشرته لها ويعلن حملها. يسكت الناس ولن يتكلم أحد. الكل اعتاد وجودها.. والشيخ يرغب في ولد ومن حقه ذلك... سأتوخى الحذر والحيطة..كيف؟أستشير أمي..استشرتها من قبل. نصحتني بالنذور واستخدام العشب البري اليابس المدقوق ـ تطببي به...

ـ ولم أحمل..لكن قد يكون لديها عشبه تمنع حمل بديعة. علي الانتباه، والتصرف بسرعة وبحكمة وروية، بحيث تهرب من البيت ويظهر أني بعيدة ولا علاقة لي بذلك. تبدو وكأنها عادت إلى حياتها القديمة التي اعتادتها.

أنصتت من جديد إلى الكلام، وقد فاتها جزء من الحديث:

– اهدئي يا بديعة.. تعالي لنأكل.

– كُلْ يا شيخ، أنا لا أقدر.

– حاولي ولو بضع لقيمات صغيرة.

– لا أستطيع.

– اجلسي معنا فقط.

مشت إلى جانبه ساهمة. وزينة تفكر ببديعة وطرق طردها من البيت. ناداها لم ترد، أعاد النداء. تساءل في سره ـ ماذا يحصل للمرأتين؟ واحدة شاردة، والأخرى ساهمة.

نادى زينة ثانية، التفتت نحوه، تعلو قسمات وجهها ابتسامة صفراء غامضة. لم يفهمها الشيخ.

- لنأكل الآن.

دخل الثلاثة، سألت بديعة عن المكنسة، أجابتها زينة من زاوية فمها أومأت لها برأسها عن مكانها وكبحت جماح غيظها وكرهها.

حملت بديعة المكنسة وحركتها حركة من يسبح في فضاء عالمٍ آخرَ، وكأنها اعتادت العمل وحركاته دونما تفكير.. أتت بالمكنسة ذات العيدان المتقصفة، حملتها من أرض الدار.... وعيونها في الأرض...صرخت زينة:

- ليست هذه.. وإنما..

بقيت بديعة صامتة برهة واستأذنت الشيخ الذهاب إلى الحرش كي تحتطب وتصنع مقشة جديدة. متناسية ما قالته زينة عن المكنسة الثانية.

- اذهبي.. وعودي باكراً وإلا سأغضب منك.

قال لنفسه ـ تحتاج إلى الهواء والمشي بحجة التحطيب.. المهم خروجها الآن!.

- كما تشاء.

جلست زينة تتناول الطعام وهي واجمة ساهمة تفكر بالمرأة التي اقتحمت حياتها.. ولا تعرف متى ترحل.

فكرت بأكثر من امرأة قد يتزوجها.. أما بديعة.. لم تكن بالحسبان أبداً، إنه قدرها.. قدر يتحطم بمرآة مغبشّة متسخة.. لعلها ترحل ولا تعود.. أرتاح من طردها.. والوقوع بالأسئلة، وغضب الشيخ والناس، غاصت وغرقت في أفكارها.. لم تأكل لقمة.. الأفكار تتزاحم في رأسها وكل فكرة لها مساوئها.. تبحث عن أخرى.. لم ينتبه الشيخ لزوجته وشرودها.. قام إلى الدار، يمشي ويفكر بورطة الزواج من اثنتين، يساوره الخوف والقلق من مصير ومستقبل بديعة التي قد ترحل ولا تعود.

تبعته زينة، وقعدت تراقبه... وكأنها تقرأ أفكاره، توجساته ـ ستأتي لا تقلق فهي لا تتأثر بالكلام أبداً.

- خافِ الله يا امرأة. إذا رحلت سيقال طردناها.. وهي أمانة في عنقي..

والمختار في قريتها يتربص بها .. ينتظر رفع حمايتي عنها .. قد يقتلونها .. كيف أذهب من عقاب ربي؟.

- ستعود .. ليس لها مأوى ثانٍ.. لم أرك قلقاً هكذا من قبل.

- تكرهينها، لا ألومك، قاسمتك بيتك وحياتك.. واسم زوجك، إنها مسكينة

- أعرف.

قالتها بازدراء واشمئزاز وسخرية.

- أنت حرة.. لا تصدقي!!

- تحبها، وتتذرع بالناس وكلامهم.. وبالخوف عليها. قل إنك موله بها .. وتريدها بجانبك مهما كان الثمن، وتخاف فراقها وهجرانها ... أعرف.. أعلم، عيناك تفضحانك.. أنا امرأة وأحس، أنت عاشق يا زوجي الجليل.. وليس لدي حيلة، حجر طاحونٍ جاثم فوق صدري...كأني بقرةِ تحرث وتدور حول ذاتها .. فقدت صبري.. نار تتقد في جسدي.

صمتا معاً.

سمعا أصواتاً ـ ضيوف.. حتى الضيوف أهملتهم وعفتَ التدريس وكل شيء لأجل الخادمة.

نهض الشيخ رحب بالضيوف، وأدخلهم الصيوان ، وزوجته تراقبه ـ القلق بادٍ عليه، واضح في حركته العصبية، يستأذن الضيوف بحجج مختلفة.. يراقب الدار والساعة.

ناداها بصوت عالٍ ـ هاتي الطعام والشراب.

- وأين الخادمة؟

- أي خادمة؟

- لا تخف. لا أقصد بديعة.

- ما أدراني.. قومي وأحضري الطعام ،وغداً آتي بها إلى هنا.

قامت على مضض ـ لا يعرف ما يريد، المهم ملء الفراغ والوقت بالطلبات

والأوامر، حتى تعود ست الحسن. صرخ:

- هاتي زوفا .. وحبات "العفيص" المنقوعة، أريد استخراج الحبر منه...

رحل الضيوف.. وبقيا معاً .. استجمع قواه كي يفتح حديثاً معها .. قال جملة متقطعة، ثم هرب إلى الكتابة.. أتى بالدواة والريشة دوّن ما يحفظه غيباً، أعاد قراءته اكتشف أخطاء كثيرة.

فُتح الباب، قفز الشيخ، رأى بديعة وعلى رأسها الحطب، تهللت أساريره استرخى جسده.. وابتسامة جميلة علت محياه ـ أحبها، أحبها .. أخاف غيابها. حضورها هو الفرح، وانبثاق الفجر، سألها مداعباً:

- أين أعواد المكنسة؟

- هاهي.

سمعا نداء"، خرجت بديعة، فتحت الباب: زوار، رحبت بهم، أحضرت الزوفا، جاء الشيخ، أعطوه سكيناً قرأ الفاتحة والأدعية ـ السكين جاهزة يمكنكم ذبح النذر. قبلوا يده وزكوه،ثم رحلوا.

تأملته زينة: هل ارتحت؟ كنت ستلحق بها !!.

فَضّل السكوت.. فهو أسمى من الرد على ترهات امرأة.

اقترحت بديعة تغيير ترتيب الصيوان ثانية. ردت زينة ـ اعتدت الخدمة وترتيب البيوت.

ألقت جملتها وندمت عليها، خرقت اتفاقها مع ذاتها ـ لم أستطع السكوت.

- بديعة أختك.

صرخت كلبوة: لا .. وألف لا ..

هز الشيخ رأسه، قام إلى مخدعه، أومأ برأسه إلى زينة تبعته: هدئي من عصبيتك.

- كما تشاء.

بقيت بديعة تعيد ترتيب الصيوان.

تمددت بديعة. ليلة قلقٍ جديدة: ليالٍ بأكملها أركض وراء النوم فتسهر عيناي وإذا غفوت، حلمت بالشيخ يداعب زوجته. تأكل الغيرة أحشائي وروحي.

عيناي انتبجتا من البكاء.. أصحو، أعمل، أقوم بأعباء البيت بصمت متفجر. آكل وحدي رغم محاولات الشيخ إشراكي معهما وأتحجّج بالشبع، أعود إلى هذه الغرفة القاتمة أبكي حظي العاثر ونحسي وأهرب بعيني كي لا تفضحا حبي للشيخ وكرهي لزينة. كم أخشى الصراخ في وجهها! إنه لي..

أخاف اكتشافها واكتشافه حبي. لعله يحبني.. نظراته نظرات شفقه، ومن أكون لأنال حبه؟ خادمة، فعلاً خادمة، زوج قاطع طريق،آثمة... وهو الشيخ المبجّل الجليل السامي باتجاه السماء..معاملته.. معاملة لطف وإحسان.. روحه روح رجل تقي نقي، وإحساسي أنه يحبني، ربما رغبتي في حبه.. تجعلني أفر، تدفعني لأفسر تصرفاته حركاته،أنها حركات محب وكذلك سكناته.. هو الشيخ الجليل، ألا يحب الشيخ؟! أليس له قلب؟!.اصمتي، اخرسي، اكتمي حبك يا امرأة، أنا لا اطلب حراماً، أطلب الحلال، الحب.. ومن أنت؟ آدمية؟ خادمة. أصدقت أنك زوجته حقاً؟! لم يقربك إلى الآن، كفاك أوهاماً يا امرأة، الزوجة لها حقوق على زوجها. لو أنه اعتبرني زوجة لاعترف بحقوقي.. علي بالصبر أو الرحيل، إلى أين؟.. إلى حياة التشرد، اسكتي، وارضي بما قسم الله لك. يا ربي في كل ليلة.. أعيد الكلام ذاته، أحاول تهدئة روحي بوجهه.. وقسماته لعلها تبعد ماضيَّ الكئيب وتحمل معها نعاساً، قد يدغدغ رموشي وعيوني الساهدة.يا الله خفف الأثقال عني.. أثقال أشباح الماضي وحبي للشيخ وتعلقي الأعمى به.. ها أنا أهرب إلى البراري، أحتطب، أحش أعبئ (حرجي) بالزوفا والسماق.. وأحمل الحطب فوق رأسي لأعود منهكة.. متعبة لعل هذا الجسد يهدأ، وأنام. فلا أرى زينة تأكل معه، تجالسه.. تقاسمه فراشه.. وأنا أنام في هذه الزاوية ككلبة جرباء.. أخدم، أطبخ، أنفخ، ونار الغيرة تحرق أحشائي يوماً بعد يوم، والشيخ صامت.. أأتوقع بوحه بحبي؟ النساء قليلات

عقل ودين!!.

وأنت أيتها الآفة ابنة النعثل ماذا أفعل معك؟ أقتلك وأستريح؟. ويحي أوصلت للقتل؟ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أكرهها أتمنى اقتلاعها من البيت وإيداعها في جوف وحش بري يبتلعها.. أو كتمها في التراب، وهي تكرهني. إنه الآن يداعبها.. يشم رائحة جسدها.. جسده ملتصق بجسدها يا رب صبرني.

كان الشيخ يجلس في فراشه ووجه بديعة يضيء ليله.. وحركاتها تؤنس وحدته.. نظافتها تطمئن روحه.. تهدئ غضبه، ساعات فقط.. ينبلج وجهها مع ضياء الصبح.. تسخن الماء.. ويتأرجح الشعر الليلي.. فوق القامة الممشوقة المنتصبة، تفتح تلك العينان الفرحتان والدامعتان معاً.

خرج إلى الدار.. دعا ربه ألا يراها.. كيلا يضعف ويبوح بحبها.. ما عاد يستطيع الكتمان أكثر، إنها تشغل ليله ونهاره، مساءه وصباحه.

أثناء غيابه فتحت زوجته عينيها، ونار الغيرة تستعر في أحشائها، وتبوح عيناها بها، وهي ترى قلق زوجها. اهتمامه.. تغفو إغفاءة مريض يهذي، يعاني حمّى.. تصحو.. وتعيد أحداث النهار من أوله.. وهو غافل عنها مشغول بالبحث عن ابن بديعة.. قعدت في فراشها تكلم نفسها وكأنها جنت، فراش الشيخ فارغ.

- لعله الآن في فراشها.

ضربت وجهها.. لعنت حظها وساعة تزوجت الشيخ.ليتها تزوجت أحد أبناء البكوات، واستراحت.

دخل الشيخ عند سماعه صرير الباب، هارباً إلى مخدعه، هدأت زينة قليلاً..

- ماذا بك؟!

- علينا إحضار ابن بديعة.

- وما دخلنا نحن؟

- أمه هنا والطفل يتيم.

- لتذهب هي وتحضره

- ويلك، أترك امرأة وحيدة تفتش عن ابنها، قد لا يكون في بيت أعمامه، خاف الله يا امرأة أنت لا تعرفينها .. كلما ذهبت إلى الحطب أو نبع الماء تسأل النسوة وعابري السبيل عنه.

- عن ابن الحرام..؟!

- ابنها .. وهي أم.. أم..

- أتعيرني أني لا أحس بها .. لأنني لم أنجب بعد؟

- استغفر الله.. لكنك لست أماً لتقدري مشاعرها.

- كل يوم على هذه الحالة شجار من أجلها .. وكل ينام في فراش.

- أريحي نفسك.

غطت رأسها باللحاف كي لا تسمع تتمة حديثه المكرر.

في الصباح طلبت بديعة إذناً بالرحيل إلى قرية أقرباء زوجها لتسأل عن ابنها.

- ألا تخافين الدرك؟

- مضى زمن على الحادثة وأنا ما زلت تحت حمايتك.. ومهما يكن الأمر عليّ إيجاد ابني.

تدخلت زينة: معك حق.. ابحثي عن ابنك وربيه.

- إذا وجدت الولد في بيت أعمامه هاتيه معك.. وإلا عودي..

تذمرت زينة. لكنها بقيت ساكتة، فالكلام لن يغير رأيه أو قراره والمهم التخلص منها ولو بضعة أيام وربما تذهب ولا تعود.

- أرافقك!!؟

- لا يا شيخ، أعرف الطرق جميعها.

- أخاف عليك.. من الدرك والمختار.

- لا تخش شيئاً، أنا أتدبر أمري،. المهم الاطمئنان على نمر، قلبي ينفطر

عليه.

قام وأعطاها حماراً تركبه وزوادة.

- لا أريد حماراً.

- لن تذهبي مشياً على الأقدام.

ركبت الحمار ولحق الشيخ بها أعطاها مجيدية ذهبية ولف لها زوادة من الشنكليش والزبدة، ودعها واتجهت إلى قرية زوجها.

المشهد السادس

اشهدن عليّ أيتها النجوم الزاهرة والكواكب السائرة والأفلاك الدائرة، هذه الصورة المرئية المعاينة الناظرة، صورة تجلي الأحد الفرد الصمد الذي لا يتجزأ ولا يتبعض ولا يدخل في عدد، إلهي وإلهكم سراج الظلمة القابض على كل نفس.

الفاتحة.. سبحانك ربي يا من شوذت الشمس تشويذا، وأصلعتها من كبد الغيم، واحتجبت بالاسم.. يا معنى كل معنى.. وأنت الظاهر والباطن.

أرضك الشيخ عينيه، رذّت السماء، يا الله أرحمني من رحمتك وبركاتك وفيضك

يا ظاهراً لم تغب عنا	**وباطناً لم تزل فردا**
أجب لداعيك واعف عنا	**وارحم ما مضى قبلاً وبعدا**

كانت أوراق الدخان تتمايل غنجاً مائلة بلونها إلى الحمرة الداكنة وعيون النسوة المغبشّة والمرمدة ترقب الوريقات، تبدلها بثياب مزركشة ومناديل حرير، الوجوه شقرتها الشمس الذهبية، وسراويل ملونة، تخفي اللحم الآدمي. نادته زينة ـ هناك زوار..

نزل الدار، حيا الزوار، ودعاهم إلى الصيوان ـ بديعة.. يا بديعة.. لقد رحلت. زينة.. زينة هاتي الطعام والشراب.

ناولته طلباته ووجهها مكفهر لا يفسر. حلّ الليل ورحل الزوار، لفتّه وحشة المكان، انتقلت إلى روحه وجدران مخدعه، نام نوماً متقطعاً قلقاً أتاه صباح كئيب، هرب إلى السطح، يستنشق رائحة الصبح، يتأمل قمصان السماء الملونة، تخلعها الواحد تلو الآخر، الأرجواني، الأحمر القاني، محملة بعبق الآس ألزمردي، وصوت الطيور الساجعة ،وهي تنهض وترفرف بأجنحتها .رهدن الشيخ باتجاه السلم الحجري. نادى زينة- أعطني الدخان.

- أين هو..؟

- لا أريده..

مضى الليل الثاني، الثالث، السابع، ورائحة البيت المعطرة بدأت تتداخل مع العطن. الترتيب تحول إلى فوضى.. وإحساس بالوحدة، فراغ.. فوضى.. اتساخ.. وهو لا يملك سوى التذمر الصباحي والمسائي، والصراخ في زوجته - مابك لا تعرفين مكان الثياب.. والطعام.. والأغراض، لا تجيدين شيئاً.

تكز أسنانها، تعض شفتيها المتقرحتين جفافاً وتدميهما.

- زادت عصبيتك.

- من إهمالك لي وللزوار.

-.. وصراخك في وجهي، صراخ تتعمده كلما أجبتك بالنفي، تهب علي كريح شمالية، لم تعد تقدر على فراقها.

- انظري إلى البيت، الدار، ثيابي، ضيوفي، تعج بالفوضى والوسخ. استغفر الله.

غادر البيت وذهب إلى سهرة، أطالها حتى ساعة متأخرة، حيث تكون زينة قد نامت. تمدد في فراشه دمعت عيناه - بات الدار صدى حركة بديعة، ركضها في البيت والدار، سرعتها في تأمين حاجاتي قبل نطقي بها. جمالها الأخّاذ. عيناها الحوراوان.. خصرها النحيل.. قدها..: اشتقت لها، فراغ بفراغ، ضيوفي تململوا، قرأت في عيونهم ذلك الاستنكار.

أفاقت زينة، باغتته - جافاك النعاس، حرمتك النوم.

جاء رده مفاجئاً ـ بلى، أفكر بها .. وأنت تعرفين السبب أكثر من غيرك..

- أنت تحبها .. تحبها .

- أفتقدها . انظري إلى البيت، انقلب رأساً على عقب، لم أعد أرتاح في منزلي. إهمال لي، للضيوف، للبيت.

- تحجج بي، لتبرر حبها وافتقادها!

- ظني ما تشائين.

- أرسلني إلى بيت أهلي، تعبت، مللت منك ومنها ومن المنزل، ما عدت أبتغي سوى الراحة، والراحة في الهرب.

- أخزي الشيطان يا امرأة.

- أرغب في الراحة والتنفس بهواء لا تشاركني بديعة به، ولا أسمع باسمها، لا أرى شكلها، أرهقتني، أتعبتني بنظافتها، ركضها، مديحك الدائم لها أمام الناس وأمامي، لم تعد تهتم بمشاعري.

- ماذا أفعل؟

- طلقها .

- خاف الله يا امرأة، إنها مقطوعة.

- أنت تحبها .

- أهذا ما يشغلك، ويتعبك؟

- ويشغلك، دعني أتصرف.

- تطردينها!!؟

- لا ، أطلب من أبي تأمين عمل لها ، وتعود إلى بيت أمها .

- لن تعمل عند والدك.

- أعطها ما يكفيها .

- وحمايتها؟

- أبي يتكفل بالحماية، لن يمسها أذى" أو ضرر، إلا إذا عادت إلى الطريق القديم، عندئذ تجني على نفسها .

- أنت لا تتركين فرصة إلاّ وتنالين منها، أجلّي الحديث إلى يوم آخر.

- أؤجل الحديث كي يصبح وجودها وابنها أمراً واقعاً.

- اهدئي الآن.

صمتت ـ والدي آتٍ غداً.

ابتسم: تهدديني.

- لا .. سأذهب معه.

- تعقلي يا امرأة وكفاك جنوناً.

ناما كل في فراش، ومع صياح الديك قام الشيخ واستيقظت زينة، نظفت البيت، رتبته، ذبح الشيخ جدياً، احتفاءً بإسماعيل بيك، وأرسل في طلب امرأة لتطبخ وتساعد زينة.

وصل البيك راكباً فرسه المحجلة مع الغروب، يرافقه ثلاثة رجال مسلحين.

رحب الشيخ به وبرجاله.

أحضرت المرأة الطعام، سأل البيك ـ أين الخادمة؟

- أي خادمة؟

- بديعة.

استبقت زينة الشيخ وقالت:

- رحلت لتأتي بابنها.

راقب الشيخ عيني زينة صاحت ـ لا تنظر إليّ هكذا وتزورني، هي خادمة.

تدخل البيك ـ ما الأمر؟

أحست بالقوة: نتشاجر دائماً من أجل الخادمة بديعة.

- زوج قاطع الطريق؟.. الفاجرة؟.

استفزّ الشيخ: هي مسكينة، ولم تكن يوماً مارقة أو فاجرة.

- ومن قال هذا؟

- أنا.

- اسمح لي يا شيخ: أنت لا تعرفها.

- ولا أنت.

- لا تزال إذاً على عصمتك واسمك.

- ظاهراً.

- طلقها.

- إنه رأيي أيضاً يا أبي.

- لماذا؟

مقامك عال ومقامها في القاع، أنقذتها لا بأس، عطفت عليها لم نقل شيئاً.. تبقى في عصمتك، لا أقبل.. ولا تقربها أيضاً.

- هذا الزواج ارتضيته وأرتضيه

- ألا تخاف على سمعتك.. إنها في بيتك.

- أنا أثق بها.

- أنا لا أقبل.

- شأنك...

- لماذا تحتفظ بها؟

- مسكينة لا أريد تشريدها.

- هي عاهرة.

- لا تعدها ثانية. إنها زوجي.

- ولو كانت.

فوجئ الشيخ، جف ريقه.. كتم غيظاً بركانياً، دعا عليه بقلبه - خاف الله، أعراض الناس لا تمس قد يأتيك يوم وينال الناس عرضك.

- عرضي؟ أقطع لسانه.

- لن يطلبوا الإذن.

- ولا منك.. زوجتك ابنتي، ولن أقبل بضرة لابنتي، ضرة وضيعة الأصل

وشريدة.

- دافع عن ابنتك فهو حقك، أما إيذاء المرأة فلا أسمح به.

- هي..

- تذكري، هي زوجتي.

حنقت ونفطت:

- كفاك مشيخة وتقى، أخذت عقلك ولبّك ولولا هذا لما أبقيتها يوماً.

- اخجلي، وكفاك كذباً.

- حقيقة واقعة أنك تحبها.

- أأدعي التقى في نظرك؟

- افهمها كما تشاء.

تدخل الأب مهدئاً الحوار- الحق بيدها والغضب مشروع بحالتها.. أنت جلبت ضرة. كنّا باركنا زواجك من امرأة أخرى محترمة تتزوجها لأجل الأولاد أما هذه!!؟

أمسك الشيخ غضبه وعفكه وكاد أن يفلت لسانه، ويعلن عن رغبته بطرد ابنته.

- اهدأ يا شيخ.. علينا معالجة الأمر بحكمة.

اللهجة الناعمة لم يعتدها البيك، أما مع الشيخ فكانت خوفاً من أدعيته. غمز ابنته، فهمت ولاذت بالصمت. أرغف البيك النظر إلى الشيخ وقال:

- آخذ زينة لبضعة أيام، تهدأ، وتسترخي، وأنت تعيد التفكير بحل مرضٍ. أساعدك بتأمين حياة كريمة لبديعة وابنها.. طبعاً بعد طلاقها ومغادرتها البيت. تدخلت زينة:

- هي لا تأخذ مساعدة منك.

- أعطيكَ لوازمها وحاجاتها، وأنت تتولى الأمر.

- لن يقبل يا أبي.

- لم؟

ـ يخشى عليها الدرك وطمع الناس لحسنها وجمالها !!

ـ الدرك أتدبر أمرهم وأيضاً البشر.

ـ إلى متى تتكفل بها؟

ـ حتى مماتها.

ـ أمهلني وقتاً أشاورها.

ـ تشاورها !! ومنذ متى نشاور النساء.. ونأخذ رأيهن؟!! و بديعة؟!!!

ـ إنها نفس.

ـ لا تخالفك بأمر.

ـ صحيح

ـ إذاً تصرف.

ـ سنرى.

صاح إسماعيل ـ حضري حاجتك، نسافر غداً في الصباح.

ـ ابق هنا يوماً يومين.

ـ لا أقدر لدي عمل كثير، الفلاحون يتهربون من العمل كلما غبت عنهم..

ـ لديك مراقب.

ـ يخافونه وأنا في القرية، عندما أغيب يفقد هيبته ونفوذه يتطاول عليه الفلاحون، وهناك مشاكل كثيرة تحتاج إلى حل، العشائر يتشاجرون مع بعضهم البعض، و قد سقط قتلى، سأعمل مع الزعماء الآخرين على حلها. ما رأيك التوسط معنا !!.

لم يكرر الشيخ دعوته ثانية. ولم يعلن موافقته في المشاركة بحل الصراع بين العشائر.

أثناء حديثهما ذهبت زينة لتحضير حاجاتها.

ـ يا شيخ زينة غائبة، سأتكلم معك رجلاً لرجل، ابنتي ابنة عز ودلال، لا تستطيع تحمل ضرة تشاطرها البيت والزوج وإصدار الأوامر. ما بالك بامرأة كبديعة، الأمر صعب، أتمنى حل المشكلة فترة غياب زينة عن البيت وإلاّ لن

أعيدها.

- اتفقنا نترك المشكلة الآن، ونرى لاحقاً بديعة!!

- أنت رجل حكيم وعاقل، لن تقبل بامرأة كهذه، وإذا قبلت. طلق ابنتي.

- اترك الأمر الآن.

- لا أريد تحريض زينة.

- أبي حضرت ثيابي، لن تستفيد شيئاً.

صرخ الشيخ:

- تسترقين السمع ـ لعنك الله من امرأة. أنتما تعرفان كيف تزوجت؟ لا حباً بالنساء وإنما قدر مكتوب علينا.

- نعرف ذلك، ونقدر جميلك وكذلك الناس، لن يلومك لائم إذا طلقتها، واللوم إذا بقيت على ذمتك.

خرجت زينة وعادت بالفراش، مدتّه.

- لنغير الحديث.

- ننام وغداً نرحل باكراً قبل إطلاق الشمس عنان حرارتها. فنصل باكراً.

- أتخاف يا اسماعيل؟

- أعوذ بالله.

تدخلت زينة- المنطقة كلها تخشاه، تهابه، لم يجرؤ أحد على التعرض لأبي سوى قاطع الطريق سليم.

- تجنبت الخروج ليلاً كي لا أصطدم معه والآن قتل واسترحنا منه ومن قلاقله.

أطرق الشيخ: قتل؟، أم أنت من تسبب في موته؟

رفع رأسه حدق بعيني اسماعيل، عيناه تبرقان فرحاً ولذة انتقام من سليم، الذي أرهبه وأرهب أمثاله.

- نال جزاءه وقطعنا دابر قطاع الطرق، اللعنة عليه طارده الدرك زمناً طويلاً حتى نالوا منه واصطادوه، ذهبت لأشاهد جسده وأتأكد من موته،

قطعوه إرباً إربا.

بدأ يصف مشهد القتل الفظيع، وكأنه خروف أو عجل ينتظر ذبحه وشيّه وأكله بعد جوع أيام.. أو منظر يبهر الناظر ويبعث السرور في روحه وهو يصف قتله.

لوكان كلباً، قطاً، جرذاً.. كان سيحزن عليه أكثر.. إنه يتغزل بجسده الممدد المقطع، وبدمائه المعجونة بالتراب.

- صنعنا جراراً فخارية من التراب الأحمر المصبوغ بدمه القاني.

أحس الشيخ بالإقياء.

- كان شكله يشبه الأفعى.. أما رائحته فرائحة جيفة.

- أستغفر الله.. لا يجوز على الميت سوى الرحمة.

أجاب بكلمات ساخرة:

- رحمه الله!! يستحق الحرق.

- ربك أولى به.

ناموا جميعاً وفي الصباح رحلت زينة وأبوها.



أمسك الشيخ الريشة، غطها بالحبر، كتب بعض الأحرف بالخط الكوفي رسم حولها دوائر، مستطيلات، مربعات، لف الورق بقطعة قماش وخبأها في الصندوق، ثم اخرج كتاب الأعياد، قرأ صفحات أغلقه. تناول كتاب الأحلام، تصفح ورقه الأصفر؛ سأعيد نسخه ثانية:

- يا حُسَن ما يرى النائم في منامه، وهو يسمع الحس ولم ير الشخص، وهو ينادي يقول لبيك اللهم لبيك.. يا رغبة كل راغب يا قديماً يا لاهوت، يا من دعوت من نفسك إلى نفسك بنفسك، يا علي يا قدير.. اشرق نورك، وابزغ سفورك، واسطع ضياءك، واعظم آلاءك، وجل ثناؤك، أجرنا شر الفسخ والنسخ والمسخ والوسخ والرسخ والقش والقشاش إنك على كل شيء قدير.

أعاد الكتاب إلى الصندوق.

تمشى في الدار، حتى هربت ثلة الضوء سنى الباب من جديد، غنى:

قضيب بانٍ على حقفٍ يلوح على عليائـــــه بدر تمّ تحت داجيه

فالنرجس الفضي من عينيه أنهبه والورد باللحظ من خديه أجنيه

ذللت من بعد عزي في هـــواه إلى أن صار يسخطني تيهاً وأرضيه

أعاد الأبيات وغير اللحن والأداء، أحس صدى صوت ترجعه الجدران صدى صوت بديعة المغروز في تشققات الحجارة وفي قلبي معاً. اسمع دعسة قدميها.. أرى التفاتاتها التي تسكن زوايا البيت.

دخل إلى خدرها! بيت المؤونة، شمّ رائحتها في المخدة والفراش، وهواء الغرفة القادم من جهة قريتها.

دار حول فراشها، جلس فوقه، تأمل (التابوت) - ساطرات" القمح المخبأ من أدران البكوات. قام فتح درجه، انسابت حبات القمح، أغلقه، تأمل الحنطة، جمعها وأهداها إلى الدجاجات في الخم وأقفل راجعاً. فتح (ألفية) العرق المدفأة بالتبن، إنها تصرخ، تناديه وكذلك دن النبيذ المعتق، هو يضيء القش والساموك - طلبتْ مني شراء عنزة تحلبها، وتنام معها هنا.. المسكينة. تبحث عن مؤنس لوحدة لياليها الطويلة.

صب كأس خمر:

فاستلها من دنّها شعلة لألاؤها في الكأس لا يخبو

مسكية الأنفاس عانية لولا مسوا شيباً بها شبّــوا

قديمة كانـــت ولا أوّلٌ لولا التقى قلت هي الرب

انتشى بالخمر، اختلطت الصورة، خرج إلى الدار، رفع راسه، استنشق الهواء الرطب، جلس قرب الأزاهير التي زرعتها بديعة، فرك وريقات الحبق الصغيرة، فاحت الرائحة الذكية في الدار، شم رائحة الحبق العالقة في صحن يديه، عاد على صيوانه ثانية وشفتاه ترددان

حتى إذا ضوء صباح بدا   حكى جبين أبرام إذا يحبو

صب كأساً آخر، شربه ، حمل المخدة شمها... قبلها، تمدد في فراشها :ينعم برحيقها الغائب الحاضر. يقولون: اطرد الفرس الجموح كي تهدأ، وكيف أهدأ وغناء الروح أنشودته، صباحي المشرق، غائب خلف الفيافي والقفار.

أطرد راحتي وسكينتي وملاذي، فيسكن الصقيع روحي، بعد أن أشعلته زوبعة نارها، وسخنت الماء كي أغسل وجهي ويدي.. هجر البرد الدار والسماء، وأضاءت ثلة الشمس داري و حياتي ونفسي.. ولماذا أطلقها؟ أطردها؟ لأنها فقيرة مسكينة. اللعنة على زمان يحاسب المرء على فقره. كان أمير المؤمنين يقول - الفقير في وطنه غريب - وحق مقدسات السماء والأرض لو كانت ابنة عز لما طلبوا طردها.

بديعة طيف رقيق، تسربل روحي وامتزج بدمي، حنانها شغفها بي ،أنساها البرد والثلج فقامت في كانون توقد النار.

آه كل شيء في هذا المنزل يذكرني بها، حاولت نسيانها تناسيها، هربت منها، صورتها تحف القلب والذاكرة.

لم ينم تلك الليلة، صرير الباب، حفيف أوراق الشجر حرمه النوم، كأنه بها تفتح الباب باسمة، قلقة مادة يديها- أنا قلق عليها .. يا رب احمها من السوء فهي لا تستحق العقاب، وقد فاض العذاب والقهر والحزن عنها، يا رب السماوات والأرض بحق رسلك وأوليائك ترفق بها .

كأنها تندهني تناديني، لأنقذها، لربما كانت في ورطة أو مأزق، يا رب يا مالك السماوات والأرض ساعدها وخلصها من ضيقها . التبس عليه الأمر، خوفه عليها حرمه النوم، قرر اللحاق بها وقلبه لم يعد يحتمل فراقها يكاد ينفطر عليها، هي تحتاج لمساعدتي، رفع ضوء السراج، قام أحضر الدواة والريشة والأوراق وكتب.

أعاد قراءة الأبيات، أصبحت شاعراً!!

ضحكت الصبية:

- أكان جدك شاعراً؟ شيخ غريب الأطوار.

- لو سمعك أهل قريتنا لـ..

- أهنت جدك؟!! أم لأني امرأة؟!!

- لا تدركين مكانته.. ومن يكون؟.

- ومن يكون؟.!!

- تشككين بصدق ما أقوله، وتتعاملين معه كأنه حكاية، تلك صورته البعيدة، شُبه له، لي هي صورته، راكباً فرساً وبيده سيفه، يقاتل، يُقتل، لم تنزل قطرة دم واحدة، شُبه لهم. هو في أقاصي الأرض، يحارب، ينتصر، يهزم، حكمة إلهية لا يعرفها سوى الله. ومن كشفت عنه الحجب.

كان قاضياً، متفقهاً في الدين، علاّمة، وكان مقدم جيش وشاعراً وفارساً رموه عن فرسه، قتلوه، سرقوا خيله وشعره. أخفوا حتى ثيابه، وكتبه، ودواة حبره، وريشته، عاش هنا، هناك في كل بقاع الأرض، ظهر واختفى، مات، قتل، توارى، بدل جلده، ثيابه، لفّاته، صوره.. وروحه روحه هي هي.

- تتلبسك حالة جدك.

- نع.. لا..

- غيابك الدائم.. في حضورك القليل

- أفكر في جدي..

- تغيب في عوالمه.. تنسج أسطورة حولها... تخيطها بخيوط من الغيم حيناً، ومن تراب الأرض أحياناً، أكمل الحكاية، جدك أضحى عاشقاً.

لم يجب بكلمة واحدة.

- لماذا لا ترد.. الحب حرام؟ أم تخاف الاعتراف بأن جدك كان بشراً وله قلب، يحب ويعشق، يتذوق الجمال.. الأنبياء أحبوا، سليمان أحب بلقيس، والنبي محمد أحب عائشة. إنهم بشر.

- منزهون.

- كأنك لا تقبل هذا الكلام وتعتبره حراماً.

رانها، هز رأسه. هكذا كان جده يفعل عندما لا يعجبه الكلام. فكر بالرد عليها وعدل.. كانت خيالاته تصوراته ورحيله أقوى.

- ألا تريد إكمال الحكاية.. حكاية عشقه وولهه.

- الحب حلال وبديعة زوجته.

- وصلتَ إلى افتقاده بديعة ،والتشوش الذي أصابه.

- غيابها أقلقه.. ربما لم تجد ابنها عند أقرباء زوجها، هجّت بحثاً عنه، لعلها هربت من زينة ووالدها كما فعلت تلك المرأة؟ اسمها جميلة، ذهبت لتبدل البيض والطحين بالحلوى والصابون ولم تعد، أتفعلها بديعة؟! يهدس الشيخ: وعدتني قبل رحيلها أن تبقى في قرية زوجها لحين عودتها .يتابع الشاب: وتلك المرأة رحلت دون كلمة. قيل عنها : امرأة غريبة، تغمض عينيها تقرأ بعض الجمل تتراءى لها صور ومناظر تثير رعبها. أتاها أناس يسألونها حاجاتهم المفقودة، دلتهم إلى مكانها، وأشخاص سألوها عن غيّاب وقتلى، حددت أماكن القتل وأسماء وبيوت القتلة كانت تستشار في خلاقات تنشأ عن تحديد الأراضي لأناس ماتوا، و لعائلات متصارعة فتحددها، وتجيب عن كل الأحداث الماضية والحاضرة، تنده شيخاً، تَحْضُر الصورة، وآخر رؤية كانت جريمة قتل فظيعة لعائلة بأكملها ذكرت أسماء القاتلين والمقتولين، صرخت من بشاعة المنظر ووحشيته، أغمي عليها وامتنعت عن الإجابة والرد على زوجها، و الناس، وفرّت. لو لم تكن امرأة لقلت إنها ولية كشف عنها الحجاب إنما امرأة... و المرأة ناقصة و ناقصة ..هي ذنب، ذنوب لابد منها؛ يقال: جميلة امرأة غريبة، وبديعة أيضا" غريبة (قاطعة طريق، حاملة سلاح..).

- ركب فرسه صباحاً غير رأيه: أذهب إلى بيت بديعة. أصل ليلاً، هرباً من عيون اسماعيل وابنته.

أحست فرسه ـ لهفته سابقت الرياح، قفزت الحواجز، قطعت الأنهر، عيناها تغرز أرضاً، صهيلها غناء، أو هكذا خيل له؟.

اقترب من القرية، نزل عن الفرس قرب بيت بديعة، كانت الفرس تبتسم، تذرف الدمع، ترقّص حوافرها ـ أنت أيضاً اشتقت إليها.

صهلت الفرس، مسّد رقبتها، رأسها، داعب عرفها، والفرس تنتفض فرحاً، صهيلها ضاحك، رأسها مرفوع إلى الأعلى، هذا الصهيل يدغدغ أذني لأول مرة.اغدودن العشب، وأوراق الشجر تندت فرحاً، ضجّت خضرة وحياة.

كل ما حوله يغني، يتمايل، هاهو نبع الماء الفضي.. السلسبيل، سيشرب منه.. إنه يرقص هو الآخر ينساب صوت خريره.

رفع صوته بالغناء.. والفرس تصهل، والهواء العليل يداعب وجهه، وشعر الفرس يتمرجح يميناً ويساراً، شعر بديعة المتما وج، دبكتها دبكة مهرة أصيلة، بل فرس جامحة لا تروض، هي هي، فرسي.

كانت الشمس تسرق نفسها وتختبئ، تترك ظلالها الأرجوانية خلف التلال الخضراء. التّف الشيخ حول القرية، واختار أطول الطرق كي لا يراه أحد، صهيل الفرس الفرح أبهره،أبهجه طمأنه. بديعة هنا.

وصل إلى البيت الذي مرّ عليه منذ أعوام.. لا يزال قابعاً في مكانه ينتظر عودته ثانية.

أحست بديعة برائحته القادمة، لبست أجمل ما لديها، مشطت شعرها. أمضت النهار ذهاباً وإياباً، قاست الدار والغرفة والجدران، وصورته وهو راكب فرسه تقترب. طرق الباب الخشبي التعب. صاحت بديعة، صرخت قفزت، فتحت الباب، كانت الشمس لاتزال ترمي أقواسها في السماء وعلى البيت والقرية والشجر.

فتحت الباب متهللة الملامح فرحة، لم تردع نفسها، عانقته قبّلته، قبلّها لأول مرة يقبلها:

ـ أتعبت نفسك.

ـ أنت لا تعرفين قيمتك عندي.

ضمها... ابتسمت:

ـ وأنت حياتي وعمري كله.

حوار صامت بينهما، شغف ووله واعتذار:

ـ غالية.. وغالية.. فكرتُ طويلاً بك.

ـ لا أستحق.

ـ تستحقين.

لحظات فيها تتكلم العيون، وترتعش القلوب، يقطع الصمت:

ـ أين ابنك؟

ـ عند عمه.. سيبقى هناك حتى أستقر في مكان.

احتضنته، ودخلا إلى البيت:

ـ لا أصدق نفسي أنت هنا..

ـ تعبتُ في غيابكِ.. تعالي نرحل.

ـ ننتظر حتى الصباح.

ـ الآن أفضل كي لا يعرف اسماعيل وزينة أني هنا.

ـ أهي هنا؟

ـ منذ زمن قصير..

ركبت خلف الشيخ.. احتضنته بقوة، ابتسم: لا أحتمل يا بديعة.

ـ أعبدك.

ـ استغفري الله، العبادة له.

ـ أحبك حب هذا التراب، حب زرع طال انتظاره للمطر.

ـ لا أستطيع متابعة السير.. حرام.

ـ لا أحتمل بعدك..

ـ تعيشين معي معززة مكرمة.

ـ أحتمل إهانات زوجتك وأبيها ،أحتمل السياط والتعب والخدمة لأجلك.

كان يحس قدوم العتمة، ساعة المغيب الأخيرة، الشفق الأحمر للقرص المتوهج يزين السماء، لون مقدس ، دامق ارجواني ، تحول إلى الشفق، عرس

سماوي، عرس الشمس كل صباح ومساء. حضرت العتمة، فرضت دغشها، وهو غارق في الشمس والشفق والغروب البديع كهذه البديعة.

اقتربا من غابة بكر، نزل عن الفرس وأنزلها. دخلا الغابة احتضنها أحس بحركة جسده الغريبة، وقلبه المتراقص.. ارتجف جسده خوفا، لا.. بل عشقاً، هياماً بهذه المرأة.

- أحسست أنكَ آتٍ، تزينت لك، كحلت عيوني ولففت الزنار على خصري..

احتضنها بقوة، قبّلها بشوق عمر، وحياة جافة قاسية، قبّلته، نزعت منديلها، فكت شعرها الليلي المنسدل.

- أغويتني وانتهى الأمر يا امرأة.. ألهذا يقولون المرأة شيطان؟.

- أنا مسكينة.

- قادرة على كل شيء.. أغويتني، أغويتني أنا!.

- حلالك..

- أعرف.

لفّ شعرها حول يديه، رمت رأسها في حجره، حرر الشعر فعانق الأرض ،والورود البرية، قبلت أظافره، أصابعه، كتفه، رقبته، فمه.. جسدها يرتعش، ينتفض رغبة وتوقاً إليه.

مد يده إلى رقبتها، قبّلها، رفعت رأسها، جلست قبالته، اقتربت منه، احتضنته بقوة، ضمها بين ذراعيه، اعتصر جسدها، غاب عن الوعي، هو وهي في البراري والجبال وحيدين يلفهما الليل بخطوطه السوداء العاتمة.

انتابه شبق مجنون، جسده يرتفع ينخفض، قبلها قبلاً ناعمة، قبلاً مجنونة جنونه إليها هسهسات كالسحر، كومض السحر، عرّاها كما ولدتها أمها، الجسد البض الجميل أشعل جنونه جنوناً، جسد ناعم كالحرير، لم ير أجمل منه، والشعر السابح في التراب الذي نبتت فيه الأقاحي اللحظة، عيناها تشتعلان رغبة ونداء، كل مافيها يندهه، يحرقه، لحظة لحظات توحد جسده

في جسدها، كأنه يضاجع للمرة الأولى، أحس أنه بكر، احتضنها، اعتصرها من جديد، لم يعد يعرف ما يفعله، الشعر، اللجين، العنق الطويل، اليدين، البطن.. وجسدها يحترق، يحرقه، عرق تصبب منه ومنها. هما ساجيان على الأرض، وتحت السماء، ورائحة الليل، والزهر، وحولهما الشجر، هو وهي عاريان، يغطيها بجسده، ونجوم الليل تشهد اللحظة. جمالها وروعتها وقدسيتها، سحر في سحر، توهان في الحلم.. ارتعاشة جسدها خدّرت جسده، تأمله وتاه في الجسد الممدد الجميل، ضحك وضحك: أغويتني، أغويتني، لم تصدقي.

- ألم تكن غواية جميلة؟!

- وهل هناك غواية بشعة؟!.

جلست، التراب علق، التصق بجلدها الناعم، مسحه بيديه، ابتسما لبست ثيابها.

- كل شيء تم مصادفة، وقدراً غريباً، حتى مضاجعتنا غريبة، كان علينا الانتظار حتى نعود إلى البيت.

- هنا أجمل وأحلى، وأكثر حرية، انظر إلى السماء، النجوم، الشجر.. إنهم يباركون اللحظة المقدسة الجميلة.

- المضاجعة ليست مقدسة يا بديعة.

- مقدسة معك.

- استغفر الله منك ومن غوايتك وكلامك.

لبس ثيابه، ركبا الفرس، وأكملا طريقهما.

وصلا البيت، ودخلا إلى المخدع، رقصت بديعة أمامه، وفوقه ومعه..

ابتسم لها، ضحكت - دربتُ الحمامة على الكلام والإصغاء لأبثها الشوق والحب، ثم أطيّرها إليكَ، تعود فرحة، مزقزقة، أفرح. وعندما تعود صامتة أعرف أنك حزين، أحزن وأتكدر.

هل مرضتَ!!؟ يوم الثلاثاء تغير الطقس المشمس، انهمرت الأمطار، وعصفت

السماء ورعدت، عادت الحمامة منفوشة الريش زقزقتها بطيئة حزينة..

تذكر- توعكت قليلاً..

خفت عليك كثيراً، أطعمت الحمامة، نامت بجواري، وفي الصباح عادت إلى زقزقتها، سكنت. ألم تأتكَ حمامة بيضاء؟.

- أجل.

- كنت أزرقها الحبّ والحب والأغاني وأطيرها.

- تدخل البيت ترفرف فوق النوافذ، تغني تفرد أجنحتها، وتبقى هكذا حتى أراها..ثم تطير وتغيب عن ناظري، وتعود بعد أيام.

- هي حمامتي البيضاء.

- حتى الحمام يحبك.. يصغي لكلامك المعسول.

- هناك خبر عن أبي.

- هل عاد؟!

- هناك امرأة تسكن قرب البحر، قالت بأن رجلاً تبع جنية، ركض خلفها، وبقي يركض وراءها في البحر، كانت الجنية تتخايل له كل ليلة، لحقها إلى أن جاء يوم تبعها على خشبة صغيرة في المياه المالحة.

- وهل قالت أمك شيئاً كهذا؟ تذكري.

- كان يكلم امرأة جميلة أثناء نومه يمد يده إليها، يترك الفراش، ويضرب رأسه بالباب أو الحائط، يستيقظ من النوم، يشرب، ينفخ - إنها تطاردني دائماً في المنام واليقظة!.

- إنه منام. حلم!!

- لا..حقيقة إنها جنية، وقد تراءت له في النهار، فذهب إليها، واتفق معها على السفر. أمي كانت تظن أنه يعشق امرأة من القرية وعرفت فيما بعد أنه يتبع جنية.

- لا تعيدي هذا الكلام ثانية، إنه كذب.

- ولكن أبي؟!

ـ بديعة هذا حرام، وما سمعته أقاويل ملفقة، أبوك رحل لأنه يحب الرحيل، يتعلق بكل شيء جديد، يكره الأماكن الضيقة، وقد يكون هرب من الظلم ألم تقولي ذلك؟! وهناك أناس كثر هاجروا من الخوف والجوع.. والذل. لم يلحقوا الجنيات، من يلحق الجنيات رجل ملعون!! أفهمت؟!

❖❖❖

عادت الحياة تدب في البيت، الشيخ تلاميذه طلابه، ضيوفه من أصحاب النذور والمشاكل والخلافات و قضاء الحاجات.

وبديعة تركض في البيت.. تخدمه، وتخدم ضيوفه، وابتسامتها لا تفارق وجهها الجميل. وفي صبيحة يوم الخميس جاء شاب وسيم الطلعة، رحب الشيخ به أيما ترحيب وذبح له الدجاج، نادى بديعة:

ـ هذا تلميذي النجيب.. الذي طيّر ورقة الدعوة.. ووصلت إليّ.. وهذه بديعة زوجتي.

ـ التي أنقذتها من الأسر!!

ـ صحيح.. وما هي أحوالك وأحوال أبيك؟

ـ أبي بخير يقرئك السلام.. وأنا أعلّم الآن في مدرسة صغيرة.. بالتعاون مع الكنيسة، والحكومة غير راضية عنها.. وقد طلبت مني العمل في جباية الضرائب ما رأيك؟

ـ أتستطيع مساعدة الناس..؟!

ـ قليلاً لكن التعليم أفضل؟! فهو يخرج البشر من ظلمات الجهل إلى النور..

ابتسم الشيخ: أي نور..؟

أقصد: العلم يا شيخ.. ونحن نحتاج إليه.. وجباية الضرائب هناك من يقوم بها.. ونقلي يعني إغلاق المدرسة وكفّ يد الكنيسة عن المساعدة.

ـ أفعل ما تراه ملائماً.

- أخاف نقلي الإجباري..!! وأين زينة؟

- رحلت مع أبيها، ولم تعد إلى الآن..

- لماذا لا تعيدها..؟

تردد الشيخ - هي التي رحلت بعد زواجي الصوري من بديعة، لم أكرهها على شيء.

- أرحل، أنا وأنت غداً، و نأتي بها.

- لا داعي أذهب إليها غداً، خذ هذه الكتب والأشعار، لا تتعب نفسك وتعطل مشاغلك، و تسمع كلام والدها القاسي.

مدت بديعة الفراش له.. هجعت إلى خدرها، ثفاها الشيخ.. شعرها منسدلٍ على ظهرها.

- كفاك إغواء.. غداً أرحل وآتي بزينة.

لم تتكلم

- أحزينة؟

- إعادتها حق، و هذا لا يمنع أن أحس سكاكين تغرز في جسدي.. تَرجِع زينة ، وتعود معها الأيام المرة والصعبة..

أحس الشيخ بخوفها- أرسل غداً من يأتي بابنك لأعلمه القراءة والكتابة.

تمددت بجواره كجثة هامدة.

- مابك؟

- لا شيء.

رفع ضوء السراج، مد يده إلى جسدها قطعة ثلج: أنت متعبة مريضة؟

كانت تجوب البراري والقفار، القصور، تلتفح بهالات الظلم والاغتصاب، اقترب منها، احتضنها، قبّلها، داعب وجهها، لعب بشعرها .. عرق جسده، إبطه.. أحسته مالحاً. استعادت حيويتها، والبرودة في جسدها أصبحت ناراً متقدة، لسعت جسد الشيخ معها، احتضنها بقوة أمضيا الليل كلما هدأ جنون جسديهما اشتعل من جديد .. لم تنم ليلتها، وكلما حاول النوم تغني له.. أو

تقف عارية ترقص، تلوح بشعرها، وتدبك.. تدور، تقفز يعيدها إلى الفراش.

ـ ألا تريدين النوم؟

تنتفض، وكأنه شتمها ـ هي آخر ليلة تشهد وحدتنا، غداً لن أكون حرة ولا أنت، هي آخر ليلة حرة لنا، يجتاحها شبق، ينتقل للشيخ، طلع الفجر وهما عاريان تماماً.. نهض، نهضت معه، سخنت له الماء.. ضحك:

ـ تفسدين صلاتي.

صلى الصبح، أهدى تلميذه شنكليش وكشك ـ هذا شغل بديعة. ذقه.

ودعه وعاد إليها، ناما حتى الظهر، وأفاقا عاريين تماماً.. لم يعرف متى خلع ثيابه، و هذه أول مرة يرى جسدها عارياً في ضوء النهار، فقد اعتاد رؤيته ليلاً..

أوقدت الشبق.. ناداها.. وبدأا عراكاً جسدياً برياً.. وحشياً، هصرٌ، عض،.. دحرجة، أزرق جسداهما.. قاما واغتسلا معاً لأول مرة.. تناولا الطعام، ودّعها وشد الرحال، وقلبها ينخطف من أضلاعها.

في اليوم الثالث.. أفاقت.. شمت رائحته في الدار، عجنت العجين، وأشعلت التنور، خبزت، استمرت رائحته البخورية في الدار والغرف الحجرية، طغت على رائحة الخبز الطازج، أحست بالحزن فجأة، تركت الدار وراحت إلى الحرش تقطع الزوفا والبطم.. وعناقيد السماق.

فتح الشيخ الدار، وانتظر وجهها الضاحك، رأى واجهات حجرية ميتة، فتح باب مخدعها، تبن.. دنّ خمر، اقترب من الفراش، مغزل حرير بجوار المخدة.

ـ عمّ تبحث؟ عن بديعة!

دخلت زينة مخدعها حزينة، إنه يحبها منذ لحظة وصوله يبحث عنها، شغله غيابها.. يحبها، بكت بحرقة، مسحت دموعها، فتحت الباب، الشيخ يرتقي السلم قلقاً، و مكفهر الوجه.. أحس بفراغ البيت ووحشته، فقدانه الأنس اللطيف.. "انشغل باله"، أمسك المسبحة.. حركها بعصبية كاد أن يقع

عن السلم.. تماسك، سقطت المسبحة.. نزل إلى الدار ثانية،و زينة تراقبه..

- مابك.. مابك؟

صرخ في وجهها

صمتت، وقف خلف باب الدار متراخياً،ثم مشى وأخذ الدار رواحا" و مجيئا"، وحين فتحت بديعة الباب، ودخلت، ضحكت عيناه وقلبه، دبت الحياة في جسده وفي الدار والهواء والجدران والشجر: أين كنت؟

نظرت إليه كأنها غائبة عن الوعي.. كرر السؤال ثانية:

- ذهبت إلى الحرش.. وجلبت الزوفا والسماق.. والبطم و..

- قلت لك لا تتعبي نفسك.

- أتلهى، أقطع الوقت كي لا أقطع جسدي و نفسي.

فهم مغزاها : حزينة أنت..

- أستأذنك السفر لأرى ابني.

- أرسلت رجلاً من القرية ، وسيأتي به..

- اشتقت له..

- يعود الرجل غداً أو بعد غد .

- سأذهب..

- لن تعودي، أمسكها من يدها وأدخلها إلى مخدعها، ضمها، قبلها، اشتقت إليك.. أين ترحلين.. بعدك قاسٍ، قاسٍ، البيت موات دونك.. أين ترحلين وتتركينني وحيداً بين هذه الجدران الحجرية القاسية، والمرأة الصلفة الباردة كالثلج.

صوته الحزين عيناه الدامعتان، شلت قواها وقرارها، احتضنته، وضعت رأسه في حجرها، وغنت له بصوت شجي - أكاد أختنق أموت، لن أحتمل وجودك بجوارها . قبلّته بشبق: اهدئي الآن، لم أعد أحتمل.

- ولا أنا؟

قام سريعاً وفتح الباب - إذا كنت تحرصين عليّ لا تذهبي...لا تهربي..

وإن كنت مصرة بضعة أيام ثم تعودين!!.

ـ أريد الهروب والبعد عن هنا!!

حضّرت حاجاتها .. أخذت الحمار.. منعها الشيخ ، وأعطاها الفرس، وزينة تراقب المشهد ووجهها يقطر سماً ـ لتركب الحمار.

لم يرد عليها، ركبت الفرس ودعتهم وعيناها دامعتان، وغابت بين الشجر وضباب السماء، دخل الشيخ يتمتم: يا رب أعدها ثانية، أنتَ أهديتني هذه الحواء الرائعة، رميتها في دربي، وأوقعتني في شباك هواها.

اقتربت زينة منه، أحس بالغثيان، ترك المخدع وقام إلى الدار مشى قليلاً، وتمدد في فراش بديعة، يشم عبيرها في اللحاف وفوق الوسادة... ورائحة جسدها العالقة في الصوف المندوف، رائحة ريحان، احتضن الوسادة ونام.وفي الصباح قدم الناس للاطمئنان عليه، وقضاء حاجياتهم، كتابة حجاب لرجل عجوز، قطع التابعة لطفل، وقطع حزازة بالحبر لطفلة امتدت في ظهرها،واقتضى منه رسم الخطوط، وكتب أحرف اسمها، واسم أمها زمناً طويلاً، ثم كوى حبة في رأس رجل عجوز أتاه من قرية بعيدة ولأول مرة ترتجف يده.

زينة تراقب ما يجري ذابلة ـ كأن الناس لم يروك منذ زمن.. ولذا جاؤوا اليوم. شغلتك عنهم جميعاً .. حتى عن واجباتك الدينية!!

قالتها بسخرية وتهكم.

أغلق أذنيه، أدار ظهره وخرج إلى الدار.. غابت الشمس، صلى المغرب، وأتى إلى الصيوان... تعشى بعض اللقيمات.. تمدد في الفراش اقتربت منه، جسده بارد .. وغائب.. تركها أحس بخجل.. من حقها مضاجعته، وجسده لا يستجيب ماذا يفعل؟ ارتبك وترك المخدع إلى الصيوان، ظن أنه بات نائياً عن زينة ومتطلباتها ، انتقل إلى فراش بديعة. يتأمل السقف والجدار، نهض صب كأساً من العرق شربه دفعة واحدة.

أحست زينة بغربة الشيخ عنها وهروبه منها ، شعرت وإحساس المرأة لا

يخيب.. الخادمة سرقت قلب وجسد الشيخ التقي بألاعيبها الخبيثة والخفية ـ ماذا أفعل لأعيده إليّ؟، أترك البيت، تعود بديعة، بكت.. وبكت، خدامة تنافسها، غسلت وجهها، كزت على شفتها وعضتها، دخلت إلى غرفة بديعة

ـ اكتبْ حجاباً لنفسك.

ـ لمَ؟

ـ كي تتخلص من سحر وعشق تلك العاهرة.

نهض كالمجنون ـ إياك وإعادة هذه الكلمة، أقسم أني سأضربك أو أطلقك، إن كنت لا تحبينها ولا تستطيعين العيش معها، عودي إلى بيت أهلك، وامرأتي لا تكون عاهرة.. وإلا لكنتُ كذلك فهمت؟

ـ أقسم لا أقصدك، وإنما هي من سحرتك!!

ـ سحرتني، اهجعي للنوم... ولا تعودي ثانية إلى قول هذه الكلمة.

زادت عصبية الشيخ، أصبح لا يطيق البيت ولا زوجته، يتململ من واجباته المعتادة، غيابها تركه حائراً، ضائعاً، وكلما انقضى يوم تعب أكثر، يحمل دواته وريشته، يكتب الشعر أو يغني، وينام طويلاً.. كي يراها في أحلامه..

قرر زيارة أحد تلاميذه في قرية قريبة، ذهب مشياً على الأقدام، وعندما رآه لاحظ التعب البادي على وجه سيده ونحوله ـ ما السبب؟

صمت الشيخ.. أيقول غياب بديعة أفقده شهية الحياة؟.

إني متعب ومجهد.. وسؤال مقلق ـ أيمكن أن تخذله بديعة ولا تعود؟

أخذ فرساً من تلميذه وتوجه إلى قرية أهل زوج بديعة.. وقف قريباً من نبع الماء كان الليل يرخي سدوله.. وأهل القرية لا زال بعضهم فوق الأسطحة وعلى الطرق الضيقة، وفوق أشجار التوت.. وبعض النسوة يحملن جرارهن.. وينتظرن تعبئتها بالماء، و أخريات يمشين خلف الحمير يثفن، يسطن الحمير كي تسرع بالمياه المحمولة على ظهورها. ركضت امرأة نحوه وهو شارد.. إنها بديعة.. أحست به كعادتها.. وصلت إليه مدت يدها، رمت وجهها إلى صدره،

خافت كلام الناس ووقوف النسوة يتفرجن عليها وعليه، سقطت على الأرض.. أفاق الشيخ إنها بديعة.. بديعة، انحنى وانهضها ، قبلت يده وابتعدت عنه ـ أخاف كلام الناس، مشى بجوارها إلى الوادي القريب، يناجيها بكلمات لم تسمعها من قبل ـ منية الروح، بلسمة الجروح، وحياتي وأخذ يغني:

وكلما قلت يثنيه الحيـــــــاء إلى ... حسن الوفاء تمادى في تماديه
مع علمــــــــه أن ذلي في تعــززه ... وأن فرط تلافي في تـــــلافيه
قالوا إلى كم تلاطفه، فقلـــت لهم ... منه الدلال ومني أن أداريـــــه
فتحت سمعي وطرفي في هواه فلم ... أنظر سواه ولم أصغ لواشيـــه

بديعة طائرة في السماء، تقطف السحب، تناجي الكواكب الدرية، تملأ "(حرجها)" تهديها له، جلسا فوق العشب الأخضر، وهو يغازلها تطير مغردة سابحة في موكب أبيض مجنح، والنجوم تضيء جيدها وتعقد تاجاً، تيجاناً من ذهب فوق رأسها، يطيران معاً، كأنها تراه لأول مرة، ويراها في خياله.. عاشقان تائهان في براري الأرض والروح، لحظات وله..

صمت مشوب بالليل والعشق ودمع فرح في عينيها، مسح اللؤلؤ.

ـ أحبك، أموت شوقاً إليك، أذوب عشقاً.

صوت آخر ينشق من أضلعه، يترنم.. يغني.. والقمر ينير السماء يتشح بخيوط غيم رقيقة رقة جنية حلم، والنجوم تتزاحم فوق الجبين.. دخلا الحرش، خلعت ثيابها ووقفت عارية، مشى الجسد والفؤاد يتبعها.. يخفق لها.. قطعت ورقة شجر ووضعتها فوق منطقة الشهوة الأولى، ضحكت، صرخت: أنا حواء الخطيئة، أغويتك يا آدم.. أنزلتك من السماء، أكلت التفاحة من يدي رغم أني تناسلت من خطايا ضلوعك.

ضحك الشيخ من قلبه، ركض إليها..

- أحبك يا أجمل خطيئة في حياتي، وأمتع المتع المهداة من الله.. خسرت

الجنة.. خسرها آدم قبلي، أنزلنا الأرض، الأرض لله.. ولله تعود..

خلع ثيابه احتضنها دارا معاً دوار سكارى، والخمرة خمرة شفتيها.. ونظرات عينيها الشبقتين، وحركة الجسد الذي أشعلت رغبته أكثر فأكثر، مددها على الأرض، نثر عليها وردات برية، شمّها. رائحة رياحين.ضحكت:

ـ أستحم بورق الغار والريحان..

جمع ورق ريحان فرك جلدها و جامعها ولم يرتوِ.. لم أستطع الاقتراب من زينة..

فرحت فرح طفلة... لأول مرة يكلمها عن زينة و رجوعها:

نمت ليالي بطولها دامعاً.. أتخيلك بين ذراعي.. أقبّل وسادتك لحافك فراشك، فراقك أيتها المرأة دفلى. لبسا ثيابهما.. واتجها إلى بيت أقرباء زوجها.

استقبلوه بالترحيب، اعتذرت منهم ودخلت لتنام بجوار ابنها.

سهر الشيخ مع شقيق سليم، نهض خلع كساءه واقترب من الشيخ

ـ أنظر..

نظر الشيخ إلى ظهره، السياط رسمت خرائطها عليه.

ـ ضُربتُ أيام الحصاد، وقطاف الزيتون، تعرضت للأذى من هنا.. وهناك.. من البكوات، البكوات بكوات أينما كانوا.

شتم الفقر والجوع، اللذين يجبران الناس على تحمل الإهانات.. وشكره لإنقاذه عرض بديعة.. وتخليصها من العسكر:

ـ أنا ما زلت أُضرب وأهان أكثر من بقية الناس لأني شقيق سليم.

في الصباح عاد الشيخ وبديعة وابنها وهم قلقون، الطفل يبكي من الطرقات الوعرة والمخيفة، والأم تفكر بابنها وبزينة، والشيخ يفكر في زينة وموقفها من ابن بديعة. أمضيا الطريق صامتين. استقبلتهم زينة صامتة، تجول بصرها بينهم، والجمر يحرق صدرها، يكويها كحبة (الكي) تداري بحركة مرتبكة.

نامت بديعة مع ابنها، والشيخ مع زينة، اقترب منها تحجرت المرأة، أدارت ظهرها وحاولت النوم دون جدوى.. أي حياة تنتظرها مع بديعة وابنها !!

في الصباح جمع المرأتين وطلب منهما العيش معاً بسلام. وكل ليلة عند واحدة، ليالٍ يمضيها في فراش زينة وهو يُكرِه نفسه على الاقتراب منها، و ليال أخرى يعيش حالة عشق جنونية مع بديعة.. والحياة تمر ببطء، زوار، وتلاميذ.. نوم في مخدع زينة ونوم آخر في مخدع بديعة..

زينة تذبل كوردة قطفت بغير أوانها ولا تعرف نهاية هذه الحياة. بديعة تمل تلك الحياة.. خدمة.. في خدمة.. وتهدئ نفسها من أجل الشيخ، إلى أن أحست أنها حبلى.. أخبرت الشيخ، قبّل الشيخ بطنها، ودموع الفرح تنساب فوق خديه النورانيتين ـ لماذا لم تقولي قبل الآن ؟

ـ حتى تأكدت.

ـ لم ينم الشيخ، خرج إلى الدار ومشى ساعة، ساعتين فتح باب بديعة:

ـ أنت متأكدة؟

ـ أجل.

في الصباح أخبر زينة، الغائبة عن البيت، ومن فيه، الهائمة في حقول التبغ عند أبيها، تصرخ في الفلاحين، كأنها لم تسمع، أعاد عليها الخبر، رمقته وقامت إلى الدار.

أمسكته في الليل ـ أهذا سبب تعبك، كل ليلة تأتيني مرهقاً متعباً من مضاجعة الخادمة وأنا أظنك ترعاها. لن تقترب مني طالما الخادمة هنا، هي ليست أجمل مني وأصلها وضيع. لماذا تهملني؟ من أجل الأولاد؟!. لقد سحرتك بإغواءاتها.

لم يرد بحرف.. أدار ظهره ونام.

بدأ الحمل يظهر على بديعة، كبر بطنها، حركتها السريعة تباطأت، جلب الشيخ امرأة تخدمها.

في أحد الأيام جاءت دعوة للشيخ إلى منطقة بعيدة، بقي أياماً وعندما

عاد، لم يجد بديعة، سأل زينة. غابت في البعيد وخرست فجأة، رمقته:

- هربت كعادتها.

سمع همسات: طردتها ،طردتها !!

المشهد السابع

رحل... جدي...جد جدي ثانية..

ـ يتراءى لك.. يتلبسك!!

ـ هو تلبس رداء الحياة والموت.. روحه تنتقل من مكان إلى مكان، هو هناك.. وهناك في المدينة ساقوه إلى حتفه، قتلوه، ذبحوه ،قطعوه، تجمعت أشلاؤه، عاد ثانية، الجسد فانٍ، الروح باقية تنتقل في بلاد الله الواسعة.. ولد في الهند،، وفي الصين فني جسده، وعادت روحه ثانية إلى الجبال في روح مولود بين الأشجار البنية الداكنة والخضراء اللامعة. شبّ، وسكن ذرا الجبال.. ينقل التراب الأحمر، يصنع الخوابي، ودنان الخمر والأكواب.. وقد ولد في قصور منيفة منيعة، اصطيد كعصفور غريد، حمل دواته كتب وصاياه شعراً، تناقلتها الركبان فيما بعد. دمه لا يزال ساخناً قانياً يسبح في المدينة، يلفح أبوابها وجدران منازلها بالآثام والذنوب.جدي الذي عرف الله حق المعرفة. يسخر من الجهالة...و النار التي تنتظرهم نار الجهالة في عدم التوصل إلى معرفة الله.

هو من سُلخ جلده حتى السرة، وبقي صامتاً لا يفشي أسرار دينه، صُلب، سبّح بحمد ربه. تسكّنت آلام

بأمر الله ونوره. ذهبت روحه إلى السماء، شووا جلده، احترقت أيديهم، شلت أرجلهم، وهو يعلو ويعلو..

دمه قربان يرسم ألسنة تصرخ وتلعن القتلة والظلاّم.. لسان واحد يقتحم أبواب المدينة وأشجارها وترابها،

يموت الضرع. بكاه النهر ، والأنهار فاضت.. وجسده ينتقل، يرحل إلى السماء..أنواراً ضياءً.. والناس

مشدوهون.. ما الذي يجري في الأنهار؟..سبعة أيام وليال والأنهار

تبكيه...الأزقة فارغة...رُفع

الجسد ..رجع النهر إلى مياهه..

صرخت امرأة حامل - مر بقربي شهاب على شكل لسان، كنت أتقدّس في ثلج كانون. ركضت تهذي، وفي السماء ولدت طفلاً لا أجمل منه.. رسم حدود القرية، علّم الأولاد القرآن والشعر، مات مقتولاً بشيوه العيون، قيل جدي ،جد جدي..!!

- و بديعة، و حملها...

عندما سمع الناس..بديعة حامل.. ذهلوا.. مثلُ الشيخ لا ينجب.

ضحكت:

- وجدك أنجب.

قطب حاجبيه المعقوفين:

- وتسخرين

- أمازحك

- كفي عن الهزار

- أكمل

- جدي، جده، أنجب ولداً وجهه منير مضيء وقيل: كتبت على جبينه أحرف غريبة من ذهب. وهو يربي دودة القز.. يصفف أوراق التوت في (الكرينات) جمعت من روث الحيوانات، يغزل الصوف، يصنع المناديل، سآتي لك بواحد.

- أضعتني مرة ثانية!!

- مضى جدي في طريقه، يرمق الأطفال الحفاة العراة، الذين شقرتهم الشمس، أرغف إلى السماء المغطاة بالغيم الرطب وعالم الغيب المتواري خلف الحجب، ووراء الجبال وزيد البحر المائج الهائج.

ولج بيوتاً طينية باردة، شم رائحة الحطب والرماد، والخبز المحمص، والبطاطا المشوية، بسمل ودعا.. دعواته لا تزال مكتوبة فوق الصخور وأشجار

السنديان عند الأكمة الخضراء، ذات البيوت البيضاء والأسطحة (المرشوقة) بتراب أبيض. حيث تترامى الغابات، تغني نفسها، عروساً بيضاء يجللها الأخضر الجليل الزاهي. كان عام جوع، سنة كبيسة.. عام سيق فيه الشباب الحفاة إلى بلاد لا يعرفها أحد.. قيل أن حرباً بدأت.. مات الكثيرون جوعاً، أطفال، نساء، شيوخ، حتى العشب اختفى، سُرق، وبقينا أحياء نرزق، هرب من هرب في البحر.. وبقينا أحياء برعاية من الله.. أنقذت بيوتنا ذات الأحجار الصغيرة والسقوف المنخفضة بعون من الله.. وفي الجهة الأخرى خوابٍ مملوءة بالعسل والزيتون و(ساطرات) القمح، تتفاخر بحملها الشرعي، والفقراء يحطمون الخوابي الفارغة، يقتحمون البيوت العامرة.. عام جدب، عام غضب. انقض الدرك، البكوات، الباشوات يسرقون المؤن المتبقية لدى الناس، يفرغون البيوت، يتركون أهلها لأقدار تتكفل بهم.

الأطفال يصنعون الخشب المصلب وعلى الرأس قطعة قماش. خرق بالية، ما تبقى من بيض ملون، يحملونه يدورون بأزقة القرية وساحاتها، يدعون الله أن يرسل المطر، الثلج، ينذرون النذر باسم أهلهم، ركبوا تلك المصلبة الخشبية، دفنوها في التراب عندما رأوا غرباء آتين إلى القرية، لباسهم غريب لهجتهم غريبة ومنهم من لا يفهم ما يقوله أهل القرية. أخذوا بيتاً وسموه مدرسة.

في اليوم التالي اجتمع الأهلون حولها ، الجميع يسترق السمع.. لربما أحدهم تعلم من وراء الباب، والأهم فضول يدفعهم بثيابهم الممزقة كي يعرفوا ما يدور في المدرسة. وماذا يقول المعلم؟.. فقد اعتادوا التعليم على يد الشيخ، حفظهم القرآن و الحسابات البدائية.زار جدي وجهاء المنطقة وسألوه:

ـ ما رأيك بالمدرسة والتعليم بها؟

ـ نتريث، نراقب ما الذي يعلمونه

طلب أحدهم من الشيخ مقابلة الغرباء.

-فيما بعد.

-نريد الاطمئنان

- قد يبدلون ديننا .

-لا تخف نحن يقظون

الغرباء ذوو الرطن والثياب الغريبة، ماذا يعلّمون؟. أسابيع بطولها أمضوها في التلصص على الأساتذة.والأطفال أوجدوا لعبة جديدة مراقبة في النهار، وفي الليل التحاف جلود بعض الخراف، وسرقة التين اليابس والزبيب والزبدة. أو إكساء ظهورهم بالخيش والزحف على الأرض متربصين بالكبار خصوصاً المختار، يطلقون الأصوات في الليالي الداجية الخالية من القمر.. ترتعد فرائصهم، يفرون إلى بيوتهم أو يركضون إلى بيت السهارى، يتبجحون بشجاعتهم وقتلهم الوحش. سمعت طفلة الحديث، صرخت أكثر من مرة، حدقت في وجه أحدهم:

- كذب نحن نلتحف الخيش وأنت تهرب! تهربون.

والمساكين سرقت منهم حيل البطولة والخوف، جدي أعطى الطفلة بيضتين، ووزع الزيت والزيتون على الفقراء ووجهه ساهم شارد غائب.. وحاضر.. غائب مع بديعة يناجيها- عودي، الوحدة قاتلة تجثم على صدري، تقض مضجعي.. عودي، أنت أبهى وأحلى من إشراقة الصبح.. يا قمري.. يا بدري.. غيابك ينهش لياليَّ.. وهجرانك أدمى فؤادي.

عودي، أيامي حزينة كهذا البيت، الذي يفتقد خطواتك وضحكاتك.. لم أكن أعلم أن بهجتي وفرحي تكمن في نظراتك وابتسامتك الصباحية، وأنت تشعلين النار والحطب، وتصبين الماء على يدي وجسدي.. تعالي، موقد النار يبكيك وجمراته تناديك.. وهذا التنور اشتاق إلى أصابعك.. تعالي ،العنكبوت عشش في البيت، وقلبي..

تعالي شوقي لوجهك الفرح شوقي إلى الماء.. اسمعي، أرض الدار تنادي خطواتك السريعة.. ويداي تنتظران لف شعرك الليلي.. ومسح دموعك التي أشعلت النار بدل أن تطفئها .

قلبي خراب، وهذا البيت خراب في خراب.. حبقك ذبل، وريحانك اصفر..

افتقد أناملك.. ووجهك.. وسقايتك.. وجلدي تقشب منذ رحيلك..

كل شيء يذكرني بها، أطباق القش، غسيل اليدين. الثياب النظيفة.. الوردات الذابلة. أفر من وجهها، أشم رائحتها العالقة فوق ثيابي، ويدي، وجلدي، وفي جدران البيت، وعناقيد العنب، وورق الجوز.. أسمع خشخشات أقراطها الفرحة.. يا رب ماذا أفعل؟! هل هي ذنب وقعت فيه؟! أم نعمة أهديتها إلي، ثم حرمتني منها!!

يا رب. صبَ كأساً آخر من الخمر شرب وشرب، سكر ثمل، وبكى.. دخل إلى البيت سمع بكاء ابنه الذي لا ينقطع، حمله حاول رميه في النار، وصحا فجأة أقسم أن يترك الخمر. كان يسهر حتى انبلاج الفجر.. يتمدد حيناً ويمشي في الدار أحياناً أخرى.. يتأمل السماء، يرسم وجه بديعة وشعرها وعناقيد النجوم.. يبكي يحك جلده ـ يا أرحم الراحمين، امنحني الصبر.

سنوات أمضاها هكذا، يسلاها في النهار، ويحلم بها ليلاً.



صرخ شاب في منتصف الليل ـ افتح يا شيخ أريد رؤيتك.

فتح الباب ودخلا معاً إلى الصيوان.. أشعل السراج.. تأمل الشيخ الشاب، وسيم طويل القامة.

ـ من أنت يا ولدي؟

خفض الشاب صوته: أنا نمر.. أتتذكرني؟..

احتضنه الشيخ وبكى: أهلاً بك.. أين كنت؟!

ـ قصة طويلة.

ـ أنتظر منذ زمن طويل، أنتظر كل يوم وليلة سماع أخبار أمك، أخيك، أو أختك..

-عندما رحلتَ وأطلت الغياب، أتى إسماعيل هو ورجاله المسلحون ضربني وضرب أمي، أدموا جلودنا يا شيخ، خافت أمي على الجنين لم ترد عليه، طردنا

كالكلاب.. وهدد أمي إن عادت بقتلي وبقتل الوليد..

- وهل كان صبياً.

- بلى.

انفرجت أسارير الشيخ.

- وصلنا إلى بيت عمي، لحق رجاله بنا، ضربونا وأهانونا، حاولوا الاعتداء على عمتي، وهددوا عمي بالقتل كما فعلوا مع أبي.. ثم أرسل وراء الدرك لملاحقته، هربنا، وسلم عمي وعمتي من أذاه.

- كيف عرفت أنه قتل أباك..؟

- يوم طردنا كان يصرخ بشكل هستيري، أغربوا عن وجهي وجهه يلاحقني دائماً، يداه تمتدان إلى رقبتي، سأقتلك ويؤشر علي، وأمك.. سأتخلص منها، بصق علينا، هجم بالسوط كالمجنون يجلدنا.

باعت أمي ذهبها، وعشنا زمناً في قرية بعيدة تابعة لبيك آخر. عاد جدي من السفر، وأرسل في طلبنا عن طريق عمي،جاء و معه مال كثير، أغوى أمي بالرحيل معه.. مال كثير، وضعني وأخي في مدرسة للراهبات وأمّن سكننا ورحل مع أمي.. تعلمت العربية و قليلاً من الفرنسية وقررت العودة لرؤيتك والتتلمذ على يديك حسب وصية أمي.

- إذاً عاد جدك..

- أجل.. أنا راحل الآن لا أريد رؤية زينة.. أعود فيما بعد، أحضر الشيخ بعض الطعام - أين تسكن؟!.

ـ في قرية قرب البحر، أعلم الأطفال اللغة والقرآن.. أخذت الشهادة الابتدائية، تركت المدرسة وأعلم بالشهادة

- لماذا؟

- لن أترك دم أبي؟!

- لا تلطخ يدك بالدماء.

- نتكلم لاحقاً.

ودّع نمر الشيخ ورحل.. ونسائم الصباح تتسرب إلى البيت، ومعها رائحة بديعة.. انتعشت روحه الذابلة.. لكن القلق ساوره.. كلام نمر مقلق ومحير ومخيف.

وفي الصباح قدم وفد إليه من وجهاء المنطقة، طلبوا تدخله بين عشيرتين كبيرتين وقعت بينهم فتنة، قتل فيها ثلاثة رجال. ركب الشيخ فرسه، وتوجه إلى صيوان الباشا الكبير، وقبل أن يستريح وصل من يعلن مقتل شقيق زينة.

اجتمع مع بقية الشيوخ، أغلقوا الأبواب عليهم واختلفوا بين بعضهم البعض، سكان القرية المجتمعون أقسموا أن (المعرجلينات) فوق الأسطحة تطايرت وتصارعت.. مع الشيوخ. تدخل الشيخ المهاجر وقال: ـ العثمانيون وراء الصراع، شقوا الدين إلى اتجاهين.. نور وظلمة، ظلمة ونور.. فقال أحد الوجهاء:

- هذا لن يحل الخلاف.. لابد من تقسيم القرى والأتباع ورسم الحدود ومنع الاحتكاك.

هزّ الشيخ المهاجر رأسه موافقاً، تشكلت لجنة من ثلاثة شيوخ وثلاثة وجهاء للإشراف على التوزيع، وحل الخلاف دون تدخل الحكومة والدرك.

أحس الشيخ بضرورة الوعظ: ـ نحن نقاتل بعضنا البعض ولا نعرف الأسباب الحقيقية لما نفعله. الغرباء يتلاعبون بنا، ونحن نصغي و نستمع لهم. وننفذ خططهم ومآربهم.. علينا أن نلتفت لبعضنا البعض، نطعم الفقير.. نعطيه حاجته، كي لا يضطر للسلب وللنهب منكم ومن غيركم.

تدخل شيخ آخر.. علينا الانتباه والتعامل مع بعضنا البعض بالحسنى وكذلك مع الناس. السرايا لم يبقوا إلاّ القليل من الشباب ساقوهم إلى (السفر برلك) في بلاد مجهولة،والذي بقي هرب في بابور البحر،"هجوا" في بلاد الله الواسعة ألا ترون القرى والمناطق كيف خلت من الشباب!!؟

قرر الشيخ الرحيل وحضور عزاء ابن اسماعيل بك..الذي أثاره أحد الوجهاء، رد الجميع ـ نعزي لاحقاً.

ركب فرسه واتجه إلى النهر للاغتسال من الذنوب التي لحقت به، وهرباً

من عزاء ابن اسماعيل بيك:

نمر القاتل، وإن لم يقتله بيده استأجر من يقتله، اغتسل، امتطى فرسه ورحل دون تحديد لوجهته، وفي طريقه رأى امرأة ثكلى تشق ثيابها وتدعو على قاتل زوجها اسماعيل بيك، عندئذ توجه إلى عم نمر.. وعندما وصل استقبلته زوجة العم بالشتائم على اسماعيل ـ والد زوجتك رجل سافل، لا يسمح للفلاحين بكيس حنطة، يعد عليهم حبات الزيتون وأكياس السمسم.. لا يسمح لهم إلا بما يسقط على الأرض و الذي لا يباع ولا يؤكل، وهو قاتل، قتل فلاحاً صباح اليوم.. والله انتقم منه بقتل ابنه.

أحس الشيخ بالذل والإهانة من زواجه فقال مدافعاً عن نفسه:

- عندما تزوجت ابنته لم أكن أعرف أنه ظالم ومستبد.

- زوجك ابنته ليكسب الدنيا والدين. فهو يخاف الله

بقي الشيخ بضعة أيام عندهم ممسكاً عن سؤال نمر ـ من قاتل شقيق زينة؟،كي لا يتحمل وزر جريمة؟ سأله عن ابنه:

- في مدرسة داخلية.

اتفقا على رؤية الولد وذهبا معا" ليرى الشيخ ابنه أول مرة.

- هو يعرفك جيداً، حدثته عنك طويلاً.

وعندما وصلا إلى المدرسة، عرّف نمر الشيخ على ابنه، فقبل الأخير يديه، والشيخ يقف مذهولاً من لباس ابنه الغريب، ابتسم نمر- الثياب هنا تختلف عن لباسنا.

جلسوا في الباحة، والشيخ يتأمل الطلاب وملابسهم الغريبة، وطريقة نطقهم للأحرف والكلمات، التفت إلى ولده وعيناه مغرورقتان بالدمع قبّله وكأنه لا يصدق أنه ابنه.. الولد يتكلم بطريقة مختلفة ولباسه مختلف. انعكس ذلك على وجه الولد الوسيم.

التفت إلى نمر- علّمْ أخيك القرآن واللغة. إلى حين نتدبر أمر تدريسه في مكان ثانٍ.

ـ أحاول تعليمه وزملاءه النطق، قد أرسلهم في الصيف إليك لتعلمهم اللغة السليمة.

ودّع الشيخ ابنه دسّ في يده قطعتين ذهبيتين ودموعه تنساب فوق خديه:

ـ انتبه يا بني، لا تغرك حياة الدنيا ونعيمها، إنها فانية.

أدار وجهه نحو البحر وبكى بحرقة.. بكاه، بكى أمه.

أحس الولد بأبيه: أمي سافرت من هنا مع جدي، أعرف كل شيء يا أبي، لا تقلق. لا ذنب لك، وأنا فخور بك.

اتجه الشيخ إلى البحر جلس فوق رماله، رأسه يدور ويدور. رذاذ البحر أنعشه قليلاً، كانت يدا بديعة تمتدان، تداعبانه، تمازحانه، اشتاق إلى شيطناتها وولدناتها، هي الوحيدة القادرة على إخراجه من عزلته التي كانت تطول ساعات وأياماً، وهاهي تمتد لسنوات، ماذا تحمل هذه الموجات في طياتها، في ازرقاقها وزبدها، أتحمل الماء بيدي بديعة ليغسل وجهه وقدميه. لحقه نمر خوفاً من أن يُقذف ويُرمى بالكلام اللاذع والساخر من أحد أهالي البلدة، فيتأذى. وقف يتأمله، فهو يعرف مزاج الشيخ وحبه الكبير لأمه ـ دعه يرحل، يصعد إلى السماء، ينزل إلى الأرض، يسبح بالماء يهرب مع الغيم، يلوح لأمي كأنه يودعها أو يستقبلها.

التفت الشيخ، رأى نمر يقف فوق صخرة ناداه ـ يا ولدي ألا تعرف أخباراً عن أمك؟

ـ انقطعت منذ فترة، ربما يكون جدي مات!!.

ـ رأيته؟

ـ بلى رجل غريب الأطوار يصطاد في الليل، ينام في النهار، يشرب الخمرة بشراهة، يرقص، يغني، يعشق كل وجه وقامة جميلة، يتكلم لغة لا أعرفها. عرفت أنها الإسبانية، تزوج من امرأة غنية هناك، طلقها تزوج ثانية وطلق. ركب سفناً كثيرة، نام فوق أرصفة الموانئ، أحب من جنسيات مختلفة شقراوات، سمراوات، ملونات يقامر بكل أمواله.. اكتشفت أنه يحب التصوير.

- ماذا يصور؟
- النساء، البحر، الموانئ.
- غريب فعلا".
- صارع أناساً كثيرين، ضربَ وضُربَ. لا يمل الكلام عن العوالم، عوالم خيالية، كلها جنيات يعشقنه، يتبعنه أينما رحل، يتحدث عن فلاحين رفعوا المناجل والسكاكين بوجه الملاّك، ،واقسم أنه شاركهم الصراع ونام في البراري وجاع.. وأحبته زوجة المالك رفض الهرب معها!!. يتكلم عن الموت الذي رآه وأحاط به مرات ومرات، ونجا بأعجوبة وبطريقة ساخرة.
- أمك كانت تصفه بأنه غريب.
- هو محب لنا ولأمي، لكنه يشطح كثيراً، خياله واسع وخصب. عندما تعرفت على الصيادين، فهمت جزءاً من طباع جدي، فهو صياد أو تعلم الصيد في غربته، خيالهم يعج بعرائس وحوريات البحر، وقد أقسم أحدهم أنه رآها، أفزعها فهربت منه. إنهم لا يملون الحديث عن تجاربهم مع جنيات البحر.
رافق نمر الشيخ إلى حيث أودع فرسه، ودعه نمر:
- عندما تسمع صوتاً يناديك، وترى رجلاً ملثماً فهو أنا.
- ماذا تفعل يا نمر؟
- لا أقوم بأي عمل يغضب الله، أو يغضبك.
(صفن) الشيخ - والقتل ألا يغضب الله؟. أليس حراماً؟ لم يقل له شيئاً عن أفكاره وظنونه. تودا عا ورحل كل في طريقه.
وصل الشيخ إلى البيت، لم يجد زوجته، ففسر غيابها بخبر مقتل أخيها: أرسل أبوها رجاله وأخذوها. فهي وحيدة وابنها في المدرسة الأمريكية، وربما ضجرت من وحدتها فرحلت إلى بيت أهلها وهناك سمعت الخبر، قدم زوار في المساء، سألوه عن غيابه المقلق، وسماعهم خبر وفاة ابن إسماعيل ،وقصوا عليه أحلامهم ومباركته لهم في المنامات، وتوبيخاته للمذنب منهم. وأقسم أحدهم أنه شاهده يسبح في السماء.

وقال رجل: الناس رأوك تزور القرى وتشفي المرضى، وتدعو إلى التمسك بالدين الحنيف والتقى. والبعض ظنك رحلت بحثاً عن بديعة وابنها أو ابنتها.

نور وجهه الذي أضاء البيت، دفع الزوار إلى الصمت.. والاعتذار، أحسوا بالملائكة تحيطه، خافوا ودّعوه مسرعين قبل أن يكتشف كذبهم، وهو في حالة استغراب بما يحدث.

في اليوم ذاته، ألقت سفينة مراسيها في الميناء الذي غسل الشيخ وجهه ويديه بمائه، سفينة حملت أغلى هدية للشيخ.. بديعة.

تذكرت بديعة لحظات صفوها مع الشيخ، حبه الكبير لها، حبها له.. أحضرت له كل ما يرغب به ويطلبه.. سنوات طويلة مرت لم تنسه يوماً، حبه عشش في كيانها تسربل بدمها. تذكرت كلامه، أشعاره، غزله، توحده بها.. انطلاقه معها في البراري، جسده الذائب بها،تمطقه بطعامها وبالأخص شنكليشها الذي تعلمت صنعه، واستساغت رائحته الكريهة من أجله. تلك اللحظات لم تغب عنها، وكانت تعيشها بتفاصيلها.. وبكل جوارحها.

حبها الوحيد.. لم تحب سليماً.. كانت تحترمه.. فالشيخ رجلها الوحيد.. العمر الذي عاشته هادئة مطمئنة البال رغم الغصات من زوجته ـ كنت أخاف غيابه عن البيت، رحيله.

تنهدت: رحيله شردني، وشرد ابني، لم أودعه.. أو أشرح له.. ماذا يظن الآن بي؟ وماذا نسج اسماعيل وابنته من أكاذيب وتلفيق عني، وعن هربي؟. إنه يعرف أني أعشق التراب الذي يمشي عليه.

ذرفت الدموع الغزيرة وكأنها ترسلها إلى البحر، ليغرفها الشيخ بيده، ويغسل وجهه وعينيه، ويعانق دموعها بالدمع. تعرف مكانتها عنده، ولكن ما الذي يأتي بالشيخ إلى شاطئ البحر؟. أسمع نداء ها توسلاتها؟ هي من تحس بخطاه البعيدة.. وتسمع صوته.. الباكي الحزين، الفرح.. إحساسها الصافي حدسها يقول أنه قريب قريب.. اختنقت بالبكاء.. الشيخ مصاب بمرض أو ضيق، أودعت أغراضها، ويممت وجهها نحو مدرسة ابنها.. استغرب رفاقه،

منذ سنوات لم يزر رفيقهم أحد سوى أخيه.. واليوم أبوه، وهذه المرأة.. ماذا هناك؟

سألت بديعة عن ابنها، أجابها طالب ـ كان والده هنا. ارتجف جسدها، اصطكت أسنانها، لم تفقد الإحساس به، كان هنا.. وقرب البحر، غسل وجهه بدمع عينيها مخلوطاً بماء البحر ـ أكان وحيداً؟

ـ لا، مع نمر.

وصل ابنها قبلّته ضمته بكت ـ أبوك كان هنا؟

ـ نعم، زيارته الأولى لم يكن يعرف مكاني.

أمضت أياماً مع ابنها، ودعته، ووعدته بزيارة قريبة، أخذت عنوان نمر وذهبت تبحث عنه، إلى أن وصلت سلمت عليه.. وسألته عن الشيخ وأخباره.. وإن كان على علم بما فعل اسماعيل وابنته.

ضحك نمر.

ـ أمي، اسألي سؤالاً سؤالاً لأجيبك.. اطمئني عني أولاً، الشيخ بخير زرته وأخبرته بما جرى.. قتل شقيق زينة، وهي في بيت أهلها.

ـ أذهبُ إليه.

ـ تمهلي يا أمي.. حتى نسأل ونعرف أخبار اسماعيل بعد مقتل ابنه.. إذا سمع برجوعك قد يقتلك. دفع الزكاة إلى الشيوخ (المجيديات) لإقناع الشيخ المهاجر أنك هربت، لم يصدق.. لكنه انصاع إلى نصائحهم بألا يبحث عنك.

ـ أريد رؤية الشيخ يا بني.

ـ هذه سهلة..المهم ألا تقربي ضيعتك أو ضيعة الشيخ.

استأجر الشاب بيتاً سكن وأمه فيه، أعطته أموالا" كثيرة ترك أمه ورحل إلى مدينة البحر المضيئة.. اشترى بيتاً واسعاً، فرشته أمه وسكنت به، وعاد إلى منزله..

زار الشيخ، طلب منه رؤية ابنه، فتح الشيخ القرآن وعد سبع صفحات، سبعة أسطر، الآية تدل على التوفيق، شدّا الرحال معاً. وصلا قرب البحر

أركبه قارياً..

ـ هل نقل الولد؟!.

ـ أجل إلى مدرسة أكبر وأجمل.. في مدينة النور، وزبد البحر..

وصلا إلى بيت أمه ـ هنا يسكن أخي.

تركه نمر، وقف الشيخ برهة ـ أين تركني نمر؟. طرق الباب، فتحته بديعة بشعرها الأسود، الذي تتعشقه خصل بيضاء، شعر معقوص إلى الوراء، ارتعش الشيخ، وكذلك هي، لحظات، ساعات، أيام، سنين وجهاهما متقابلان متناجيان باكيان أياماً،و سنوات فراق وبعاد، وهو لا يصدق، صرخ: بديعة.شبيهتها

وتهاوى ، أمسكته و أدخلته البيت أجلسته بجوارها و الشيخ ينتفض أتت له بالماء، رشف، تشردق،ضربته على ظهره نظر إليها غير مصدق ، وشرد. هزّته ـ أنا بديعة بديعة.

– بديعة رحلت بعيداً

– ها أنا أمامك انظر إليّ، رفع بصره، عينان دامعتان.. عيناها الجميلتان. أمسكت يده ثانية فركتها.. قبلتها ثم احتضنته، قبلت وجهه جبينه و بدأت بالعويل.. وضع يده على كتفيها..لم يتمالك نفسه فأخذ يبكي.ثم صمتا..ضمته، وهو ساهم ساهٍ فاجأها:

ـ هل تزوجتِ؟

ـ طلقتني؟

ـ لا..

ـ كيف أتزوج؟

صخرة أثقلت صدره زمناً وانزاحت، عيناها تخترق عينيه، يتكلم بصمت، وهي تصغي وترد:

ـ أقبل رجلاً بعدك؟؟ حرمت الرجال.

ـ وأنتِ فرحة عمري هدية السماء..

احتضَنته ثانية، وبكت من جديد فوق صدره.. بكت:

كلما أفقت قمت بتسخين الماء وكأنك في البيت.. أطبخ الطعام الذي تحبه، اشتريت اللبن خضضته، سخنته، غليته، صفيته، قطعته، شمسته، زعترته (وعملت لك الشنكليش) الذي تحب وكأنك معي.. أحس بمرضك فأبكي.. أأحدد لك ساعات وأيام.. ضيقك، ومرضك، حزنك غيابك عني نمّى أحاسيس لم أكن أعرفها وأدركها و أحلامي ارتبطت بك..تارة أرى أمي تغني...أحس أنك في ضيق.. ويوم عدت كنت أراك واقفاً على الشاطئ.

- كنت هناك أبكي غيابك... أيتها المرأة. فقدت الإحساس بالحياة وطعمها وكذلك الطمأنينة والراحة والنوم، ليلي يشبه نهاري، ونهاري كليلي، الحياة كالموت، والموت كالحياة.. تمنيت الموت كلما قنطت من عودتك، وبرحمة الله.. روحي رزقت الصبر.. والقدرة على الانتظار..

- كانت نسائم البحر تنعش جسديهما - لم اقرب امرأتي منذ رحيلك..

- وولدها؟

بعد طردك وعودتي عرفت أنها حامل.

نهض وحملها بين ذراعيه وضعها في حجره.. شدّها إليه، لن تهربي ثانية.

- لم أهرب.

- الموت يفرقنا.

- الموت فقط

فك الليل، وغرز أصابعه في الخصلات.. اشتقت إلى رائحته، رائحة الرياحين والمسك.. رائحتك هي هي لم تتغير، شممتها بجوار الشاطئ، ضحكت من نفسي، أين أنا؟ وأين هي؟..

- وصلتك الرائحة من دمع العين..

- كنت تبكين يا منية الروح؟.

- توقاً إليك.

شمّها،ضمها إليه، قبلها قبلة، فتح نوافذ البيت المزدوجة والمحمية بأقفاص خشبية، كان القمر مضيئاً. بدر تمام.. لم يتنبه إلى مكان جلوسه وأخيراً رأى

أثـاث البيـت الغريـب وكيـف تجلـس ويجلـس، نظـر إليهـا .. ضـحكت: كرسـي والأضواء الخافتة قناديل ملونة.. حملها إلى النافذة، أمسك شعرها وأسدله فوق النافذة.

ـ ما رأيكَ بمشوار ليلي في المدينة؟

أومأ برأسه موافقاً.

لمت شعرها عقصته من جديد: تفضل.

غطت شعرها بمنديل رقيق، تأملها..

ـ سترى..

مشيا معاً في الطرقات المنتظمة الضيقة الأبنيـة، أسـطح بنيـة خشـبية، وهـو ينظر حوله نظرات ذهول، مشوبة بالخوف، والحذر أحست بتوجساته، وخوفه:

ـ هكذا المدن.

ـ وما هذا البني؟

ـ قرميد.

ـ خشب..

الشـوارع مضـاءة بقناديـل كـبيرة. النسـاء يتجـولن في الطرقـات سـافرات، يحملن بأيديهن حقائب صغيرة..

ـ لدي منها..

والنساء ينظرن إليهما باستغراب.. شيخ ومعه امرأة ترتدي أزياءهن!!

عادا إلى البيت ـ وكأني لم أر شيئاً حتى اليوم..

ـ نحن نعيش يا شيخ بالجوع والفقر، بيوتنا بيوت؟!! خشات أكواخ.

وضعت رأسها على كتفه.. تحدثه تناجيه، أضاءت الشمس الكون:

ـ سكرت البارحة؟

ـ مما شاهدت؟.

ـ من خمرك.

ضحكا: أشتاقك وأنت بجواري.

- أين نمر؟

- لن يعود قبل أيام.. تنزها نهاراً في سوق المدينة، سوق غريبة ملونة، متنوعة... طرابيش.. وأحذية.. وكل شيء يبعث على الخوف.. وبديعة تشرح له اختصاصات الباعة، جلود، أقمشة، أصواف، زجاج. وتضيف ـ خلف هذه البيوت المضاءة هناك أناس لا يجدون طعاماً، يتسولون ويتألمون، فقراء وطيبون.لكن قرانا أكثر فقراً.

أمضيا ثلاثة أيام عاد نمر، ومعه أخوه،المهاجر.

- كيف أسميته

- حلمت قبل يوم واحد من ولادتي أني أزور إحدى قبابك، نذرت إذا جاء صبياً، أسميته المهاجر، لقبك.صمت الشيخ قليلا، لم يجد كلاماً ملائماً يرد عليها:

- علينا العودة إلى القرية.

تدخّل نمر - لا تفتح علينا أبواباً موصدة، أجلّ سفر أمي الآن. قد يقتلونها.

- لمَ؟

- أنت لا تعرف إسماعيل وابنته.. أتوسل إليك.. اتركها وأخي.

تذكرت بديعة - تعال معي..

أخذته إلى غرفة فرشتها كفرش القرية: هذه غرفتك كي ترتاح بالجلوس.. نسيت من فرحتي أن أجلسك هنا. انفرجت أساريره فرش جميل، والأجمل الوسائد القرمزية اللون.ثم أدخلته غرفة نومها، دهش لمرأى السرير، ضحكت ـ هذا سرير نومي.. ستعتاد عليه.

عادا إلى الصالة، وجلسا، لفت رجلاً على رجل.. تذكرت، الشيخ هنا، أنزلت رجلها ابتسمت: الشيب خط ذقنك يا شيخ.

كانت حركته عصبية يقتلع شعر ذقنه بيده - ما هذه الحركات؟

- أصابتني منذ غيابك يا بديعة. لم أسألك عن سفرك.

- كان مُتعِباً.. فأبي كان يغيب أياماً، ويحضر ساعات. فتح في البداية قهوة

حولها إلى مطعم وقهوة.

ـ وأكلك لذيذ.

ـ أفادني طبخي، بعد فترة كثر زبائن المطعم.. حتى أصبح أهم مطعم في البلدة، وفجأة قرر أبي الرحيل إلى المركز، أخذني معه، باع المطعم واستأجرت مطعماً أكبر وجهزته، وأخذت أطبخ وأديره.. أجمع الغلة، أحاسب العمال ولكن لا أقدّم الطعام للزبائن. وأبي يأتيني بمشاريع زواج رابحة، أرفض. آخر عريس كان ثرياً من أثرياء المدينة.. رفضته أيضاً، سألته ـ أتزوجني لغريب؟

ـ وماذا يعني؟..

ضغط علي كي أقبل، هددته بترك البيت والمطعم، رضخ وصمت، لأن الكبر والمغامرات هدّته.. ولم يبق لديه سواي بعد زيجاته المتعددة، وإفلاسه جراء مشاريع خاسرة. أصبحت معيلته ثم مرض وتوفي. بعت المطعم وجمعت ديوني وعدت.

ـ وكيف تلك البلاد؟

ـ جميلة، غنية، أمطارها غريبة، غزيرة في الصيف والشتاء، وكل الفصول، أشجارها لا تعرى، ولا تذبل.. وأصنافها عديدة.. عادات أهلها، ولباسهم، ولغتهم كلها غريبة..

ـ تعلمتها؟

ـ تعلمت الكلام فقط..ولم يكن لدي وقت لأتعلم القراءة والكتابة، وماذا بشأن الولد؟

ـ ننقله إلى المدرسة الأمريكية في المنطقة.

ـ ستغلق

ـ ننقله إلى هنا.. المدارس الأجنبية والعربية كثيرة.

التفت إليها وهو يبتسم ـ منظرك يشبه النسوة هناك في المدينة.

ـ هي الغربة الطويلة ومعاشرة الناس.

ـ صحيح.

قرر الرحيل، شاورته بشأن فتح مطعم يقدم الأصناف الأجنبية والعربية فيه وافق بشرط ألا تقدم الطعام، أو تظهر أمام الزبائن بل يديره نمر.

استأجرت مطعماً بجوار البحر أداره نمر.

اشتهر المطعم خلال فترة قصيرة، كان رواده أجانب، زادت أصناف الوجبات الإفرنجية. وفي أحد الأيام طلبت امرأة لقاءها، جلست في غرفة نمر تنتظر بديعة، ولمّا حضرت، لم تعرفها، عرّفتها عن نفسها ـ جميلة.

وفي هذه الأثناء قام رجل عن إحدى الموائد وصرح ـ بديعة، بديعة

جحظت عيناها، ثم ارتمت على الأرض فاقدة الوعي، صرخ ابنها رشها بالماء، نشقها البصل، أفاقت، كانت تجلس على الكرسي، دهش الرجل.

ـ ما بالك يا بديعة؟.

ارتجف جسدها اصطكت أسنانها، هو، هو.. تذكرت ليلتها الأولى ألمها الفظيع، صراخها، ضحكه، حركاته الشرسة، صرخت، لم يعد نمر يعرف ماذا يفعل.

ـ ألم تمت؟

صعق الرجل واهتزّ، وهو يردد ـ أنت وراء محاولة قتلي.

سندها ابنها وجاء بعربة خيل، أركبها وأوصلها إلى البيت، ارتمت على السرير،عيناها مغمضتان، رأسها يلف ـ صبية صغيرة مرمية في الأرض، دمها يسيل، إقياؤها.. رفضها.. كأن هذا الرجل قدر لا يموت. هرب سليم من قتل ناقص، وقتل.. وهاهو الرجل يظهر ثانية في حياتها، يحرمها فرحة رجوعها إلى الشيخ وولديها،.. صرخت وصرخت، فتح نمر الباب ـ مابك؟.

ـ سأقتله، أبوك تحول إلى قاطع طريق بسببه.

ـ أنا أقتله.

ـ لا يا ولدي.

هدأت قليلاً ـ تتحول أنت أيضاً إلى قاطع طريق.

ـ من هذا الرجل؟.

ـ خدمت في بيته، كان يضربني وزوجته، عندما رأيته خفت.

ـ أمي أهي الحقيقة ؟

نام نمر في غرفه أمه، وفي الصباح طلب منها البقاء في البيت.. ذهب إلى المطعم، كلّف شاباً بإدارته وقرر الرحيل إلى الشيخ.

رجع إلى البيت، أخبر أمه برغبته بالسفر إلى الشيخ منعته سألها عن اسم الرجل: فائز.

تركها .. وفتش في فنادق المدينة.. وجده.. وبدأ يراقبه.. لم يصدق ما قالته أمه.. اقتحم عليه الغرفة. رآه ممدداً بالأرض ميتاً، وبجواره مومس جميلة.. حمله، وأرسله إلى مدينته مع رسالة تشرح الواقعة..

عاد إلى أمه ـ ألمْ تذهب إلى التشريفة؟

ـ كنت أراقب فائز، وقد مات و بجواره مومس، أرسلته ومعه رسالة وفضيحة. قامت بديعة رقصت، غنت دارت في البيت، ضحكت ضحكات هستيرية: كأنها مست بجنون، بكى نمرـ الأمر كان كبيراً.

بقيت طوال الأسبوع على تلك الحالة.

عادت إلى عملها ونوبة حزن انتابتها فجأة، وظهرت على شكل تجاعيد تحت عينيها.

غاب نمر، ورجع برفقة الشيخ، استعادت أمه حيويتها وحركتها في البيت، ونقل الولد إلى المدرسة في المدينة، استثمر الوقت بتعليم ابنه الدين والتمسك به وعدم تغييره، واللغة العربية والقرآن، وطلبت بديعة منه أن يعلمها أيضاً.



حاولت بديعة الرجوع إلى التشريفة أكثر من مرة، عناد نمر أجبرها على البقاء في المدينة، وعدم العودة.. أحست أن وراء ابنها خطباً جللاً لا يبوح به.واعتادت غياب الشيخ.

وبعد أيام عادت جميلة إلى المطعم تسأل عن بديعة.. أخذها نمر إلى

البيت.

التقت بديعة، وجميلة، وأسئلة تدور في رأسيهما، ضحكت جميلة ـ تريدين معرفة أسباب رحيلي.. هربت من زوجي، ومن الناس الذين التموا حولي يسألوني عن سرقة وقتل.. وموت. كنت أرى مناظر تقشعر لها الأبدان.. وزوجي يفرض علي الإجابة حول حاجات الناس مقابل المال.

رفضت، ضربني ضرباً مبرحاً أكثر من مرة.. هربت منه ومن الجوع وطلبات الناس.

ـ أحقاً كنت تعرفين السارقين ومكان السرقة وكيف خبئت.. وكذلك القاتل.

ـ صحيح بفضل وساطة شيخ كبير المقام وقديم قبره في المدينة المغلقة القديمة، دلني عليه شخص غريب من تلك المدينة، وقال أني أستطيع كشف الأسرار الغامضة، والأشياء الضائعة.. وتحديد الأراضي.. إلخ. علمني قراءة بعض الكلمات والآيات، كنت أغمض عيني، أستدعي الشيخ أسأله. يحضر أمامي الأشخاص الذين أسال عنهم.. السارقون.. القتلة.. والبيوت.. تعبت كثيراً أقسمت أن أوقف ذلك.. حاول زوجي أن يثنيني، رفضت، صرخت، ضربني.. هربت إلى الحصاد، تعرضت إلى رذالة وكيل البيك في الحقول.. رددت عليه.. حاول النيل مني صرخت وهدّدته بالقتل، عرضني على الباشا ليضربني، ويذلني.. ضمني إلى خدمه، حاول الاعتداء علي ردعته و هددته. كانت زوجته قوية، وتغار مني منعته من الاقتراب، وشجعت أولاده علي، كلما اقترب أحدهم، صرختُ وأصبح البيت شجارات و صراعات.. أخذني البيك إلى قريبه كان في الخمسين من العمر، أرمل حذره من شراستي وسماني (شموص) أحتاج إلى ترويض، وبيته لا يسمح.

كان بيت الباشا الجديد مبنياً بالحجارة البيضاء، كراسٍ محفورة، وسجاد يلمع، أرائكه من حرير وريش نعام.. بيت كبيوت الملوك، واسع.. جميل.. أكثر بكثير من بيت النذل الذي كنت أخدم عنده، صيوانان واسعان.. وتحف غريبة وعجيبة.. عندما رآني جفل: جميلة.. جميلة.

ضحك البيك: اسمها جميلة.

دلني على المطبخ جلست هناك، وفيما بعد عرفت الحديث الذي دار بينهما حولي.. وأنه اضطر إلى طردي من البيت. خشي من غيرة زوجته، وخاف على أبنائه مني. قد أقتلهم.

تركني البيك مع الباشا الخمسيني - أنت وحدكَ؟

- نعم.

- لن أبقى هنا .. أفضل البراري.

ابتسم - لا تخافي هنا خدم غيرك..!

خصني بغرفة كبيرة وجميلة مطلة على البساتين، وتطل من الجهة الأخرى على نهر كبير: عملك تقديم الطعام لي..

كنت أجلس قبالته يدعوني للأكل معه.. وبعد شهرين طلب الزواج مني وافقت، وأنجبت أربعة أولاد.. بنتين وولدين، وبعد موته قتل أبناء عمومته ابني من أجل التركة.. سلمت الأراضي، وأجرّت كل ما أملك، وهربت إلى هنا .

- قيل أنك ذهبت لشراء بيض وحنطة ولم تعودي.

- أعرف.

- وأنت..

- الشيخ عطوف رؤوم.. تقي نقي..

ضحكت جميلة- تأثرت بكلام الشيوخ.. المهم معاملته..

- أنت تعرفين ما فعله معي، وهذا يكفي.. ومع أنه شيخ لكنه يعشق الأزهار والغابات، والأنهار، والشعر الجميل، والوجه الجميل ويردد - الله جميل يحب الجمال المهم ألا يعصى الخالق.

- يقال أنه زاهد.. وزاهد بالمرأة!!

ضحكت بديعة - لم يعد زاهداً بها.. عندما يأتي أعرفه عليك أخاف أن يتزوجك.

أعطتها جميلة عنوانها..

عاد الشيخ من جديد عرفته على جميلة، علق ـ اشتريت الأغراض أم أنك تبحثين عنها حتى الآن؟

ضحكت: وجدتها .. طلبت من الشيخ أن يعلم ابنها الدين واللغة، فوافق. وبينما هم في الحديث وصل نمر، وسأل أمه عن أخبار المدينة.

ـ لم أسمع يا بني.. أنت تعرف ما يدور.. يقال هناك عصيانات وتمردات تحدث ضد العثمانيين.وقد قتل أناس كثر.. ووصل قتلى من الحرب..

ـ أفكر في الرحيل من هذه البلاد.

ـ إلى أين؟

ـ إلى المكان الذي رحل إليه جدي.

ـ لا تخف إذا طلبك العثمانيون ندفع المال ونخلصك.

سأل الشيخ عما يجري ويحدث:

ـ نسمع أحاديث غريبة عن الدولة العليا، و شتائم ضد العثمانيين، طردهم من البلاد .. لا أفهم ما يقال..

أضاف نمر ـ يبدو أن العثمانيين على أبواب هزيمة و خسارة الحرب.. سنتخلص منهم عما قريب بإذن الله.. في الأيام القادمة تتجلي الأمور. الأوضاع هنا في المدينة عاصفة، أعدموا رجالاً كثر وسجنوا وعذبوا .. وظلموا .. لن يبقوا في هذه البلاد.

أقفل نمر راجعاً إلى قرية أعمامه، والشيخ إلى التشريفة، وظلت بديعة تتابع ما يجري حولها تسمع وتراقب رواد المطعم، والمهاجر الصغير يشرح لها الكلمات التي تسمعها، ولا تفهم معناها .. وينقل لها أخبار المدرسة وأن الإنجليز والفرنسيين على الشواطئ.. ينتظرون الفرصة لدك العثمانيين.

تحول المطعم إلى ملجأ للناقمين على العثمانيين، خافت بديعة وقررت تسليمه، وطلبت نقل مدرسة المهاجر إلى منطقة قريبة من سكن نمر، رفض ـ لن أترك مدرستي، كل يوم نقل؟ تركته في مدرسة داخلية.. ورحلت إلى بيت نمر، سألت عنه ـ فعلمت أنه غائب منذ أيام، انتظرته حتى عاد. سألته:

- ماذا تفعل؟
- لا شيء.
- يا بني الدرك قتلوا أباك، لماذا تثكلني ثانية؟
- لا تخافي.
- والدك كان يقول لا تخافي.. وقتل.
- عودي إلى التشريفة.
- وزينة.
- في بيت أهلها.. لا خوف منهم.
- هل قتلت؟.
- لا دخل لك.
- أجبني.
- لن أقول لك شيئاً.
- قتلتَ ابن اسماعيل بيك.

لم يرد وقال - نحارب العثمانيين، إنهم ظلمة، أذلونا، نهبوا البلاد والعباد، لا أحد يعرف سواك.. اذهبي الآن.

- يا بني قد يقتلونك.
- لا تخافي، واذهبي.. لن أكون الوحيد الذي يقتل.

إصراره وردعه لها، أسكتها وأقلقها.

في الصباح رحلت بديعة ومعها نمر إلى قرية التشريفة، استقبلهما الشيخ. طلب نمر شنكليشاً وخمراً، شرب حتى ثمل - إنه سر العناقيد! سر الوجود! غسل وجهه بها، وأمه تراقبه،فزعت، ارتعدت - يتصرف كأبيه.

ودع الشيخ،حذر ونبه أمه ألا تقول له شيئاً، ورحل صوب النهر، اغتسل كأبيه وأكمل طريقه..

جلس الشيخ أمام رماد الموقد، يرسم أشكالاً، وحروفاً للزوار الذين ينقلون أخباراً عن القتل والتشليح، وضرب الباشوات، المسكينة بديعة فكانت تقف خلف

الأبواب، تسترق السمع عما يدور.. وقلبها مقبوض على ابنها والشيخ لا يدري مخاوف بديعة إلى أن أفاقت يوما مكفهرة الوجه، وجه الصبح، ووقت صلاة الشيخ، انتظرته حتى أنهى ذكر ربه نادته:

رأيت حلماً مزعجاً: أموات يحملون أثاثاً جديداً لبيت إسماعيل بيك، يَرمون الأثاث القديم..

صمت قليلاً، اليوم السابع والعشرون، الأحلام صادقة، وبديعة غالباً ما تصدق أحلامها سألته التفسير- قد يصل خبر ميت من بيت اسماعيل.

ركب فرسه وذهب لرؤية زينة وابنه، وفي الطريق سمع خبر قتل اسماعيل بيك في أرضه. عاد وحكى لبديعة الخبر.. صمتت وعيناها تشيان تفشيان اسم القاتل.

أحس الشيخ من نظراتها أنها تخفي سر القاتل، سألها لم تجب، كرر السؤال ثانية.. صرخ: ـ القاتل ابنك.

لم ترد...

ـ لن تبقي هنا يوماً واحداً..

فتحت الباب وأغلقته وصرخت: أنا حامل..

أخرج دن الخمر شرب وشرب ثم دلق ما تبقى على رأسه. كأنه يرى نمر أمامه... يقلده..ويهرب من صورته.

في ذاته غاص وجه الراوي الجامعي بثنيات الصور الضبابية..



تجليات جدي الشيخ المهاجر

الزمان لا زمان، ميتافيزيقيا الزمن، لاهوتيته الممتدة من القرون والعقود دون توقف أو استفهام.

تخرج الأزل إلى الأبد، تتشابك قرون الإسكندر المذهبة من مياه فينيقيا، وتغرز بذوراً جديدة في آلهة الخصب السابحة بين الماء والسماء، تعلو الزغاريد، زغاريد عرس دموي غرائبي الشكل.

تحُرق المدن وترحل مع سكانها، وتبقى الأعمدة، وبعض الأسماء والألواح. ومع الأيام يغدو ذو القرنين أسطورة من أساطير فينيقيا وعيداً من أعيادها المقدسة ورسماً من رسومها الحجرية والفخارية، وتعلو القرنين المذهبتين الرايات الأرجوانية، ملطخة بالسواد والقدسية.

ISBN 978-9933-407-37-7



للدراسات
والنشر
والتوزيع





